# في ظلال الايمان

محمد المجذوب

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

مكتبة الضياء

جدة - ص.ب : ٥٨٩٣ - ت : ٦٨٩٣٨٦٤

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعـة الأولى

١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م




بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

محتويات هذا الكتاب سبق نشر أكثرها فى المجلات والصحف، وحالت ظروف خاصة ـ لا تخفى على القارىء الفطن ـ دون نشر أخواتها. . وقد رأيت، وأنا أتهيأ للقاء الله على رأس التاسعة والسبعين، أن أصنف ما لديّ من نتاج حديث وقديم في كتب للنشر، فكان منه حتى الآن قرابة العشرة أحدها هذه المجموعة التي اخترت لها هذا العنوان (في ظلال الإيمان) ورجائي من الله أن يمدني بالعون لاستكمال البقية، التي لن تقل عن ثلاثة أخرى، أحدها شعر الديوان الثالث الذي سيكون باسم (أحلام وآلام).

وحتى لو أتيح لي ترتيب هذه المخلفات إلى أن تنتظم في أمكنتها من المصنفات فسيبقى في النفس بحوث وخواطر وقصائد ومقالات يعجز عن استيعابها القلم مهما امتد به الزمن، وما أنا وهي إلا كما قلت عام ١٩٤٧ في صدر ديواني الأول (نار ونور):

في النفس شعر كثير يضيق عنه بياني
وما لديّ مجال لشأنه ولشاني
أخاف من أجله المو تَ أن يشل لساني
ولْم أقل كل ما في قلبي لأهل زماني

وها أنذا بعد سبعة وثلاثين عاماً من ذلك العهد أجدني في الموقف نفسه الذي صورته هذه الأبيات.

فتعالى الله الذى جعل من النفس البشرية منبعاً لا ينضب من المشاعر والأفكار فلا ينقطع عطاؤها إلا حين يتوقف نبضها.

والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلى الله وسلم على صفوته من خلقه محمد وآله وصحبه.

المدينة المنورة ـ ساحة مسجد قباء

**محمد المجذوب**

# أصح البشائر
# في مبعث سيد الأوائل والأواخر

لا حاجة إلى القول بأني أحد المستمتعين بأحاديث الأخ الشيخ علي الطنطاوي، التي يرسلها عن طريق المذياع قبيل صلاة العصر من كل يوم، حتى لا يكاد يفوتني أحدها الا تحت ضغط الضرورة، فالشيخ ـ حفظه الله وبارك في حياته ـ قد أصبح منذ بدأ هذه الأحاديث أنيس الجماهير، إذ اقتحم على الناس مساكنهم ومشاغلهم، واجتذب اهتمامهم فألِفوا صوته، واستعذبوا أسلوبه، الذي يمزج الجد باللعب، والعلم بالأدب، ويخالط مشاعرهم بما يتناول من مسائلهم ومشكلاتهم وتطلعاتهم.. بتلك اللهجة المحببة التي يطلقها على فطرتها، فتحمل الى المستمع ـ والرائي ـ نفحات الغوطة ومشاهد قاسيون، وذكريات دمَّر وبردى من دنيا الشام، دنيا الصبا والشباب والأحلام..

والله تبارك اسمه، الذى أعطى كل شيء خلْقه ثم هدى، هو الذي قدر التلاقي والافتراق في نطاق الأفكار، فقد تتقارب حتى لَتجمعُها الوحدة، وتتباين حتى لا يتصور بينها لقاء. وطبيعي أن يرتفع منسوب هذا وذاك بالنسبة إلى أحاديث تكاد تؤلف موسوعة يتعذر تحديدها من المعلومات والمفهومات والتقريرات والفكاهات.. وعلى الرغم من كثرة نقاط التلاقي بين أفكار الأخ على الطنطاوي وأفكاري، فهناك مواقف نختلف عليها وقد يبلغ بعضها حداً يقتضي الحوار، فأكتب به إليه أو يعقب في أحاديثه عليه.. وعلى هذا السَّنن أراني اليوم مدفوعاً لمناقشة واحدة من نقاط الاختلاف التي عرض لها في بعض أحاديثه أكثر من مرة. وقد كان عليّ أن أثير هذه المناقشة معه من زمان، بيد أن ظروف العمل التي تستحوذ على معظم وقتي حالت دون ذلك من قبل، وإنما حفزني إليها اليوم خبر أورده ابن إسحق

في تضاعيف السيرة ومرّ به ابن هشام ثم العاملون في خدمتها من المحققين والناشرين دون أن يلقوا إليه بالاً فيما أعلم . .

وبإزاء هذا الخبر وقفت أتأمل وأفكر وأقارن، حتى انتهيت إلى القناعة بأن من الخير كتابة هذا البحث لا في شأنه وحده، بل في أهم جوانب الموضوع المتصل به، مما سبق أن أثاره في صدري حديث الأستاذ المكرر. .

□ أما الموضوع ففي نطاق البشائر التي تقدمت مَبْعَثَ رسول الله ﷺ عن مقدمه وبعثته والرسالة العظمى التي يحملها إلى الثقلين جميعاً، فيجمع بها شمل الإنسانية التي فرقتها العصبيات، وينشر لأول مرة في تاريخ الدنيا إعلانه العالمي عن حقوق الإنسان في الحياة والكرامة والحرية.

ومهما تكن المناسبة التي دعت الأستاذ الطنطاوي إلى التعرض لهذا الموضوع، فهي لا تعدو سؤالاً أورده أحد مستمعيه بغية الوقوف على جوابه بشأن ما ذكره كُتّابُ السيرة النبوية عن المبشّرات بظهور رسول الله ﷺ في مختلف الروايات التاريخية. وقد رأيت الأستاذ أجزل الله مثوبته يميل صراحة إلى إنكار هذه الأخبار، ليؤكد خلو ذهن المصطفى ﷺ من أي علم سابق عن ترشيحه لذلك المنصب الأعلى. . وما أدري أجاء تكراره لهذه الأفكار من قبل الاذاعة التي من عادتها إعادة بعض الحلقات في مناسبات مختلفة، أم كان جواباً مؤكداً على سؤال جديد في الموضوع نفسه! . . وعلى أي حال فقد كان لموقفه هذا أثره في صدري كما أسلفت، لاعتقادي أنه ينطوي على إطلاق لابد من تقييده، حِفاظاً على الحقيقة التي نحبها جميعاً، ذلك لأن قبول كل ما ورد في السيرة من هذه البشائر ضرب من الاستسلام الضرير، الذي لا تقره الرؤية الإسلامية، كما أن رفض كل ما يتعلق بهذا الجانب تحكم لا مسوغ له في منطق العلم والعقل. .

وإذن ففي جوابي الأستاذ حول هذه البشائر صواب لا مندوحة عن إقراره، وفيهما خطأ لا يرضى هو بالسكوت عنه، ولا يتفق مع منهجه العلمي. . ولننظر الآن في كل من الجانبين على حدة.

□ إن المتتبع في وعي لروايات السيرة حول نشأة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه يجد نفسه بإزاء أخبار من حقها ـ لو صحت ـ أن تهيىء ذهنه ﷺ لاستقبال النبأ العظيم . . وفي مقدمة هذه الروايات خبر بحيرا ، الذي تُقدمه الرواية على أنه راهب عربي ، اتخذ في طريق القوافل على حدود الشام صومعةً يعبد بها ربه ، حتى إذا مرّ به ركب قريش ، وفيه أبوطالب وابن أخيه ـ الذي لم يتجاوز الثانية عشرة بعد ـ شدَّت انتباهه ظاهرة غير مألوفة ما لبث أن تحرك لاستكشافها ، فدعا القوم لطعامه ، وأكد عليهم أن لا يتخلف عنه أحد منهم ومن ثم شرع في تحريه ، استقراء عن طريق العلامات المميزة ، واستنطاقا بالأسئلة التي طرحها على الغلام المنشود ، حتى استيقن الحقيقة التي يتطلع إليها أُولو العلم من أحبار يهود ورهبان النصارى . . وهنا تنتهي قصة بحيرا لدى ابن هشام وابن كثير[1] ثم يواصل الثاني حديثه عن بحيرا برواية قُراد أبي نوح ، التي تقول إن بحيرا قد أعلن قناعته بكون هذا اليتيم هو المبعوث المنتظر.[2]

ثم تأتي الرواية الأخرى عن رحلته ﷺ بتجارة الطاهرة ـ خديجة ـ إلى الشام ، حيث أُتيح لفتاها ميسرة أن يرى ويسمع من خلال محمد ﷺ ما ملأ قلبه إعجاباً وتقديراً .

• ولا تقف الرواية عند هذا الحد ، بل تضم إليه أيضاً بعض المشاهد الخارقة التي أحاطت بالرفيق الكريم أثناء الرحلة ، من تظليل الغمام ورعاية الملكَين له . . وإخبار راهب نصراني لميسرة بما يفيد أن رفيقه مرشَّح لمقام النبوة . . .[2] حتى إذا وصل ركبهما مكة ذهب ميسرة يحدث مولاته خديجة بمرئياته ومسموعاته ، وبخاصة كلمة الراهب ، فلم تتمالك أن مضت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تذكر له حديث ميسرة ، فما كان من هذا إلا أن أكد لها توقعات الراهب قائلاً : لئن كان هذا حقاً يا خديجة ان محمداً لنبي هذه الأمة . .[3]

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ص ١٨٣/ج/١/ط/ الحلبي/١٣٧٥ والبداية والنهاية ص ٢٨٣-٢٨٤/ج/٢/ ط المعارف بيروت ١٩٧٧ .

(٢) ابن كثير ج/٢/ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٣) ابن هشام ج/١/ط/ الحلبي ص ١٧٧ ـ ١٩١ وابن كثير ج/٢/ ص ٢٩٣-٢٩٦ .

وتمضي الرواية فتعرض لنا اهتمام ورقة عقيب ذلك بخبر محمد ﷺ حتى ليترجم أشواقه إلى يوم إعلانه دعوته بأبيات نثبت فيما يلي بعضها.

لججتُ، وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قسٍّ ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فياليتي إذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أكثرهم ولوجا
ولوجا في الذي كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا

ويتبع هذه الروايات أخبار أخرى عن كهنة العرب، تشير إلى مبعث النبي الموعود، مرة بالرمز إليه، وأخرى بالتصريح عن اسمه.. وحسبنا منها جميعاً معالجة الخبرين الأولين بالممكن من التدقيق في قيمتهما العلمية ومدى صلتهما بالواقع.

ونبدأ بخبر بحيرا. فمع اختلاف مؤرخي السيرة في شخصيته ونسبه وملته يكادون يتفقون على كونه من أحبار أهل الكتاب، قد أقام في صومعته تلك يعبد الله في معزل عن مفاسد عصره. وحين يعرضون ليوم لقائه محمداً ﷺ مع عمه أبي

طالب يكادون يتفقون كذلك على تنويهه بشأنه، بعد تحققه من صفاته التي يجدها في بعض آثار الأنبياء السابقين. . ويزيد بعضهم أنه على مرأى ومسمع من أشياخ الركب (أخذ بيد محمد ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، وفي رواية الترمذي والبيهقي قال: هذا رسول رب العالمين بعثه الله رحمة للعالمين. .) ولما سأله هؤلاء عن مستند علمه عنه أجاب (إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرة ولا حجر الا خرّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي. . وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف في كتفه. .) ولم يكتف بالخبر فأراهم الشجرة وهي تفيىء بظلها عليه. . ثم ما زال بعمه حتى رده إلى مكة حماية له من الروم ـ وفي رواية من يهود ـ وتُختم هذه الرواية بأن أبابكر بعث معه بلالاً وزوده الراهب بالكعك والزيت.[٤].

والذي يهمنا من حديث بحيرا هو إخباره بمستقبل محمد ﷺ من حيث اصطفاء الله إياه لرسالته الخاتمة، وتوكيده ذلك بسجود الشجر والحجر له. . فهاهنا يتوقف القارىء المفكر ليتساءل عن نصيب القصة من الواقع، وبخاصة أن بحيرا لم يلق بالخبر همساً في مسمع واحد بعينه بل أعلنه صراحة على ملأ من أفراد الركب، الذين طالبه أشياخهم بالبرهان على مدّعاه. .

وأنت حين تواجه هذا الخبر لا بد لك من التساؤل كيف ينسى محمد ﷺ ذلك النبأ في ما بعد، وما بال أشياخ قريش ينسونه أيضاً، فلا يتذكرونه يوم يطلع عليهم بدعوة ربه؟. بل يقابلونها بالجحود والعناد، الذي يقطع بأن المعارضين قد فوجئوا بها، كما فوجيء بها محمد ﷺ نفسه، الذي ناء تحت ثقله أول الأمر، ثم لم يطمئن قلبه إليها إلا بعد أن ثبته الله بلطفه، وبما يسر له من عون الزوج العظيمة خديجة. .

ونظرة أخيرة إلى خاتمة القصة تكشف لك واحدة من المشكلات التي لا تجد لها حلاً. . إذ المعلوم أن رسول الله ﷺ وكان في الثانية عشرة، يكبر صِديقه أبابكر بما يقارب الثلاث من السنوات، إذ كان ما بين التاسعة والعاشرة، ولم تذكر له السيرة أى صلة ببلال، الذي كان في رق أمية بن خلف حتى يوم انتقاله إلى ملك

---

(٤) انظر البداية والنهاية ٢٨٤ و ٢٨٥ جـ ٥ وسنن الترمذي جـ ٥ ٢٥٠ ـ ١٥١ ط السلفية والدلائل للبيهقي ٣٠٧/١.

الصديق في أوائل سني البعثة.. فكيف كبّر الصديق حتى قام بمسئولية الحماية لمحمد؟.. وكيف أفلت بلال من رق أمية ودخل في سلطان الصديق؟.. وكيف ارتفعت سنه بغتة حتى صار قادراً على القيام بهذه المهمة؟! ومن أين جاء اسم الكعك الى القصة وهو لفظ لعله لم يتطرق إلى العربية إلا بعد الفتح الإسلامي؟!!.

وهـذه الحيرة التي تراودك بازاء القصة قد سبقنا إليها عدد من رجال الحديث الذين لم يستطيعوا ردها تهيباً لسنده ولكنهم لم يكتموا رأيهم بأن من حملها إنما حملها لغرابتها مع التوكيد على انفراد راويها الأخير بها، حتى أن ابن اسحق نفسه لم يستطع عرضها إلا في صيغة «الزعم» التي تنم عن منتهى الشك[٥] وكذلك فعل ابن كثير حين وجّه إليها نقدا يوشك أن يكون ردا للرواية بأسرها، ومثله صنع الزرقاني في شرحه على المواهب إذ نقل تضعيف الذهبي للخبر[٦] كما فعل البيهقي بقوله نقلاً عن أحدهم (ليس في الدنيا مخلوق يحدث به غير قراد). [٧]

ونتقل الآن إلى القسم الثاني

لقد قام رسول الله ﷺ بتجارة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من سنيه، وكان رفيقه في هذه الرحلة ميسرة غلامها، ولابد أنها استغرقت طويلاً من الزمن، وبذلك أتيح لميسرة وهو العاقل الفهم ـ كما يلوح من خلال الرواية ـ أن يشهد من خلائق محمد وسمو تصرفاته أثناءها ما يدفعه إلى الحديث عنهما لكل من يتصل به وبخاصة مولاته خديجة، التي لابد أنها أصغت إلى روايته تلك بإعجاب الكريم الفاضل يسمع أنباء إنسان بلغ القمة في عالم الفضائل، حتى ليدفعها ذلك الإعجاب إلى التفكير في الاقتران به. وسواء توسلت إلى هذه الأمنية الغالية بعرض أمرها عليه مباشرة ـ كرواية ابن اسحاق[١٠] ـ أو بوساطة المرأة الحكيمة نفيسة بنت

---

(٥ و٦) ابن كثير جـ ٢ / ٢٨٥ وابن هشام جـ ١ / ١٨٠-١٨٣ ط الحلبي.

(٧) انظر هامش ص ٨٢ من كتاب (الفصول في اختصار سيرة الرسول) طـ دار القلم ببيروت.

(٨) راجع الدلائل ص ٣٠٩ ط السلفية.

(٩) ابن هشام ط الحلبي ص ١٨٩ جـ ١.

علية[11] أو عن طريق أخت لخديجة في إحدى الروايات، فقد أتم الله ذلك القران السعيد الذي عم ببركته لا بيت رسول الله ﷺ فحسب بل العالم الإسلامي بأجمعه حتى تقوم الساعة.

وإلى هنا والخبر طبيعي ومعقول، ولكن التوقف إنما يتأتى عند بقيته، حيث نرى خديجة رضي الله عنها مشغولة الذهن بموضوع الغمامة والملائكة وخبر النبوة، حتى لا تتمالك أن تقصد إلى ذلك الرجل الحكيم العليم ورقة بن نوفل لتتعرف تأويل تلك الظواهر، فتسمع منه البشرى بنبوة محمد ﷺ فيكون ذلك باعثها الفعال على طلب الزواج منه.

وبقليل من التأمل في مسيرة هذا الجزء من الرواية يتضح اضطرابه هو الآخر ذلك أن خبراً كهذا تسمعه خديجة من ميسرة ثم من ورقة من حقه أن يصل إلى محمد ﷺ عقب زواجه أو خلال الخمسَ عشرةَ سنة التي سبقت الوحي، وهذا ما ترفضه الوقائع، التي تؤكد أن محمداً وخديجة كليهما كانا سواء في خلو ذهنيهما من أمر الوحي، إذ فاجأه على غير انتظار، وفاجأها به في جو من الروع المهيب، فلم تجد ما تقوله له سوى التذكير بفضائله التي لا يقاربها الشيطان.. وحسبنا دليلاً حاسماً على خلو ذهنه ﷺ من موضوع النبوة كليّاً قول ربه له تبارك اسمه: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرِنا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الإيمان..**﴾ الشورى ٥٢. وهو توكيد جازم لما سبق من قوله الآخر سبحانه في سورة الضحى ﴿**وَوَجدَكَ ضَالاً فهدى**﴾ ففي كلتا الآيتين تصوير عميق الدلالة على الوضع النفسي الذي كان يلابس محمداً ﷺ قبل الوحي، فهو في حيرة لا يعرف السبيل إلى جلائها، فلا فكرة لديه عن رسالات الله، ولا يعرف من الإيمان سوى التوحيد الفطري الذي ينطق به كل شيء في هذا الكون، إلى أن فاجأه الزائر العظيم في أحضان حراء..

ومن هذا كله نجد أنفسنا تلقاء أمرين: أحدهما الشك في خبر الراهب النصراني عن الغمام والملائكة والشجرة التي (ما نزل تحتها قط إلا نبى)[11] والثاني أن يكون

(٣) ابن هشام ط دار الفكر جـ ١/ ٢٠٥ ـ في الهامش ـ وفي (المنتخب من السنة) تذكر باسم نفيسة.

اتصال خديجة بورقة لاستطلاع رأيه لم يأت عقيب عودته وميسرة من الشام، بل الأحرى أن يكون حصوله على أثر نزول الوحي مباشرة، يوم عاد إليها رسول الله ﷺ يرجف من الروع، فذهبت به إلى ابن عمها الذي طمأنه وبشره بالنبوة.[١٢]

وعلى هذا التقدير يكون ثمة تقديم وتأخير في أجزاء الحادث المتصل ببشرى ورقة.. ولعلنا لو أعدنا ترتيب هذه الأجزاء وفق منطق الحوادث لوجدنا أنفسنا تلقاء الصورة التالية أو قريباً منها:

يعود رسول الله ﷺ إثر اللحظة الهائلة التي قُدِّر له فيها لقاء جبريل عليه السلام إلى خديجة يرتجف من الروع، فتتلقاه بأحسن ما تملك من كريم الرعاية وجميل البيان، حتى إذا أطمأنت إلى هدوئه، أخذت سبيلها في زورة عجلى إلى ابن عمها ورقة، أعلم أهل مكة بأمور الدين، فما إن يسمع حديثها عن تلك المفاجأة حتى يهزه الوجد، ويأخذ في التسبيح: قُدوس قُدوس.. ثم يصرح بالبشرى: (والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر - جبريل - وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت).[١٣]

وهكذا تعود خديجة رضى الله عنها إلى محمد ﷺ بكلمة ورقة تشد بها عزيمته، ولتقول له في ثقة عالية وبألفاظ ورقة نفسها: (والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة)[١٤]. وطلباً للمزيد من التثبيت ترى أن يسمع محمد تلك البشرى الشافية من فم صاحبها مباشرة، ولذلك (انطلقت بمحمد حتى أتت ورقة فقالت له: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك.. فأخبره ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى[١٤] ومن هنا جعلت الأشواق تتفاعل في صدر ورقة إلى اليوم الذي يؤمر فيه النبي الخاتم بتبليغ رسالة ربه. فلا يتمالك أن يترجمها بتلك الأبيات التي أثبتناها فيما تقدم. ثم يلقى محمداً ﷺ وهو يطوف بالبيت

---

(١١) ابن هشام ط الحلبي جـ١ ص ١٨٨/ وعبارة ابن كثير خالية من الظرف «قط» جـ٢ ص ٢٩٤ ويفسر السهيلي عبارة الراهب بقصده إلى محمد ﷺ وهو بعيد، وذكر الظرف المستغرق للماضي عند ابن هشام يفيد انه لم يجلس تحت هذه الشجرة قبل محمد ﷺ الا النبيون.

(١٢ و١٣ و١٤) ابن هشام ط الحلبي ص ٣٣٨ جـ ١ وانظر ابن كثير جـ ٣ ص ٣ والمنتخب من السنة جـ ٧٤/٧٣/١.

فيستعيد خبره، ولعله يستوضحه عما جدّ له، فيقص عليه ما رأى وما سمع، فيكرر ورقة ما قاله من قبل مؤكداً بشراه بالقسم: (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة).[14]

ومما يؤيد هذا الاتجاه في ترتيب أجزاء الخبر رواية ابن كثير له حيث يعرض نبأ عودته ﷺ إلى خديجة وهو يقول: (زملوني زملوني، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجه بأمره. وقال لقد خشيت على نفسي.. فجعلت خديجة تُسَري عنه بقولها: كلا.. والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتُكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق..) ويعقب ابن كثير ذلك بقوله: (فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة..) إلى نهاية الخبر.

فأنت ترى خلو رواية ابن كثير من هذا القول المنسوب في السيرة الى خديجة (.. إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة) وتؤكد ذلك رواية البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي.[15]

ورب متسائل يقول: ومن أين جاء خبر تظليل الملائكة والغمام وسجود الحجر والشجر لمحمد ﷺ وانهصارها عليه؟!.. فأقرب جواب على ذلك أن يكون بعض نساخ السيرة، وربما كان من مسلمة أهل الكتاب، قد آسفه أن يقرأ في أسفارهم مثل تلك العجائب تواكب بعثة بعض الأنبياء، ولا يرى مثل ذلك في سيرة محمد ﷺ وهو الذي أكرمه الله بإمامتهم جميعاً، فلم ير بأساً في إضافة مثلها إلى بعض أخباره.. بل لا أستغرب أن يكون من هذه الاضافات ذلك الخبر القائل إن يهودياً أطل من أطمه في يثرب ليصرخ في قوه: (يا معشر يهود.. طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به)[16] وذلك مضاهاة لما تقوله بعض مكتوبات النصارى من أن رجالا من فارس قد عرفوا بميلاد المسيح عليه السلام من نجم معيَّن فجعلوا يتتبعونه حتى انتهوا إلى مقره في بيت لحم.[17]

---

(١٥) (المنتخب من السنة) ص ٧٢-٧٤ ج ١.

(١٦) ابن هشام ج ١/١٥٩ ط الحلبي، وقريب من ذلك رواية الحاكم في المستدرك عن يهودي فعل بعض هذا في مكة ايضا ج٢/٦٠١-٦٠٢.

(١٧) راجع الفصل الثاني من انجيل متى.

وأنا إذ أعرض هذه التصورات لا أنسى أن بعض هذه الأخبار مكتوب في بعض المؤلفات المقدَّرة عند جمهور المسلمين، ولكن علينا أن نتذكر كذلك أن لمؤلفيها رأياً معلوماً في التفريق بين التاريخ والشريعة، فهم إذا رَوَوا عن رسول الله ﷺ تشددوا في التحقيق، وإذا عرضوا للأخبار التاريخية مالوا إلى التساهل. وليتهم لم يفعلوا ذلك لأن التاريخ في ضوء الإسلام معرض العِبر التي يجب على المسلم تطبيقها في حياته، وإنما يصلح التطبيق إذا صحت الوقائع، وكل تحريف في عرضها إنما هو مضيعة أو مفسدة للعبرة نفسها. .

ونعود الآن إلى قصيدة ورقة ذات الصلة بهذا الموضوع، فهي من الناحية الفنية أشبه صياغة بأساليب الشعر المكي أثناء البعثة، الذي قلما يتوافر له الألق الجذاب، الذي نعرفه في أساليب الفحول من نجد ويثرب. . إنه أقرب ما يكون إلى نظم العلماء منه إلى غناء الشعراء. . ولذلك لا يستبعد أن تكون نسبتها الى ورقة الحبر العالم صحيحة لما تحمله من التركيز على الجانب الفكري، الذي يصور تطلعه إلى موعد الجهر بدعوة المصطفى ﷺ ليقف بجانبه يشاطره ما سيتحمله من العناء والبلاء في سبيل الله. . ولا نرى حاجة إلى استعادتها مرة ثانية هنا، ولكن ثمة بعض المؤشرات التي لا مندوحة من التوقف عندها قليلاً.

يقول ورقة (رح):

لججت، وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمٍ طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا

فهو في هذه المقدمة يعبر عن تشوقه لأخبار محمد ﷺ التي حركت سواكن الأشجان في صدره من أوضاع الناس الغارقين في حلكات الظلام. . فهو يتطلع بلهفة إلى الموعد المنتظر. . وهي مقدمة واضحة الدلالة، على الرغم مما فيها من

جفاف العبارة وتكلف الشاعرية. ، . ولكن هذا الانسجام لا يلبث أن يتقلقل عندما نقرأ البيت الرابع:

بما خبرتنا من قول قس من الرهبان أكره أن يعوجا

والمراد بالقس هو ذلك الراهب الذي سبقت إشارته إلى نبوة محمد ﷺ لمجرد جلوسه تحت الشجرة. . وهو بيت غريب عن السياق غرابة خبر الراهب هذا، ويكاد ينطق بأنه مدسوس على القصيدة دساً، سواء من حيث صياغته أو مضمونه أو بعض مفرداته، ففي (يعوجا) محاولة لقسر اللفظ على أن يكون قافية في منظومة لا قرابة بينه وبينها البتة، فضلاً عن ضياع موضع الربط بين (بما) ومتعلقها أهو (الهمّ) أم (النشيج) أم (الانتظار) أم (الخروج)! ولكي تتضح لك غرابة هذا البيت أكثر فما عليك إلا أن تحذفه من خيالك ثم تقرأ بدله البيت الخامس مباشرة:

بأن محمداً سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا

فأحق مكان بتعليق المصدر المجرور أول هذا البيت (بأن . . ) هو (وصف) في صدر البيت الثاني.

وهكذا تستكمل الدارة الفكرية تلاقيها، فينسجم مضمون الأبيات في مجرى واحد لا عوج فيه ولا أمت. . فنشعر أن الباعث النفسي لصياغة القصيدة هو ما قصته خديجة على ورقة من أمر الوحي، وما سمعه عقيب ذلك من الرسول نفسه عن ملابساته، وكل ما قيل عن علاقتها بغير هذه المناسبة فهو إدعاء ينقصه الدليل المعقول.

□ ولقد آن لنا بعد هذه الرحلة الطويلة أن نعود إلى منطلق البحث، وهو موقف الأخ الكريم الأستاذ علي الطنطاوي وآخرين مثله من موضوع البشائر عن مبعث رسول الله ﷺ السابقة لظهوره.

فأما جانب الصواب في إنكار هؤلاء الأفاضل فقد أوضحناه مؤيداً بكل ما نملك من الحجج والبينات، وقد بقي أن نقف بعض الكلام على الجانب الآخر، جانب

المبشرات الثابتة بأقوى ما يهتدي به العقل والقلب من وسائل الإثبات.

وقبل التعرض لهذه الوسائل يحسن بنا أن نذكّر القارىء بما لا يحسن أن يغفله من المعلومات الأولية، وهي أن بعثة محمد ﷺ كانت ولا تزال أعظم أحداث التاريخ البشري قاطبة، لأن الإنسانية بها انتقلت من صحراء الضياع، الذي يصوره قول الله تبارك اسمه **﴿ظهر الفساد في البرِ والبحرِ بما كسبت أيدي الناس...﴾** الروم - ٤١. ثم قول رسوله الكريم ﷺ في وصف الوضع البشري أثناء بعثته (.. إن الله اطلع على أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب).[١٨] إلى ساحة النور فاتضحت معالم الطريق، وتحددت المسئوليات، وانكشف للأبصار ما طمسته الجاهلية من حقيقة الإنسان وتبعاته، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة..

وحَدَثٌ له مثل هذا الثقل في موازين الوجود لا يُعقل أن يفاجىء الله به الجنس البشري دون أن يمهد له بما يهيىء لاستقباله الأذهان.. ولذلك لم يبعث الله نبيّاً إلا أخذ عليه العهد بالإبلاغ عن هذا المبعوث الذي يدّخره سبحانه لانقاذ سفينة الحياة من زوابع الضلال..

يقول جل شأنه في سورة آل عمران: **﴿وإذْ أخَذَ الله ميثاقَ النبيينَ لَمَا آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لِما معكم لتؤمُنَنَ به ولَتَنصرُنه. قال أأقررتُم وأخذتُم على ذلكم إصري؟. قالوا أقررنا. قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾**.

وفي تفسير هذا الميثاق ينقل ابن كثير عن علي وابن عباس أن الله لم يبعث نبيّاً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بَعَث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنّه، وأن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعِث محمدٌ وهم أحياء ليؤمُنن به ولينصرنّه..

ويقول سبحانه في التعقيب على استغفار نبيه موسى عليه السلام **﴿... ورحمتي وسعت كلَّ شيء فسأكتبها للذين يتقون ويُؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا**

---

(١٨) من حديث طويل أخرجه مسلم.

**يؤمنـون. الـذين يتَّبعـون النبي الأميَّ الـذي يجـدونه مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيل يأمرهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكرِ ويُحِلُّ لهم الطيباتِ ويُحرمُ عليهم الخبائثَ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزّروه واتبعوا النورَ الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ الأعراف ـ ١٥٦ ـ ١٥٧.**

وفي هاتين الآيتين يقول ابن كثير أيضاً: وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشـروا أممهم ببعثـه وأمـروهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم..).

ولقد والله رأينا صفاته في التوراة لا تزال قائمة على الرغم من كل التحريفات التي لحقت بها، ورأيناها في إنجيل يوحنا منقولة عن لسان عيسى عليه السلام يبشر فيها بمبعث محمد ﷺ ويحدد صفته بالاسم، على الرغم من تلاعبهم بتغييره في التـرجمـة العـربية، إذ جعلوه (المعـزّي) بدل (أحمـد) ويأبى الله إلا أن يفضح المزورين فيكشف الحقيقة بلسان المستشرق الايطالي الدكتور «نلينو» الذي صرح للشيخ عبـدالوهاب النجار بأن اسم المبشَّر به باليونانية وهو (الفارقليطس) يعنى بالعربية الكثير الحمد.. بل لقد كشفوا هم أنفسهم عن تزويرهم هذا بما كتبوه في ذيل الصحف التي حملت البشارة من إنجيل يوحنا المطبوع بالعربية، حيث يقولون بالحـرف الـواحد تعقيباً على كلمة المعزي (أن لفظ المعزي ليس له في المتن الأصْلي شيء من معنى الحمد. ومن فسره بالمعزي فإنما تحرف عليه لفظ المعزي الـذي في الترجمات العربية..) ومجرد ذكرهم هنا لفظ الحمد دليل قاطع على اختلافهم حول ترجمة اللفظ اليوناني الأصلي، وعلى أن بينهم من ذهب إلى ربطه بمعنى (الحمد) الذي يراد استبعاده بهذه الحاشية، فكان ذلك شهادة منهم على أنفسهم بالتزوير والتحريف.. وملاحظة أخرى وهي أن في الفقرة الأخيرة إشارة صريحة إلى وجود ترجمات سابقة بالعربية أثبت فيها اللفظ المشتق من الحمد بدل (المعزي)(١٩).. ولو أنهم أنصفوا عقولهم وآثروا الحق لتركوا لبشارة المسيح أن

---

(١٩) انظر الفصل ١٦ من انجيل يوحنا وحاشيته في الطبعة اليسوعية. ويلاحظ في الفقرة الاخيرة من الحاشية أن ثمة زلقة قلم وضعت كلمة (المعزي) مكان (الحمد) يقول المحشي (ومن فسره بالمعزي) يريد (ومن فسره بالحمد) حسب مفهوم السياق.

تصل إلى آذان الناس وقلوبهم، لأنها إذ ذاك لن تكون إلا إعلاناً للحقيقة التي بلّغها المسيح عليه السلام من قبل في قوله لبني إسرائيل **﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾** الصف ٦.

ولقد بلغتْ تلك البشريات في التوراة والإنجيل بمبعث خاتم الرسل ﷺ حدّاً لم يبق معه مجال للتجاهل، حتى أصبح أولو العلم من أهل الكتاب **﴿يعرفونه كما يعـرفون أبناءهم﴾** البقرة ١٤٦. ولم يقف أمر هذه البشائر على ذوي العلم من خاصة أهل الكتاب وحدهم، بل لقد انتشرت أنباؤها في سوادهم، حتى لقد كان يهود يثرب يوعدون وثنييها من العرب بأن نبيّاً أظل زمانه سيتبعونه ويقاتلونهم معه فيقتلونهم قتـل عاد وإرم **﴿وكـانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا. . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. . فلعنةُ الله على الكافرين﴾** البقرة ٨٩.

وحسبنا بهذه الشهادات الدامغة أدلةً مقنعة بما أسلفناه من أن ذكر محمد ﷺ كان محفوظاً في الكتب المقدسة، وعلى ألسنة أهل العلم، الذين كانوا ولا يبرحون يتوارثونه جيلاً عن جيل منذ بعث الله أول نبي وحتى تقوم الساعة.

وليست قصة سلمان رضى الله عنه وضربه في الأرض بحثاً عن الحق وتلقيه خبر محمد ﷺ وعلاماته من أسقف عمورية، إلا واحداً من نقول الثقات بعضهم عن بعض لهذه المبشرات.

وحتى موروثـات الهنـود والفرس القديمة من علوم أسلافهم لم تخل من هذه المبشـرات، وقـد عُنِي بالحديث عنها كثيرون من مؤرخي المسلمين كابن حزم والشهرستاني وابن تيمية ورحمة الله الدهلوي، وفي كتاب (مطالع الأنوار) لعباس محمود العقاد نماذج وفيرة لمن شاء المزيد من أخبارها. ويقول الأخ الدكتور ضياء الرحمن الأعظمى ـ الهندي ـ أنه معْنِيٌّ بتأليف كتاب يحمل الكثير من بشائر الكتب الهندوسية بمحمد ﷺ.[20]

وسأختم هذا العرض بواحدة من هذه البشائر التي لا مجال للمِراء في مدلولها، وقد اخترتها من الكتاب المنسوب إلى أشعياء في مجموعة العهد القديم.

---

(٢٠) الدكتور ضياء الرحمن من خريجى الجامعة الاسلامية وهو اليوم من مدرسيها، وقد كان هندوسيا فهداه الله الى الاسلام.

في الاصحاح ٣٥ من رؤى أشعياء يعرض هذا النبي صورة رائعة الوضوح والجلال للحدث العظيم الذي أطل علي الدنيا ببعث محمد ﷺ فيرينا معالم الخير الذي غمر الجزيرة العربية، والحضارة المثلى التي نشرها الإسلام، لا في الإنسان وحده بل في كل شيء.

فلنستمع إليه يفصل مرئياته من وراء أكثر من ألف سنة قبل بعثة ذلك المنقذ العالمي الذي اصطفاه الله رحمة للعالمين:

يقول أشعياء: تفرح البرية والأرض اليابسة، ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس، يزهر إزهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنم.

يُدفع إليه مجدُ لبنان بهاء كرمل وشارون، هم يرون مجد الرب بهاء إلَهنا.

شدّدوا الأيادي المسترخية والركب المرتشعة ثبتوها. قولوا لخائفي القلوب تشددوا لا تخافوا هو ذا إلهكم. الانتقام يأتي جزاءُ الله هو يأتي ويخلصكم.

حينئذٍ تتفتح عيون العمي، وآذان الصم تتفتح، حينئذٍ يقفز الأعرج كالأيل، ويترنم لسان الأخرس، لأنه قد انفجرت في البرية مياه وأنهار في القفر ويصير السراب أجماً، والمعطشة ينابيع ماء.

في مسكن الذئاب، في مربضها دار للقصب والبُرْدِيّ.

وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدَّسة، لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم. من سلك في الطريق حتى الجهال لا يضل.

لا يكون هناك أسد، وحش مفترس لايصعد إليها، بل يسلك المفدِيُّون فيها، ومَفْدِيو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح، فرح أبدي على رؤوسهم.. ابتهاج وفرح يدر كانهم، ويهرب الحزن والتنهد.[21]

إن أشعياء يصوغ مرئياته السعيدة هذه في أسلوب شعري يترقرق بالفرح والبهجة، فلا يتمالك أن يسكب من مشاعره على الأرض اليابسة فإذا هي تموج بمثل فرحه وبهجته.. حتى لَيرى كل شيء فيها يضحك ويزهر ويغني..

ولم كل ذلك؟...

---

(٢١) أنظر أشعياء صفحة ٣٥.

لأن انقلاباً خارقاً قد غيّر مسيرة الحياة فاستبدلت بكآبة الشقاء والضياع هدايةَ السماء التي ملأت الأرض بنور الله . .

ولذلك يهيب بالمظلومين : أن افتحوا قلوبكم للأمل فقد جاءكم الخلاص على قدر، فلا عدوان بعد اليوم ولا بغي ولا طغيان . .

إنـه انقـلابٌ شامل يطلق المواهب كلها في جزيرة العرب، فتنشط العقول، وتتفجر منابع الحكمة على كل لسان . . وتستحيل الأرض، التي كانت حتى الأمس مرتعاً للموت، جناتٍ ترف بالأمن الذي ينعم به كل شيء من إنسان وحيوان .

يا لها معجزةً أحالت مرابض الذئاب دوراً للعلم فلا يكاد يرى فيها إلا القارئون والكاتبون والمعلمون . . !

ثم مـاذا؟ . .

ثم الحـرم المقدس الذي طهره الله من نجس الكفر، فلا يرتاده إلا القائمون والعاكفون والركع السـجود . .

إليه يزحف الملبّون لنداء السماء من كل حدب وصوب، ومن جوار المسجد الأقصى يَفِـدون لتمجيد الله، الـذي وهب لهم كل هذه النعم، حتى إذا قضـوا حجهم، وأدَّوا منـاسكهم، عادوا إلى ربوعهم فرحين بما نالوا من تجلي مولاهم الحق، وقد غمرتهم السعادة بما استشعروه من مغفرته ورضوانه . .

لقد قربوا الذبائح في طاعته، وأكثروا من صدقات الفِداء عن كل مساءة يتوهمون أنهم أتوها، ومن أجل ذلك استحقوا أن يسميهم أشعياء (مَفدِيّي الرب) . .

ويالها بشارة من حقها أن تُذكِّر أهل الكتاب بالعهد الذي أخذه الله عليهم أن يكونوا أول المؤمنين بالصادق الأمين، إمام النبيين، وسيد الأولين والآخرين . . . عليه صلوات الله وسلامه إلى يوم الدين . .

# تـذيـــل

بعد الفراغ من كتابة هذا البحث شاء الله أن أقع على خبر بحيرا في (فقه السيرة) للأستاذ محمد الغزالي وأن أقف هناك على مناقشة المحدث الفاضل الشيخ ناصر الدين الالباني لقول المؤلف (سواء صحت قصة بحيرا أو بطلت) ثم لقوله الآخر في شأنها (والمحققون على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لمزاعم الانجيليين في شأن المسيح) حيث يقفي الشيخ ناصـــر على الفقــرة الأولى بقـــولـه (بـل هي صحيحـة. .) ويحتـج لرأيه بأن التـرمـذي قد أخرج الخبر من طريق أبي موسى الأشعري وعرَّفه بأنه (حديث حسن) ثم نقل قول الجزري بأن (ذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ) وأردف ذلك برواية البزار عن هذه الفقرة أن الذي عاد بمحمد ﷺ إلى مكة رجل آخر أرسله معه عمه. ومن ثم عمد إلى نفي الوضع عن الخبر في الفقرة الثانية محتجاً لصحته بما أورده الانجيليون من أخبار عن موسى عليه السلام مطابقة لمضمون القرآن. .

وقد دافع الأستاذ الغزالي عن وجهته في الصفحة نفسها محتجاً بتقرير أيمة من أهل الحديث، كالذهبي الذي يقول ـ في ميزان الاعتدال ـ «مما يدل على بطلان هذا الحديث قوله (وبعث معه أبوبكر بلالاً) وكالحافظ بن حجر الذي ينقل قوله في (المواهب اللدنية) أن رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه النقطة، فيحتمل أن تكون مدرجة فيه، منقطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته. . وأخيراً يورد قول ابن كثير إن من غرائب هذا الحـديث كونـه من مرسـلات الصحابة، فهو على كل تقدير مرسل). [٢٢]

---

(٢٢) (فقه السيرة) طبع دار الكتب الحديثة ٦٨-٦٩/١٩٧٦.

وقد رأيت أن ألفت نظر القارىء إلى بعض الملاحظات حول هذا الحوار.

أ ـ أن عمدة القائلين بصحة هذا الخبر هي ثقتهم بسنده فهو عند صيارفة الحديث من الضرب الموثوق دون ريب. ولا غبار على متنه لأنه داخل في الممكنات التي تتعلق بتكرمة الله عبده المختار ﷺ.

ب ـ لذلك وقف نقدهم عند فقرته الأخيرة من ذكر أبي بكر وبلال رضي الله عنهما فأوردوا عليها بعض الاحتمالات، ومن ذلك رواية البزار بإرسال رجل آخر مكان بلال لم يذكر اسمه، ونضيف إلى ذلك الرواية الثالثة القائلة بأن الذي عاد به الى مكة هو عمه أبوطالب. (٢٣)

ولننظر الآن في كل من الملاحظتين على حدة:

أ ـ لا خلاف على صحة السند بشهادة أولي العلم، ولعل الخلاف أن يكون مقصورا على تعيين نوع الحديث أمن المراسيل هو أم من المرفوعات؟ب ـ والذي يطمئن إليه العقل والقلب هو ما ذهب إليه ابن كثير من القطع بإرساله، وفي هذه الحال لا يعدو كونه نوعاً من الأخبار التي سمع أبوموسى رضى الله عنه بعض الناس يتناقلونها فحملها عنهم. . ويؤيد ذلك وقف الخبر على رواية الأخير الذي يقول فيه أحد عارفيه ـ كما أسلفنا ـ (ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد). (٢٤)

جـ ـ أن تسليم نَقَلَةِ الخبر باحتمال الوهم أو الإدراج في آخره يفتح المجال للتساؤل عما إذا كان مثل ذلك قد حدث أيضاً في بعض أجزائه الأخرى، ونخص بالذكر منها سجود الحجارة، وكيف كان وعلى أي صورة؟ . . وليس تصور هذا بأقل غرابة من مشاهدة ميسرة للملائكة في الخبر الآخر. .

د ـ إعلان بحيرا نبوة محمد ﷺ كان على مسمع منه ﷺ وبمسمع من أشياخ الركب، فلم طُمِس على هذا الجانب نهائياً فيما بعد، فلم يُذكر على لسان رسول الله ﷺ قط، ولم يُرو عن أحد من هؤلاء الأشياخ، بل الذي حدث أن مكة كلها فوجئت بالنبأ العظيم عقيب يوم حراء العظيم؟! . .

---

(٢٣) ابن هشام طبع الحلبي ج ١/١٨٣.

(٢٤) ابن كثير جـ ٢/٢٧٥.

هـ ـ لقد حدَّث رسول الله ﷺ بالكثير من إرهاصات نبوته، وجاء بعض أحاديثه في هذا الصدد أجوبة على أسئلة صحابته وفيها ما يفوق بشرى بحيرا، كشق صدره وتسليم الحجر والشجر عليه، وبعد البعثة شهد الجم الغفير من أصحابه خوارق المعجزات التي حققها الله على يديه، وقد أودع ذلك كله بطون المراجع التي بلغت أعلى درجات الصحة، فكيف أمسك ﷺ عن ذكر خبر بحيرا فلم ينقل عنه، ولم سكت صحابته الأدنون فلم يسألوه عنه، مع أنه جدير باستفساراتهم؟!!.. أليس في ذلك دليل على أن ذلك الخبر لم يكن معروفًا أيامه ﷺ وإنما تأخر ظهوره المحدود إلى ما بعد وفاته؟!

و ـ وأخيراً ليسمح لنا فضيلة الشيخ ناصر ـ نفع الله بعلمه ـ أن نذكره بأن مَثَلَه عن موافقة بعض الانجيليين لبعض أنباء القرآن بشأن موسى عليه السلام غير كافٍ لتسويغ ذلك التشابه الغريب بين ما زعموه من البشريات بظهور المسيح عليه السلام وما ذكره كتاب السيرة من بشائر البعثة النبوية التي نحن بصددها، فالمسلم لم يصدق أخبار أهل الكتاب عن موسى عليه السلام لو لم يقرأها في الذكر المحفوظ، وإلا فكم من خبر لديهم لا يساوى المداد الذي كُتب به.. وإذن فلا وجه للمقارنة بين كتبهم التي لا يُعرف أصلها ومصادرنا التي أقامت للفكر البشري معالم التحقيق الفاصل بين الحق والباطل.. هذا إلى أن الخبر الذي نسبه الشيخ ناصر إلى الانجيليين إنما هو من أسفار اليهود فلا مكان له في صحف هؤلاء ولا مناسبة ـ فيما أذكر ـ.

ولعل من الخير أن نختم هذه الملاحظات بتلك الكلمة الحكيمة التي عقّب بها العلامة المرحوم الشيخ محمد أبوزهرة ـ غفر الله له ـ على ما عرضه من أشباه تلك المرويات التي ناقشنا بعضها حيث يقول: «إننا لا يجب علينا ديناً وإيماناً أن نُذعن لهذه الأخبار وإن كانت من حيث السند، صادقة[٢٥].. لأن هذه الأمور ليست جزءاً مما دعا النبي ﷺ إلى الإيمان به[٢٦].

---

(٢٥ و ٢٦) انظر صفحة ١٤٧ جـ ١ من كتابه (خاتم النبيين).

ونحن في مناقشتنا لهذه الأخبار إنما نفعل ذلك حفاظاً على منهج السلف في تصفية التاريخ الإسلامي من كل خبر لا يحمل طابع الصحة الحاسمة. . وانطلاقاً من هذا الاتجاه نرفع إلى أستاذنا العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وإلى معالي أخيه الشيخ محمد على الحركان وصاحبي الفضيلة الدكتور عبدالله الزائد، رئيس الجامعة الاسلامية، والدكتور عبدالله التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حفظهم الله وبارك جهودهم، اقتراحاً نرجو أن ينال قبولهم، وهو أن يؤلفوا مجْمعاً خاصا باسم (المجلس الأعلى لتصفية السيرة المطهرة) تكون مهمته أن يقدم للعالم الإسلامي كتاباً في السيرة النبوية يقتصر على أصح الأخبار من تاريخ أكرم مختار، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الأخيار. وليس ذلك على هممهم العالية واخلاصهم الكبير بعزيز إن شاء الله. .

ولـلأخ الفاضل الأستاذ على الطنطاوى أخيراً صادق الدعاء على ما أثاره من البواعث على إخراج هذا البحث، الذي نرجو أن يكون مقبولاً عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. .

ولله الحمد من قبل ومن بعد. . .

# ملامح باهرة
# من عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول الفيلسوف الانجليزي (برناردشو): (لو أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجه مشكلات هذا العصر لأمكنه أن يضع لها أصلح الحلول بأقصر الأوقات).

ومثل هذا القول يصدر عن ذلك الفيلسوف إنما مرده إلى ما يعلمه عن طريقة رسول الله في علاج النفس البشرية، تلك الطريقة التي سجلت أعظم النجاح في الجيل الإسلامي الأول، إذ أخرجته من ظلمات الجاهلية الى نور الإسلام، فكوَّنت من تلك النفوس الضائعة خير أمة أخرجت للناس، فكان عمله صلى الله عليه وسلم فيها كعمل الخبير بعناصر المادة المنثورة في طبقات الأرض، فلا يزال بها يُخرج منها عجائب المصنوعات الباهرة للعقول.. وطبيعي أن نجاحه صلى الله عليه وسلم في تصحيح تلك النفوس الجاهلية برهان قاطع على أن في شريعته الإلٓهية العلاج الحاسم لكل أدواء البشرية المعاصرة.. وهذا ما يرمي إليه برناردشو في كلمته الحكيمة.

ولا عجب فمحمد رسول الله، قد اصطفاه لحمل رسالته الخاتمة إلى العالمين، فأدبه وأحسن تأديبه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وزوده بكل المواهب التي تؤهله لانقاذ الإنسان، وليكون بأخلاقه وبدعوته وقيادته الأسوة المثلى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

والحديث عن إمام المرسلين المبعوث رحمة للعالمين واسع تضيق عنه المجلدات فكيف بالصفحات، لذلك لا نجد مندوحة عن الاكتفاء بالإيجاز عن التفصيل، وسنقف في هذا الموجز على جوانب ثلاثة من حياته الكريمة صلوات الله وسلامه عليه.

الـدعـوة إلى الله مهمـة الأنبياء الذين اصطفاهم الله لقيادة الانسانية في هذه الحياة، ثم هي مهمة الصفوة المختارة من أنصارهم الذين لا ينفكون ينيرون دروب الناس بهداية الله على مر العصور. . وهي أصعب المهام وأثقلها لأن غايتها ضبط مسيرة الإنسان في الطريق الذي يحبه الله، كما أوضح ذلك في كتابه الحكيم حيث يقـول: **﴿أدع إلى سبيـل ربـك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** النحل ـ ١٢٥.

ولقـد حَقَّق صلى الله عليه وسلم أمـر ربِّه على أفضل الوجوه، فكان الداعية الأعظم، الذي يكون سلوكه في الدعوة صورة كاملة للحكمة والموعظة الحسنة، والقدرة البالغة على مخاطبة الفطرة بأكمل وألطف وسائل الاقناع.

ومن البـديهيات أن أول شروط الداعية إلى سبيل الله إيمانه بالموضوع الذي ينهض بالدعوة إليه، إيماناً يستحوذ على كل تصرفاته، فيهوِّن عليه مواجهة العقبات التي تعترضه، إذ يقابلها بصبر أكبر منها، ولا تزيده العقبات إلا تصميماً على الدعوة وتجلية لحقائقها، حتى لا يدع لمعاند حجة في إعراضه عنها.

وقد عرفته مكة منذ نعومة أظفاره صلى الله عليه وسلم بأكرم الخصال المساعدة على اجتذاب القلوب والعقول، حتى كانت تلقبه بالصادق الأمين، والصدق من أعظم العوامل في نجاح الداعي لأنه يثبت له الثقة في صدور الناس، فلا يرفض حديثه منهم إلا الكارهون للحق المؤثرون لمنافعهم العابرة. [1]

ومن الأمثلة الباهرة على إقرار الجميع بصدقه صلى الله عليه وسلم شهادتهم له يوم كلفه ربه الجهر بالدعوة فوقف على الصفا ودعا بالناس، فأقبلوا عليه وبدأهم بهـذا السؤال: أرأيتم لو أخبـرتكم أن خيلاً بالـوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ فأجابوه دون تردد: نعم ما جربنا عليك كذباً. [1]

---

(١) انظر (خاتم النبيين) للشيخ محمد أبي زهرة ج١/٤٠٦.

ومع ذلك فقد وجد بينهم من يرفض دعوته، لا تكذيباً له ولكن تعصباً لما ألفوه من الضلالات، ولهذا يقول له ربه تطيباً لقلبه: **﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾** الانعام ٣٣.

وكذلك الشأن في تلقيبه بالأمين فهو اعتراف منهم بأنه فوق التُّهم في كل ما يأتي وما يذر. وقد بلغ من ثقتهم بأمانته أنهم كانوا يأتمنونه على أنفسِ ما لديهم، حتى أنه أخَّر علياً رضي الله عنه يوم هجرته ليرد ما لديه من الأمانات إلى أهلها. وقد أرشده ربه إلى الطريقة الفضلى في معاملة المؤمنين فقال: **﴿واخفض جناحك لمن اتَّبعك من المؤمنين﴾** فكان أرحم بالمؤمنين من أمهاتهم، وبذلك كان أحب إليهم من أنفسهم.

وبهذه الحكمة البالغة كان يلقى الغريب والقريب ليبلغهم رسالة ربه فيَمَسُّ أسماعهم ومشاعرهم بالكلمة الطيبة التي تفتح له مغاليق القلوب.

لقي ذات يوم أحد اليثربيين الوافدين إلى مكة فأخبره بأسلوبه المبين أنه مرسل من قِبَلِ رب العالمين، وأن الله قد أنزل عليه وحياً ليبلغه إليه وإلى سائر عباده، فقال سُوَيْدٌ هذا: لعلَّ الذي معك مثل الذي معي؟ فسأله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟. فقال سُويد: معي مجلةُ ـ حكمة ـ لقمان، فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها عليَّ فجعل يقرأ منها، ولما فرغ قال له صلى الله عليه وسلم: إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا. وتلا عليه بعض آيات ربه ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه.(٢)

في هذا الحوار القصير صورة واضحة لحكمة رسول الله ﷺ في عرض دينه على الناس، فهو لم يرفض سماع ما عند الرجل بل أبدى استحسانه له، وبذلك فتح قلبه لاستماع كلام الله.

ولقد كان لهذا الأسلوب الحكيم رد فعل كبير لدى أعداء الدعوة من مشركي قريش، جعلهم يبذلون جهدهم للحيلولة بين رسول الله ﷺ وبين لقائه الغرباء القادمين إلى مكة، فيرصدون لهم الطرق ليخوفوهم منه ويحذروهم من الاجتماع

---

(٢) سيرة ابن هشام ج١ /٤٢٧ الحلبي ١٣٧٥

به، زاعمين أن له سحراً يفرق به بين المرء وأقرب الناس إليه.

ويوم عقد هؤلاء الطغاة مؤتمرهم في دار الندوة، لتدبير القضاء على رسول الله وعلى دعوته، كان من الأفكار التي طرحوها هناك قول أحدهم: نُخرجه من بين أظهرنا ما نبالي أين يذهب، وكان هناك شيخ نجدي دخل معهم ليمدهم بخبرته فقال: ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به.(٣)

وإنما يشير هذا الشيطان إلى ذلك الأسلوب النبوي الذي أودعه الله مفاتيح الفطرة البشرية، فما إن يتصل بها حتى يوقظ في أعماقها روح الإيمان.

وهكذا تتجلى لنا من خلال هذه المشاهد الرائعة شخصية الداعي العظيم الذي لا نجاح لداعية إلا بالتزام سبيله القويم.

**الرئيس الأعظم :**

كان عملُ رسول الله ﷺ على مدى الثلاث عشرة سنة من العهد المكي مقصوراً على دعوة الناس إلى الإسلام سراً وجهراً. وعلى تربية المؤمنين الذين استجابوا لله ورسوله، يبث في أرواحهم معاني الإسلام، ويروضهم على أخلاقه، ويدربهم على الصبر في مواجهة المحن، التي يتعرضون لها على أيدي البغاة من طواغيت المشركين، وعلى الرغم من البلاء الكبير الذي يعانيه منهم لم ينقطع قط عن مواصلة الدعوة إلى الله، والاتصال بكل وافد على البلد الحرام يقرع قلبه بكلمات الله، حتى شاء الله أن يبدأ الإسلام مرحلته الجديدة، مرحلة الانتشار خارج مكة، فكانت الهجرتان الأولى والثانية الى الحبشة. ثم جاءت الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة، إذ هدى الله بعض حجاجها إلى الإسلام على يد رسوله، فرجعوا به إلى بلدهم ينشرونه بين قومهم، ثم جاء الموسم التالى بآخرين أعطوا رسول الله البيعة الأولى، وفي العام التالي وفد العشرات منهم ليقدموا البيعة الثانية، ومن ثم جعل الإسلام يضرب بجرانه في المدينة حتى لم يبق بيت فيها من منازل الأوس والخزرج

---

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٢.

إلا دخله الإسلام، وتتابع أصحاب النبي مهاجرين من مكة إلى جوار إخوانهم الأنصار في المدينة، حتى أتم الله نعمته على الجميع بهجرة رسوله الأمين ومن بقي في مكة من المؤمنين، إلا من منعه الحبس أو الفتنة . .

وكان المجتمع اليثربي قبل الهجرة مؤلفاً من الأوس والخزرج، وهما فرعان لقبيلة واحدة، من أصل يماني يعملون في الزراعة، وقد تسربت إليهم سموم العداوة والبغضاء فولدت حروباً بينهم لا تكاد تنقطع، كلما انتهوا من وقعة هائلة مضوا يستعدون لأهول منها.

وإلى جانب هؤلاء العرب المتقاتلين قبائل ثلاثة من اليهود هم قريظة والنضير وقينقاع، وعلى دأب اليهود في كل مكان كان كل نشاطهم موجهاً لاثارة الفتن بين الأوس والخزرج ليتمكنوا من استغلالها لمصلحتهم المادية، عن طريق القروض التي يُموِّلون بها عملياتهم القتالية، فيستردونها من محصولاتهم الزراعية مضافاً إليها الربا المضاعف.

وما إن أطل فجر الإسلام على المدينة حتى جعلت ظلمات الفتن تتقلص عن القبيلتين، وبدأ المسلمون من الأنصار يشعرون بالتقارب فيما بينهم، ولأول مرة منذ عشرات السنين يستمتعون بروح الأمن الذي يصفه الله بقوله سبحانه في سورة آل عمران ١٠٣ : **﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شَفا حفرةٍ من النارِ فأنقذكم منها﴾**.

ولم يتخلف عن هذا الخير سوى نفر قليل من عرب المدينة، لبث قسم منهم على شركه ريثما تتجلى له الحقيقة، ونقم قسم آخر من ذلك التطور، وفي مقدمته رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، الذي كان مرشحاً للتتويج على المدينة فحال الإسلام دون تحقيق بغيته.

وهكذا بات المجتمع المدني بعد الهجرة مؤلفاً من الأنصار والمهاجرين الذين أصبحوا يؤلفون الكثرة من السكان وينضم إليهم في الظاهر المنافقون، الذين يبلغون بضع مئات، ثم بقية المشركين من عرب المدينة، الذين استسلموا للواقع مع بقائهم المؤقت على عبادة الأصنام.

يقابلهم من الجانب الآخر أولئك اليهود الذين لم يجدوا من مصلحتهم انتشار الإسـلام في بلد كان لهم حتى الأمس منـطقـة استغلال، فأبطنوا له العداوة مع تظاهرهم بالمودة.

في هذا الجو الجديد ولدت الدولة الإسلامية الأولى، التي شاء الله أن تكون الانموذج الأمثل للحكم الصالح، الذي تتطلع إليه الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، والذي يوفر العدالة والأمن والعيش الكريم للإنسان، الذي سُلِبَ حق الحياة في ظلال طواغيت الحكام، فليس له من رأي ولا حرية ولا كرامة، إلا بمقدار ما يتفق ذلك مع أهوائهم ومصالحهم.

وقد نشأت هذه الدولة المثالية على غير مثال سابق من أنظمة الحكم في العالم كله، ولا غرابـة فهي دولة نبوية يقوم على رأسها رسول من الله يعمل بتوجيه من الوحي الأعلى لإقامة المجتمع الأفضل.

### المسـجـد والشـورى :

أول عمل بدأه رسول الله عقب وصوله قباء تخطيطه لمسجدها، الذي أخبر ﷺ أن الصلاة فيه تُعدِل عمرةً، ولما انتقل من قباء إلى قلب المدينة بدأ كذلك أول أعماله بانشاء مسجده المبارك، الذي أخبر أن صلاة فيه تعدِل ألف صلاة، وكان في إنشائه هذين المسجدين قبل إقامة أي سكن له وللمهاجرين، إشارةٌ هامة إلى نوعية هذا المجتمع الجديد، الذي سيكون منطلقه وغايته عبادة الله ورد القطعان البشرية الضالة إلى ربها.

ثم تلا ذلـك تثبيتـه للروابط الروحية بين المسلمين، فآخى بين كل فرد وآخر منهم، حتى كانوا بهذه الاخوة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

ومن ثَم التفت صلى الله عليه وسلم إلى تنظيم المجتمع كله، فوضع أول وثيقة دستـورية عرفها العالم، حدد بها العلائق بين كل فريق وآخر من سكان المدينة عربهم ويهودهم، فأقرَّ لكلٍّ منهم حقه في الأمن والعدالة والكرامة، وأقام كلاً منهم

أمام واجبه نحو الجميع ، في مساواة تامة في الحقوق والواجبات والتناصر، مع إقرار الفرقاء جميعاً برئاسته ﷺ، لتلك الدولة الفتية ، وأنه هو المرجع الذي يخضع الكل لحكمه عند أي خلاف .

ومع أنه رسول الله المؤيد بوحيه، والذي لا سبيل الى مرضاة الله إلا بطاعته، أمره ربه بالتعاون مع أولي الألباب من المؤمنين على تدبير أمور الدولة ، على أساس من الشورى التى يُقرِّرها حكم الله القائل لرسوله : ﴿ . . **فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاروهم في الأمر**﴾ آل عمران ١٥٩ . والمحدد لنظام الحكم في دولة الإسلام بقوله الخالد: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ الشورى ٣٨. وذلك لتدريب المسلمين على ممـارسة الحكم الأفضل الذي من شأنه أن يُشعر كلَّ فرد من الأمة بكرامته وبحقه الواجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . ويتجلى ذلك قوياً بقول رسول الله ﷺ في وصف الحاكم الصالح : (خِيارُ أئمتِكم الذين تُحبونهم ويُحبونكم وتصلّون عليهم ويُصلّون عليكم . . )[٤].

وفي وصف الـظُّلمَـةِ المتسلطين يقـول: (وشـرارُ أئمتِكم الـذين تُبغضـونهم ويُبغضونكم وتلعنونهم ويلعنوكم . . )[٤]

وإنما يُميِّز الخيار من الأشرار مدى التزامهم لشريعة الله في خدمة رعاياهم، أو انتهاكهم حرماتها بالعدوان على حقوقهم وكرامتهم .

وهكذا كان ﷺ المثل الأعلى لرجل الدولة ، الذي يستشعر المسئولية نحو كل فرد من رعيته، حتى لَيكون لهم بمثابة الوالد والمرشد، يعلمهم ويساعدهم ويقيم بينهم العدل الذي تطمئن له قلوبهم جميعاً . . ويختار لهم الولاة الذين يقيمون فيهم شريعـةَ الله بالقسـطاس المستقيم، فلا يزيغـون عن الحق قِيد شعرة، ولا يحـابون أحداً أو غرضاً إلا مرضاةَ ربهم، لأنهم فقهوا قول نبيهم العظيم : (أيُّما رجلٍ استعمَلَ رجلًا من العشرة أنفسٍ علم أن في العشرةِ أفضلَ ممن استعملَ فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين) . [٥]

(٤) من حديث شريف أخرجه مسلم .

(٥) ابويعلى عن حذيفة بن اليمان .

ولقد بلغ من عدالته في المسلمين أن يسلم نفسه لقصاص من يظن أنه آذاه، كما فعل يوم بدر، إذْ كان يسوى الصفَّ فأصاب أحد أصحابه بقدحٍ - سهم - في يده فآلمه، فما كان منه إلا أن كشف له عن بطنه الشريف ليأخذ بحقه منه . .[٦]

**الحكـم الصـالح :**

هذه بعض الأمثلة من سياسة رسول الله ﷺ في داخل دولته، فلننظر إلى بعض صورها في تعامله مع المجاورين لدولته من الخارج.

وأول ما نلاحظه من ذلك مراقبته الدقيقة لأعدائه سواء من مشركي العرب أو من الدول المحيطة بالجزيرة . . فلم يكن ليفوته أي تحرك يهدد دولته هنا أو هناك، فمنذ أن استقر وضع المدينة بعد ذلك التنظيم العظيم شرع في توجيه السرايا نحو خطوط قريش وحلفائها، لإشعارهم باستعداده للقائهم، فلا يطمعوا بضرب المدينة، وفي كل زحف قام به هؤلاء لقتاله، في بدر وأُحد والخندق، لم يستطيعوا أن يفاجئوه على غرة بل كانوا يجدونه على أتم الأهبة لهم في كل مرة، ولما كشف اليهود عن نواياهم الخبيثة بنكث العهد، وتآمروا مع أعدائه لضرب الدولة الإسلامية من الخلف أثناء غزوة الأحـزاب، انبـرى لهم فأجلى بعضهم عن المـدينـة، وعاقب بعضهم بما استحقوه على جرائمهم، وبذلك طهرت المدينة من كيدهم وحلفائهم المنافقين، ثم أتم الله نعمته على رسوله بفتح مكة فانفسح له الطريق الى تبليغ رسالته للأمراء والدول المحيطة بدولته، فكتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام دين الله الحق لسكان الأرض جميعاً، وحين قام بعضهم بالاعتداء على بعض المسلمين من عرب الشام جرد لهم الكتائب، وقاد بنفسه أكبر جيش عرفته جزيرة العرب حتى نزل تبوك، ولم يعد إلى المدينة إلا بعد أن قذف الله الرعب في قلوب أعدائه من الروم وحلفائهم من متنصـرة العرب . . . ثم كان آخر كتائبه هى التي أعدها عقيب معركة (مؤتة) بقيادة أسامة بن زيد لتأديب الأعداء المتربصين على الحدود الشمالية، وظل يؤكد على الصحابة وجوب تسييرها وهو في مرض الموت، حتى إذا انتقل إلى جوار ربه

---

(٦) البداية والنهاية ٣/ ٢٧١ طبع المعارف.

نهض خليفته الصِّديق بتنفيذ أمره، فانطلقت تخترق مواطن القبائل حتى أدت مهمتها باخافة المتربصين لايقاد الفتنة، إذ أشعرتهم بقوة المسلمين، وأن الدولة التي أقامها رسول الله باقية على منهجه في حماية الله وتأييده. وهكذا كانت رئاسته لتلك الدولة الناشئة رحمةً غامرةً للمؤمنين، وقوةً رادعة للظالمين، ونموذجاً عمليّاً يلقن الرؤساء والولاة في كل زمان ومكان كيف يكون الحكم الصالح الحازم سبباً في إسعاد الرعية، لأنه قائم على الحنان والحب والخدمة الصالحة لوجه الله..

ومن هنا انبثقت عدالة خلفائه الراشدين، الذين تعلموا من سياسته الحكيمة أساليب السياسية العالمية، التي لا تزال مضرب الأمثال للمفكرين، والصورة الكاملة للحكم الصالح في العالمين..

**القائد العظيم :**

يقول ربنا تبارك اسمه: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعضٍ لهدمت صوامعُ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرَ فيها اسم الله كثيرا، ولَيَنصرنَّ الله من ينصرهُ إن الله لقويٌّ عزيز﴾** سورة الحج ٤٠. فالحياة إذن حلبة صراع بين الحق وأهله والباطل وأشياعه، فكل غفلة من أنصار الحق مدعاة لتفوق المبطلين، وتمكينهم من الاسترسال في بغيهم وفسادهم.

وبما أن دولة الإسلام القائمةُ وحدها بحماية الحق، كان لزاماً عليها أن تكون دائماً على أتم الاستعداد لردع الباطل وردّ عواديه.. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى لنبيه ﷺ: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومنِ رباطِ الخيلِ تُرهبون به عدوَّ الله وعدوكم﴾** الانفال ٦.

ولقد حقق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هذا الركن الهام في دولته على أتم الوجوه فلم يدع وسيلة تؤمِّن أسبابَ القوة المطلوبة إلا عمل على استيفائها.. ولم يبت ليلة قط منذ قيام الحكم الإسلامي إلا وهو على ذكر من أحوال أعدائه.. وكان من هدْيِه ايقادُ شعلة الجهاد في صدور المؤمنين صغاراً وكباراً، يحضهم على إحسان الرمي، ويَروضهم على الأعمال الحربية، ويوجههم إلى كل ما يعوز

المجاهدَ في سبيل الله من عناية بالصحة، وتمرُّسٍ بفنون الرياضات النافعة، وصبرٍ على الأحداث المختلفة. فكان لتربيته المثالية هذه أثرها الفعال في تكوين الطاقات المتفوقة في المسلمين جعل كل فرد منهم جندياً متأهباً لخوض الغمرات عند أول إشارة، وعضواً كامل الانسجام في صفوف الجنود من إخوانه. الذين بلغوا الذروة في الضبط والطاعة..

ويتعذر على الباحث استيفاء صفاته القيادية صلوات الله وسلامه عليه، ذلك لأن كل تحرك قام به في الجانب العسكري جاء غاية في الدقة والتنظيم، مما أدهش خبراء الحروب من كبار القادة العالميين قدماء ومُحدثين.. ولذلك سنقتصر على بعض النماذج من صفاته الخارقة في هذا المجال لتكون دليلاً على ما وراءها مما يصعب حصره أو إحصاؤه.

**شجاعته صلى الله عليه وسلم :**

الشجاعة أحد العناصر الرئيسية في مُقومات القيادة الناجحة، ولو استعرضنا أهم صور الشجاعة في مواقف القادة العالميين لرأيناها متضائلة بازاء ما حفظه لنا القرآن العظيم والسيرة النبوية من هذه الصفة في حياته ﷺ.

لقد جعل الله الجهاد فرض عين على كل قادر من المسلمين، لحماية الدعوة ولدفع العدوان عن دار الإسلام، فكان لزاماً على رسول الله ﷺ أن يكون الأسوة العليا في ذلك لسائر المؤمنين، وفي هذا الصدد يقول له ربه: ﴿**وقاتلْ في سبيلِ الله لا تُكلَّفَ إلا نفسك، وحرِّضِ المؤمنين**﴾ النساء ٨٤. فلو لم يجد أحداً يقاتل معه لأقدم على القتال وحده، تحقيقاً لأمر الله ومن هنا كانت شجاعته وإقدامه في ساحات الرَّوع هي الأسوةَ البالغة التي يقتدى بها الأبطال من أصحابه رضوان الله عليهم.. وهذا علي بن أبي طالب، وهو من هو في البسالة والبطولة، يقول في وصف أثره ﷺ في أصحابه: (إنا كنا إذا حمي الوطيسُ واشتدَّ البأس واحمرَّت الحدَقَ اتّقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه..)(٧)

---

(٧) انظر (حدائق الانوار) لابن الديبع الشيباني ١/١٣٤. و (الشفا) للقاضي عياض ١/٦٦.

ويوم أُحد، وقد سرى الاضطراب في جيش المسلمين بسبب ما أشيع عن مقتله، ثبت في وجه العدو المتكاثر عليه مع قلة يسيرة من صحابته الذين كانوا حوله، وكان ينظر إلى بطولة نُسَيبة بنت كعب المازنية وهي تقاتل بين يديه، وعلى وجهه ابتسامة تنم عن منتهى الاطمئنان، وهو موقف لم يُعرف مثلُه قط في تاريخ الأبطال.

وكذلك موقفه العجيب يوم حنين، وقد أُخِذ المسلمون على غرة فانفضوا من حوله، ولم يبق معه سوى بضعة أفراد، فكان يتقدم في نحر العدو وهو يردد:

أنا النبي لا كذب    أنا ابن عبدالمطلب[٨]

وذات ليلة انطلق النذير في المدينة بأن عدواً دهمها فهرع الناس يتسابقون للدفاع عنها، ولكنهم لم يكادوا يستكملون عدتهم حتى وجدوا رسول الله ﷺ عائداً على فرس عارٍ من خارج المدينة، وهو يطمئنهم بقوله: لم تراعوا.[٩].

**تخطيطه الحربي:**

والشجاعة وحدها لا تفي بمتطلبات القيادة، بل قد تزج بالجنود في هاوية الدمار إذا لم تقترن بها الحكمة وبعد النظر، والارادة القوية والحب المتبادل بين القيادة والجنود. وعلى هذه العناصر تُبنى الخطط الحربية الناجحة بمشيئة الله.

ولقد توافر لرسول الله كل هذه العناصر مجتمعة، ولذلك كانت خططه الحربية موضع الدراسة العميقة من كبار القادة. ولنضرب على ذلك بعض الأمثال:

في أُحدٍ رتب النبي ﷺ أوضاع جيشه على أحكم منوال، فجعل ظهره إلى جبل أحد ليمنع مُقاتِلة العدو من الالتفاف حوله، وأقام على الجبل المقابل خمسين من خيرة الرماة، وأمرهم أن ينضحوا خيل المشركين بسهامهم، وأكد عليهم الوصية بأن لا يغادروا أمكنتهم مهما تطور سير المعركة.. وبذلك ضمن نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة بفضل الله، ثم بتدبيره الحازم، حتى ولَّى هؤلاء الأدبار.. ولولا أن كثرة الرماة خالفت وصاته وغادرت مراكزها طلبا للغنيمة لَكُسِرت شوكة المشركين

(٨) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي (٩) من حديث أخرجه مسلم

نهائياً منذ تلك المعركة . .

وعلى الرغم من الخسارة التي وقعت في صفوف المسلمين، حتى لم يبق أحد منهم خالياً من الجراح، فقد أهاب رسول الله ﷺ بهم في اليوم التالي أن ينهضوا معه لملاحقة العدو المنتصر، إيهاماً له بأنهم على أتم الاستعداد لاستئناف قتاله من جديد . . وبذلك أمن عودتهم لاقتحام المدينة . . وهي خطة من الحكمة تبلغ حدود الخوارق.

**سِرِّيَّة العمـل :**

ومن عبقـرية القيادة العـظيمة الحفاظ على أسرار العمل الذي تريد تحقيقه، صيانةً له من جواسيس العدو ومن غفلات الأعوان، الذين يسيئون التصرف عن حسن نية.

وتلك من خصائص حكمته العسكرية ﷺ إذ كان من تصرفاته الحازمة أنه إذا أراد غزو جهة ما أدار حديثه عن جهة أخرى، ليصرف الأذهان عن مراده . . فيحتفظ لنفسه بالقدرة على مباغتة عدوه . . وقد يوجه السريةَ في طريقٍ ما دون أن تعرف وجهتها النهائية، ويدفع لقائدها بخطاب يأمره ألَّا يطلع على مضمونه إلا في مكان معيَّن، فإذا قرأه عرف الاتجاه الذي يجب أن يسلكه.(١٠)

وممـا يدخل في هذا المجال من الابداع تنوع وسائله الحربية، وعدم التزامه الطرائق التقليدية وحدها، كاتخاذه الخندق لمقاومة الآلاف الزاحفة على المدينة في غزوة الأحزاب . . وهو من الوسائل التي لم يعرفها العرب في حروبهم قط . .

وكان صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حريصاً على ترسيخ روح التعاون في جنوده ليكون كل منهم سنداً للآخر، ومن ذلك تدريبه أمته على سَنَن الشورى في كل أمرٍ هام . وعند الإقدام على الأعمال العسكرية يطرح الموضوع الذي يهمه على أهل شُوراه ليستمع إلى آرائهم، ثم يمضي إلى غايته متوكلاً على الله، كما فعل قبيل ملحمة بدر، حيث عرض الأمر على كبار الأنصار والمهاجرين، فأدلى كل منهم

---

(١٠) سيرة ابن هشام ٥١٦/٤ ط الحلبي

بوجهة نظره، حتى استقر الرأي على الاتجاه المفضَّل بتوفيق الله.

وهكذا فعل قُبيل معركةِ أُحد إذ طرح قضية العمل على جمهور المسلمين شيوخاً وشباباً، وأخذ في النهاية برأي الراغبين في الخروج لملاقاة الغزاة خارج المدينة. ولما خرج على الناس في عدة الحرب تقدم الشباب إليه نادمين خشية أن يكونوا قد أكرهوه على غير ما يريد، فكان جوابه على ذلك: (ما ينبغي لِنبـيٍّ إذا لبس لأمته - عدة القتالِ - أن يضعها حتى يقاتل).[11]

فكان درساً لقادة المسلمين يعلمهم ألَّا بد من الارادة الحاسمة في الأمر الذي يختارون، حتي لا يدعوا للتردد سبيلاً إلى نفوسهم.

□ وبعد فهذه لمحات يسيرة عن حياة طافحة بأنواع الكمالات، أحاطها خالق السموات والأرض بعنايته، لتمثل القِيَمَ العليا في أتم صورها، فإذا كان من خصائص الرؤساء والقادة والدعاة أن تنحصر مواطن عظماتهم في جانب على حساب الجوانب الأخرى من حيواتهم، فقد استوفى محمد صلوات الله عليه وسلامه مقوماتِ العظمة في كل ناحية من حياته، فكان كالشمس تبهر الناظر من أي الجهات واجهها.

ولا عجب فإنه خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وحجة الله على العالمين.. فصلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١١) المرجع نفسه ٦٣/٣.

# قضيـة البعـث
# في ضـوء الوحـي والعقـل

**﴿تبارك الذي نزَّل الفرقانُ على عبده ليكونَ للعالمين نذيرا﴾.**

هذه الإشارة الإلّهية على صراحتها لا يدرك دلالتها سوى المؤمن الذي أخذ نفسه بأدب القرآن، فهو يتقصى معانيه بكل طاقاته العقلية والشعورية، ولذلك يجد نفسه كل يوم في جديد من هذه المعاني لا تفتأ تفتح لعينيه آفاقاً متجددة من أسرار هذا الكتاب، الذي أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير. .

لقد كنت استمع إلى الآيات الكريمة التي رتلها الإمام من سورة (فاطر) أثناء صلاة الفجر، فاسبح في جوها مأخوذاً بدلالاتها حتى بلغ قوله تعالى **﴿والله الذي أرسل الرياح فتثيرُ سحاباً، فسقناه إلى بلدٍ ميتٍ فأحيينا به الأرض بعد موتها. . كذلـك النشـور﴾** وكأني لا أسمع حروفاً وألفاظاً بل أشاهد بعين بصيرتي عملية الخلق والتكوين والبعث في مراحلها المتتابعة. فأرى الرياح وقد أرسلها البارىء العظيم بصيغة الماضي (أرسل) فلا تلبث أن تقوم بمهمتها التي وجهت إليها فإذا هي تثير ـ بصيغة المضارع الدال على الحركة والتجدد ـ متفرقات من السحاب التي لا تلبث أن تنـطلق نحـو الجهة التي حُدِّدت لها لِتصبَّ حمولتها من الماء على الأرض اليابسة، التي فارقت بشاشة الحياة، كالميت الذي انقطع عمله، فما إن يمسها ذلك الري حتى تعادوها الحياة بعودة الانفعال والتفاعل والانبات. .

ولكن المشهد لم ينته بعد فإذا نحن أمام عالم آخر من الوجود المحجوب، الذي طالما تساءل عنه الإنسان تشوفاً إلى مصيره المجهول، غير أنه على سعته وروعته ولهفته إلى رؤيته لا يكاد يلمح منه سوى الصورة المجملة المقصورة على هاتين الكلمتين (كذلك النشور). . ولذلك فلا مندوحة للعقل من التساؤل هنا عن الصلة

بين صدر الآية وخاتمتها، وسرعان ما يجد نفسه تلقاء القضية الكاملة التي تضعه أمام مبدئه ونهايته!. .

### من المشهود إلى المحجوب

إنك ستتذكر حتماً هاتيك الصورة المعهودة، التي طالما وقع حسك عليها حين تتلبد السماء بالغيوم، وهي مسوقة بسياط الرياح لتكثِّف محتوياتها من الذرات المنتشرة، حتى تلقي بها إلى ميت من الأرض ماء غدقا يوقظ هاجع التراب، فينهض لتفجير طاقة الحياة في البذور الدفينة، لتطل من قبورها أعشاباً وأشجاراً وأثماراً وأزهاراً، ولتنشر على البقاع الأخرى المناهل التي تمد الأحياء من بشر وطير وحيوان بكل ما يعوزها من أسباب البقاء. .

ولكن الصورة الرائعة لم تستكمل دلالتها بهذه العناصر والمراحل، إذ تحملك من المشهود إلى المحجوب فتذكرك بالمراحل التي تقطعها أنت كذلك في رحلة الحياة، منذ أبدعتك يد الخلاق العظيم من تراب هذه الأرض حتى تصير بك إلى الخمود الذي رأيت مثله في موات الأرض والنبات، وكما أن خمودها لم يَعْدُ أن يكون واحدةً من مراحل الإبداع الإلّهي يستريحان خلاله من الكدح الدؤوب، إلى حين يأتي أمر الله بمدد الحياة الجديد، فيستعيدان وجودهما كأتم ما يكون الوجود. . هكذا أنت صائر بقدرة هذا الحكيم العليم بعد الوجود الأول إلى حياة جديدة أخرى، لا كحياة التراب والنبات التي لا وظيفة لها سوى تأمين الحاجات الضرورية للمخلوق؛ الذي سخر الكون المادي لخدمته، بل إلى حياة خاصة بهذا المخلوق الذي ميزه الخلاق الحكيم بالمسئولية عن أعماله وأقواله، فكان بهذه المسئولية جديراً بالخلود الذي لا ينقطع، والنعيم أو الجحيم الذي استحقه وفق ميزان العدالة، التي لا يضيع عندها عمل عامل ولو مثقال ذرة من الخير أو الشر. .

### بين الحياة والموت

ويستغرقني موضوع البعث حتى ليلاحقني خياله فلا أجد مناصاً من معالجته في هذه الخلوة التي انفرد بها للكتابة. وتتداعى على ذهني الأفكار من هنا وهناك،

وأتذكر ذلك المشهد المهيب الآخر الذي تعرضه سورة الروم في قول الحي القيوم: **﴿يُخرج الحيَّ من الميت ويخرج الميت من الحي، ويُحي الأرض بعد موتها.. وكذلك تخرجون﴾** فأشخص إلى ذلك التداخل العجيب بين الحياة والموت. فهاهنا حي يخرج من ميت وهناك ميت يخرج من حي.. وهي عملية متجددة أبداً بدلالة الفعل المضارع، ويجب أن تكون مما يقع عليه الحس في وجودنا اليومي.. فأين يحدث هذا.. وكيف؟..

وسرعان ما انتصبت في بصيرتي صورة الأظفار التي قلمتُها آنفاً، والشعر الذي قصصته عن رأسي بالجهاز الكهربي .. أليس كلاهما من الأشياء التى توصف بالموت.. أو لم يكونا قبيل لحظات يتمتعان بخاصية النمو المستمدة من الكيان الحي الذي يشار به إلي؟.. فتلك هي إذن أقرب الصور لخروج الميت من الحي.. فلنبحث عن الصورة المقابلة التي تمثل الحياة وهي خارجة من الميت، وها نحن أولاء نشهدها كل لحظة في انبثاق النبات من أعماق التراب!.. والنبات ما دام محتفظاً بخاصية النماء فهو حي، وفي انبثاقه من التراب الجامد أقرب الأمثلة كذلك على خروج الحي من الميت.. وقد رأينا عملية الموت والحياة وهي تتعاور الأرض فبينا نراها هامدة لا أثر للحياة عليها، إذا هي تهتز وتربو بمجرد أن مستها رحمة الله بالغيث المنهمر.. ثم ماذا؟.. ثم توافيك النتيجة المنطقية التي لا تقبل الخلاف، وهي جريان هذا القانون على وجود الإنسان الذي يشارك النبات في مسيرة التطور، من الولادة حتى انطفاء الذبالة الأخيرة.. وفي موعده المقرر بعالم الغيب حيث تفاجئه دعوة الخالق العظيم فإذا هو ينفض عن نفسه غبار الردى ويأخذ طريقه إلى ساحة الحساب!..

**الرحلة الجديدة:**

وما أكاد أفرغ من تملّي ذلك المشهد الباهر حتى ترتسم في بصيرتي صورة الحياة بأجمعها، من قبل الولادة حتى قيام الخلق لأداء حسابهم بين يدي ربهم في إطار التفصيل الذي يأخذ بالألباب:

**﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغة مخلقةٍ وغير مخلقةٍ، لنبين لكم، ونقرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمّى، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدَّكم، ومنكم من يُتَوفى ومنكم من يُرَد إلى أرذلِ العمرِ لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئا. وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وربتْ وأنبتتْ من كلِ زوجٍ بهيج﴾** الحج ٥.

إنه نداء موجه من باريء الكون إلى الناس جميعاً فحريٌّ بهم أن يتهيئوا لاستماع جوابه بكل ما يملكون من طاقة الوعي. ويخص بالذكر أولئك الذين صرفتهم الغفلة عن مشاهدة الحقائق الناطقة في حيواتهم نفسها، حتى تسلل إلى قلوبهم الشك في إمكان العودة بعد الموت. ويبدأ العرض بمنشأ الإنسان الأول إذ بدأ خلقه من الطين وهي قضية مسلمة لا يختلف فيها عاقلان، وإن غاب عن كثير من المفكرين كيفية الانبثاق الذي أحدث الحركة الحية في ذلك الكائن.. وتتوالى عملية الخلق إذ تأتي مرحلة التوالد الذاتي حيث تأخذ الحياة سبيلها التكاثري عن طريق التناسل التطوري، فنشهد البذرة الإنسانية في مسيرتها العجيبة نطفة ثم علقة ثم مضغة.. مما لم يكن قد تيسر لأحد من الخلق رصدها قبل العصر الحديث الذي أتيح لذوي التخصص من أهله أن يشاهدوا تلك المراحل عياناً، عن طريق الأشعة الكونية والمناظير الالكترونية، إلى أن تبرز هذه البذرة خلقاً آخر في صورة الطفولة المشهودة..

**شهادة كونية**

ويمضي العرض مع هذا الكائن خلال رحلته الجديدة حتى يبلغ أشده ثم ينتهي إلى أرذل العمر حتى تتعطل ملكاته فتنقطع الصلة بين أمسه ويومه، ويعود كما بدأ لا يستطيع شيئاً إلا بمعونة الآخرين.. إلى أن يحتل مكانه من التراب الذي بدأ منه..

وفجأة يتغير المشهد فإذا نحن أمام ظاهرة الموت تغمر الأرض اليباب، حتى إذا مستها نفحة من رحمة الله استأنفت حركتها نحو النمو والازدهار والانتاج.. وقبل

أن تتحرك شفاهنا بالتساؤل عن العلاقة بين الظاهرتين نجد أبصارنا وعقولنا مشدودة إلى التعليل الإلّهي الشافي الكافي **﴿ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾** الحج ٦.

فالقضية إذن على غاية من وضوح الدلالة على أننا تلقاء شهادة كونية بأن الله هو الحق، الذي لا مندوحة عن الإقرار بربوبيته، والتسليم لقدرته، التي بأمرها وحكمتها تحققت كل هذه المعجزات المنظورة، وبها ستتحقق المعجزة المنتظرة بعودة الرفات الى الحياة التى ليس بعدها ممات.. وهي المقدمة القاطعة بأن **﴿الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾** الحج ٧.

**ونسي خلقه :**

وإنه لمن المدهش حقاً أن تعمى بعض القلوب عن هذه الحقائق وهي تشهدها أنى اتجهت من هذا الكون بارزة شاخصة تسترعي الانتباه وتثير التفكير، حتى لتسمع بعض هؤلاء المضللين يعلن في وقاحة السفهاء **﴿إن هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾** المؤمنون ٣٧. ويبالغ أحدهم في قحته وتعاميه عن هذه الحقيقة إلى حد أن يتحدي نبي الله في إنكارها، ويأتيه بعظم بال يَفتُّه في يده ثم ينفخ ذراته في الهواء وهو يقول: (أتزعم أن الله يبعث هذا؟..) وسرعان ما يأتيه الجواب من فوق سبع سموات قرآناً يُفحم كل مريد عنيد على وجه الدهر: **﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال: من يُحيي العظام وهي رميم؟.. قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليم﴾** يس ٧٨، ٧٩. وهل بقي لذلك المغرور ما يقوله وهو يتلقى هذا الرد المخرس الذي يصدم عينيه في كل شيء؟! أفليست إعادة الشيء إلى وضعه الأول أهون وأيسر من اختراعه ابتداء.. وإن كان ذلك صحيحاً بالنسبة إلى عمل الإنسان، أفليس هو أحق وأكمل بالنسبة إلى خالق الحياة والموت!!.. وكيف يعتري الشك انساناً بقدرة ربه على إعادته إلى الحياة بعد الموت، وهو يرى إلى هذه القدرة ماثلة في كل ما يقع عليه البصر والسمع والحس!!!.

﴿أوليس الذي خلق السموات والأرضَ بقادرٍ علي أن يخلق مثلهم؟ . . بلى وهو الخلاق العليم . . ﴾ .

ويا لله ما أروع وأبدع ذلك الاستدراك المخجل لكل معاند (ونسي خلقه) . . هذا المغرور المأفون يقدم على وقاحة الإنكار لقدرة ربه ناسياً أن في نفسه وتركيبه، وحتى في لسانه الذي يحركه بمثل هذا الهوس أقرب الأمثلة على أفنه وغروره وتفنيد ضلاله! . .

**الأصـل المفقـود :**

على أن هذا كله من حقه أن يبعثنا على التساؤل كذلك : إذا كان للنبات بذوره التي تحمـل خواصَّه الأساسية، وبها يرجع إلى استئناف حياته من جديد، فهل للإنسان من بذور يعود بها إلى استئناف الحياة كشأن هذا النبات؟ . . .

الـظاهر أن الفسيلة الوحيدة التى يتم بها تواصل النسل الإنساني هي الوسلية الوحيدة لاستمرار النوع، وهو أمر غير مضمون البقاء إذ كثيراً ما نرى عقيما ينتهي وجوده بموته . . وقد يذهب الخسف أو الزلزال بأمة فلا تخلف وراءها من أثر . . كالنبتة التي تتلف بذورها فلا ينتظر لها من معاد. وكالكائنات الحية التي أتى عليها الفناء فلم يبق من دليل على مرورها بالأرض سوى بعض الأحافير . . وبما أن البعث الذي يْخبرنا به القرآن العظيم هو عام لكل نفس مرت بهذه الحياة وجب أن يكون ثمة (أصل) لا نعرفه منه تنبثق العودة العظمى إلى الحياة الثانية . . فما هو؟ . . وأنَّى هو؟ . .

في صحيح البخـاري عن أبي هريرة يروي عن رسـول الله أنـه قال (مـا بين النفختين أربعون، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذنبه، فيه يركّب الخلق) . [1]

---

(١) انظر كتاب التفسير من صحيح البخاري ج ٨ ص ٥٥٢، و ٥٥٣ ط السلفية.

وقد توارد على رواية هذا الخبر العديد من كتب الحديث كمسلم والنسائي وأبي داود ومالك وأحمد. . وعلى الرغم من أننا لم نر هذا العجْبَ ولم نعرف من صفاته سوى ما ورد عنه ﷺ من كونه كحبة الخردل فهو من الحقائق المسلمة عند أولي العلم والإيمان، لصدورها بحق على لسان المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. . ومن هنا نطل على (الأصل) المفقود الذي من خلاله نطلع على منطلق الحياة الى الدار الآخرة. .

والظاهر كذلك أن هذا العجب قد خص به الخالق الإنسان دون غيره من سائر الخلق. . وبخاصة عالم النبات الذي زوده من أسباب التجدد بتلك البذور المساعدة على تواصل البقاء على هذه الأرض، حتى إذا بُدِّلت الأرضُ غير الأرض انتهى دورها، وبدأ دور هذا الإنسان المميز بالتكليف والمعرَّض للمسئولية عن أمانة الله، التي أقدم على تحملها بعد أن أحجمت الأرض والسموات والجبال عن ذلك. .

ومع جهلنا التام لماهية هذا العجْب فقد فهمنا من كونه الشيء الذي (فيه يركب الخلق) إن له مثل خاصية البذرة النباتية ما إن يتوافر لها الجو الموائم حتى تشرع في التفاعل المتلاحق إلى أن تستكمل صورتها الأولى.

**بلى شهدنا**

وقديماً بحث الإمام أبومحمد بن حزم - في كتابه الفصل - موضوع البذرة وخواصها - وجيناتها المميزة - وكان مما تحدث عنه هناك ما يمكن تسميته بـ (نظرية الكمون) التي تلخص باحتواء البذرة مهما تبلغ من الضآلة على كل خصائص النوع، من جذور وفروع وأوراق وألياف وما لا يحصيه إلا الله من مركباته. . فمهمتها بعد توافر الوسط الصالح إطلاق كل جُزَيء منها في سبيله المرسومة حتى يستوفي هيئته المقدرة له. .

وهذا ما يذكرنا بمضمون الآية الكريمة من سورة الأعراف حيث يقول جل وعز: **﴿وإذْ أخذَ ربك من بني آدمَ من ظهورِهم ذريتَهم وأشهدهم على أنفسِهم: ألستُ بربكم. . قالوا بلى﴾** الأعراف ١٧٢.

ويأتي الحديث الشريف ليفصِّل لنا مجمل هذا المضمون العجيب بقوله صلوات الله وسلامه عليه وآله ـ حسب رواية أحمد عن ابن عباس ـ (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلا (ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا).[٢]

وأول ما يتبادر للذهن من مفهوم لهذا الحديث الشريف هو أن في صلب أبي البشر ـ آدم عليه السلام ـ أصول ذراريه جميعاً، وأن الله تبارك اسمه قد استخرجهم وأخذ عليهم ميثاق التوحيد، الذي أودعه فطرهم.. ونحن لا نتصور مقدار الصغر الذي كانت عليه هذه الأصول يومذاك، ولكنا لا نستغرب الخبر بعد أن كشف العلم الحديث بعض صفات الذرة التي تنطوي على مالا يتصور من الطاقة، مع أن أربعين مليون ذرة لو رتبت في خط مستقيم لم تتجاوز مقياس البوصة الواحدة!..

فهل يكون الواحد من هذه الأصول هو عَجْبَ الذنب الذي يشير إليه الحديث الشريف؟. أو أنها إشارة إلى المقر الذي يكمن فيه هذا الأصل حتى يأتيه داعي الله ليوم الحساب!..

وما يهم المفكر هنا بوجه خاص هو أن ثمة أصلاً في الإنسان لا يناله البلى ومنه تنطلق أجهزة الحياة لاستعادة هيئته التي حجبها الموت، كما تنطلق بنية النبتة من البذرة المحتوية لكل خواصها..

**من المسئول :**

خلال الربع الثالث من هذا القرن فوجىء الناس بأخبار الأعضاء تزرع في بعض الأجسام، وقد تعددت القلوب التي استعيرت من أجسام لتركب في أجسام غيرها.. وتسابق علماء الأحياء في كشوفهم وتجاربهم المتصلة بهذه الناحية، وكان منها تركيب الخبراء الروس رأس كلب على جسم كلب آخر.

---

(٢) وقد تعددت صور هذا الحديث وروايته بين مرفوع وموقوف. انظر تفسير ابن كثير للآية.

وانـطلقت عقيب هذه التجـارب أسئلة الفضوليين: هذه القلوب التي تبادلتْ حَمَلتَهَا، والأدمغة التي يُحتمل أن تُنقل كالقلوب من أشخاص إلى أشخاص، كيف تؤدي حسابها أمام الله يوم يحشر الخلق للثواب والعقاب؟.. أيكون حسابها عن الأجسام التي كانت فيها أم يكون عن الأجسام التي صارت إليها؟!...

حقـاً إنهـا لأسئلة محيرة كل التحيير. ولكن هذه الحيرة لا تلبث أن تتبدد، كالفقاعة التي تتصاعد من أسفل الوعاء فما إن تمس سطحه حتى تُفرغ شحنتها في مكانها من الهواء فإذا هي في حكم العدم.. وهذا ما سينتهي إليه المتأمل عندما يعود إلى النظر العميق في وظائف الأعضاء من الجسم الحي..

وقبل الشروع في ذلك علينا أولاً أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال:

هذا الإنسان الذي نناقش موضوعه.. ماهو؟.. ومن هو؟.. ومن أين يستمد خصائصه الفاعلة؟...

ليس سؤالنـا هذا بالأمـر اليسير البـاعث على السخـرية.. فقبلنا وقف أكابر المفكرين يعانون مثل حيرتنا ثم خرجوا من تساؤلهم إلى مثل هذا السؤال الآخر الذي لم يستطيعوا له جواباً: أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!..

**موجـود فوق المـادة :**

كل ما علمه الإنسان عن عالمه الأكبر هذا هو أن لكل عضو ولكل جارحة ولكل خلية في جسمه وظيفة خاصة تؤديها في وعي يعجز الحاسبين والحاسبات، ولكن في تعاون شامل بين مجموع عناصره، يؤمن لكل جُزيء حقه من الحياة. ولكن ثمة وظيفة أخرى هي الكبرى بالنسبة إلى هذا الكيان العجيب، هي وظيفة الإشراف الضـابط لعمـل الكل، فقد يفقد الجسم أحد أعضائه أو جوارحه، كالعين واليد والقدم والبصر والسمع، ومع ذلك يظل ذلك الضابط حاضر العلم بذاته وما حوله، محتفظاً بخاصية الإدراك والتذكر والتفكر، حتى تختتم مهمته في الحياة الدنيا.. وبذلك يتوافر لنا اليقين بأن الأعضاء وسائر الأجزاء المادية من الجسم ليست هي الإنسان، بل هي الوعاء أو الأوعية التي يعمل عن طريقها، كشأن التيار الكهر بي

الذي ينطلق في الأسلاك فيكون هنا ضوءاً وهناك حرارة وهنالك حركة.. ويظل التيار هو القوة المؤثرة الأولى التي بانقطاعها يتوقف عمل الأجهزة كلها..

وإذن فالإنسان الذي عليه مدار النقاش لا بد أن يكون موجوداً آخر فوق المادة، ومن خصائصه الأولى ألّا يعتريه البلى الذي يعرض للجسد، بل ينفصل عنه بمجرد انحلال عناصره الحسية، ليواصل وجوده في كينونة أخرى مناسبة له.. وذلك هو السر الذي يطالعنا في مواطن كثيرة من كتاب الله ومن حديث رسوله الأمين..

**ذلك هـو الإنسـان :**

١ـ ففي القرآن العظيم يقول ربنا تبارك اسمه: ﴿**الله يَتَوفَّى الأنفسَ حين موتِها والتي لم تمت في منامِها، فيمسك التي قضى عليها الموتَ ويُرسلُ الأخرى إلى أجل مسمّى**﴾ الزمر ٤٢.

فهاهنا أنفس يتوفاها الله بالموت، فيمسكها عن العودة إلى الحياة، وأخرى يسكب عليها غيبوبة النوم إلى حين، ثم يطلقها لمواصلة العيش، حتى تستوفي مدتها التي قدرها لها.

والتـوفية في كلتا الحالتين إنما هي، والله أعلم، استيفاء المقدار الذي حدد للمـوت والنـوم من قبل القادر الحكيم، الذي لا يعْزب عن علمه مثقال ذرة في السمـوات والأرض، لأن كل شيء عنـده بمقـدار ومثل هذا المدلول للتوفية هو المعنِيُّ في رثاء طرفة على لسان أخته:

عددنا له ستا وعشرين حجـة فلما توفاها استوى سيداً ضخما

وفي هذا التعبير القرآني دلالة قاطعة على أن للنفس كياناً خاصاً قد عين له نطاق محدود من الزمن يقضيه في صحبة الجسد، فإذا استوفاه أُمسِك بأمر ربه كما يشاء وحيث يشاء إلى حين يشاء.

٢ـ ويقول ربنا جل جلاله عن نهاية العصاة الذين لم يمنعهم إيمانهم من المقام في مستنقعات الكفر، الذي يعرضهم وأبناءهم للانحراف عن سبيل المؤمنين: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسِهم قالوا: فيمَ كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في**

**الأرض. قالوا: ألم تكنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها!.. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾** النساء ٩٧.

هذا الحوار بين ملائكة الموت وأولئك الخاضعين لأحكام الطواغيت.. إنما يجرى بين الفريقين بعد أو أثناء انفصال أرواح هؤلاء عن أبدانهم. ويستحيل أن يحدث ذلك لو كان الموت قد أصاب هذه الأرواح كما أصاب أجسامها، وهو حوار واعٍ يؤكد أن لها كل خواص (الإنسان) الذي كانت تحتل صورته قبل الموت، ولا تفسير لذلك إلا أن هذا المتحدث إنما هو نفسه (الإنسان) الذي تفصل المنية بينه وبين أجزائه الترابية التي انتهت مهمتها.

٣- وعن الشهداء الذين صدقوا الله ما وعدوه يرينا المولى تباركت أسماؤه هذه الصورة السعيدة **﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيلِ الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** آل عمران ١٦٩، ١٧٠.

فالشهداء أحياء عند ربهم مرزوقين فرحين مستبشرين.. وهذه أحوال لا يمكن تصورها إلا في أحياء يحتفظون بكل وعيهم، الذي عاشوا به من قبل، وإن اختلف النوع بين الحياتين اختلافَ العالَمينِ اللذين تنقلوا بينهما.. وفي صحيح مسلم أن (أرواحهم في جوف طير خضر) وفي أثر آخر أنها في حواصل طير خضر تأوي إلى قناديل معلقةٍ بالعرش. وذلك من إكرام ربهم لهم، على حين تكون أرواح الكفرة والفسقة في مقارها المناسبة لها، كما هو الحال بالنسبة إلى آل فرعون الذين يصور لنا الله مصيرهم بقوله الحق: **﴿النارَ يُعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويومَ تقومُ الساعة. أُدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب﴾** غافر ٤٦.

فهذا عذاب متصل يبدأ بمرحلة البرزخ عقيب الموت ويمتد إلى ما شاء الله بعد الحساب.

**ليس الموت بالعدم المحض:**

والحديث عن الأرواح يستدعي البحث في مصيرها من حيث الاستمرار والانقطاع.. أهي باقية خالدة.. أم أنها كغيرها من المخلوقات التي تتعرض

لتارات من هذه وتلك؟ . .

وقد اختلف العلماء قديماً في هذا الموضوع، ولكن أرجح ما وصلوا إليه هو أن روح كل إنسان إنما يبدأ وجوده بنفخة الملك الموكَّل به، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود رضى الله عنه (أن خلق ابن آدم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملكَ فينفخ فيه الروح[٣] أما متى تنتهى رحلة هذا الروح المخلوق بأمره تعالى من نفخة الملك فلا جواب على ذلـك، لأن (الروح لا يلحقه عدم ولا فناء ولا اضمحلال) وقد أخبر الباري سبحانه عن مصير الأشقياء في سورة طه ٧٤ **﴿إنه من يأتِ ربَّه مجرماً فإن له جهنم لا يموتُ فيها ولا يحيى﴾** ويكرر المعنى نفسه في سورة فاطر ٣٦ **﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يُخَففُ عنهم من عذابها . .﴾** فهم مخلدون لا يجدون موتاً يريحهم من العذاب ولا تتاح لهم نفحة من الأمن تذيقهم طعم الحياة . .

أما قوله تعالى **﴿ونُفخَ في الصورِ فَصَعِق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون﴾** الزمر ٦٨ . فقد قال بعض كبـار المفسـرين أن الصعق شيء غير الموت، وأقول: لعله ضرب من الصدمة الهائلة تضرب الخلق فتشتت وعيهم ثم يعودون إلى رشدهم بالنفخة الثانية. وفي الاستثناء ما ينبيء بأن ثمة من ينجو من ذلك الصعق بإذن الله، ولو كان الصعق هو الموتَ لكان موتةً أخرى، وهو لا يتفق مع الخبر الإلهي (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وهي التي حصلت بمفارقة الروح جسدها إذ ليس الموت في حقيقته بالعدم المحض بل هو مجرد انتقال من حال إلى حال .

## منـاط الثواب والعقـاب :

ونتساءل الآن عن الصورة التي يتم بها البعث الموعود، وهو من الأسرار التي اختص بها الخالق العظيم ذاته، فلم يطلعنا على تفصيلاتها إلا قليلاً في إشاراتِ

---

(٣) انظر البحث موسعاً في (لوامع الأنوار) للسفاريني ج ٢ ص ٤٤ من مطبوعات الشيخ علي آل ثاني

الكتاب المجيد، وفي ما أعلَمَ به رسولَه . . وكلها متفقة على أنه تعالى يعيد الإنسان كما فطره أول مرة كقوله سبحانه ﴿**كما بدأكم تعودون ـ كما بدأنا أول خلق نُعيده**﴾ وقد رأينا بدء الخلق على الصورة التي تجمع بين الروح والجسد، فكذلك الإعادة بشهادة الحكيم الخبير الذي يقول في سورة التكوير عن بعض ظواهر يوم القيامة ﴿**وإذا النفوس زُوِّجت**﴾ وإنما هو الجمع بين روح الفرد والهيكل المادى، إذ كان الموت قد فصل بينهما فانفرد كل عن الآخر، فإذا جاء موعد الحشر زاوج الله بينهما من جديد . .

وفي الصحيحين عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله أنه قال (أيها الناس إنكم تُحشرون إلى الله حفاةً عُراةً غُرلا . . ) وهي صفات خاصة بالهيكل المادي لا تنصرف لغيره .

بقي أن نسأل أنفسنا أيضاً: هذه الأعضاء التي عن طريقها نتعامل مع الإنسان في هذه الدنيا، أهي نفسها التي ستعود ليحتلها الروح يوم البعث؟ . . أم هي خَلَف لها وبديل يخلقها الله بقدرته الخارقة؟ . . .

ليس بالمستغرب في منطق العقل والإيمان أن يعيد سبحانه متفرقات الأجزاء التي دمرها البلى، وتناثرت في آلاف بل ملايين الملايين من العناصر الأرضية . . ولكنْ أي فرق موضوعي بين أجزاء ترابية يستخلصها ربنا بأمره من متاهاتها التي لا يحيط بها علماً غيرُه؟ وبين أجزاء بديلة يبدعها من جديد، ومن المادة نفسها، ما دامت المسئولية كلها واقعة على الذات المتحكمة الفاعلة؟ . . أوليس في قول ربنا سبحانه بشأن أهل النار ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها**﴾ ما يؤكد هذه الحقيقة وهي كون الروح وحده هو مناط الحساب والعقاب! . .

## الأحــلام والــرؤى

ولنتأمل قليلاً في حركة الحياة التي نشاهدها في كياننا المادي كله من الأظفار إلى الأشعار إلى الأبشار . . أليست مستمرة التبدل والتجدد حتى ليمكن القول بأن هذا الكيان الذي أخاطبك من خلاله الآن هو موجود آخر غير الذي كان قبل بضع

سنوات مثلاً! . . وإنها لحقيقة لا مجال فيها للخلاف بين أهل العلم . . وهي تحفزنا لأن نطرح على أنفسنا هذا السؤال الآخر: أي هذه الأجزاء المستمرة التبدل والتجدد هو الذي ترتديه الروح يوم النشور. . ثم أيها هو الذي يشهد علينا أو لنا بين يدي العليم الحكيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم؟ . . ولا يفوتنا أن نتذكر هنا كذلك أن هذا الجسم المكوَّن من عناصر الأرض على اختلافها، من مائع وطيار وجامد، وما لا يحصيه بعد الله سوى ذوي التخصص، قد قضى المبدع العظيم أن يكون موته وتلاشيه سبباً في انحلاله إلى كل هذه الأصول، وأن تأخذ كل ذرة منه سبيلها إلى مناسبها، فيلحق بعضها بأجسام أناسى أخرى عن طريق الغذاء أو الدواء أو الهواء. . إلى ما يتصور وما لا يتصور فى علم بشر، فكل ذرة منه إذن ستشارك في بناء وعمل الأجسام التي صاحبتها. . ومع يقيننا التام بقدرة الخالق على رجع كل ذرة ونُوَيَّةٍ إلى أصلها الأول، نوقن كذلك بقدرته على تكوين هذه (الأجزاء الفضلية) ـ حسب تعبير المرحوم الشيخ حسين الجسر فى (الرسالة الحميدية) ـ تكوينا جديداً على الوجه الذي يشاؤه، وأن كلتا الحالتين في ميزان العظمة الإلهية سواء. . وإنما نستنبط هذا من خبر الوحي عن تبديل جلود أهل النار، مع أن البديل غير المُبدَلِ منه، وكفى بهذا دلالة على كون العذاب على الذات وليست الجلود ـ وأشباهها من أجزاء الهيكل الانساني ـ سوى تجسيم لصورة الذات المعذبة. وهي قضية مشهودة ملموسة في تجارب الإنسان اليومية عن طريق الأحلام والرؤى. . فكم من نائم يعاني أنواع العذاب والآلام، وآخر يتمتع بأصناف النعيم دون أن يشعر بعذابه أو نعيمه جاره أو ضجيعه. . ولا تعليل لذلك إلا بكون الألم واللذة من خصائص الروح دون الجسم.

**الله أنبتكم :**

والآن هلم أخي القارىء نختم مطافنا الحافل بذلك المشهد الرائع، الذي نطالعه في الحديث الطويل الذي أخرجه الشيخان وفيه يقص علينا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله، خبر أولئك العصاة الذين لم يعملوا خيراً وشملتهم

رحمـة الله أخيراً، فكـانوا آخر من يغادر النار (وقد عادوا حُمماً ـ فحماً ورماداً ـ فيلقيهم الله في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل)[٤]

والحبة قبل أن تصير إلى حميل السيل لم تكن لتحمل أي دلالة على الحياة، ولكنهـا ما إن تستقر في ذلك المقر حتي تدب فيها الحركة، وتشرع كوامنها في التفتح والازدهار. .

وتشدني هذه الصورة الشائقة للمتفحِّمين، وهم يستقبلون نعمة الله، إلى قوله في سورة نوح: **﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً﴾** فتستـوقفني ظاهرة الإنبات مقابلةً بالإخراج، فأتساءل عن مدلولها. . وأرجع إلى تقرير المفسرين فلا أراهم يزيدون على القول بعلاقة المشابهة بين خلق الإنسان من عناصر الأرض وخلق النبات منها، وكذلك يقفون في موضوع الخروج والإخراج على المعنى العام للإعادة دون تفكير أو تصور لنوعه.

وأحس هنـا باعثـاً يحفـزني على التساؤل: ألا يمكن أن يكون انشاء الخالق للإنسـان الأول على الطريقة نفسها التي أنشأ بها أنواع النباتات، وذلك بإيداعه سبحانه بذرة كل من النوعين أحضان الأرض تتفاعل مع عناصرها، حتى إذا شاء إبرازهما أتاح لهما الأسباب المساعدة على النماء فأخذ كل منهما سبيله إلى الظهور على الوجه المقرر له؟ . .

و (الخروج والإخراج) حين يقدر الله عودة الإنسان إلى الحياة ألا يحتملان معنى آخر غير المتبادر من المدلول اللغوي المقابل للدخول والإدخال؟ . .

إن الأرض الميتة إذا حان أوان رجعها ساق الله إليها الماء فاهتزت وربت وشرعت بإخـراج مضمـونهـا أزواجاً من نباتٍ شتى، وعلى هذا يكون من معاني الخروج والإخـراج بالنسبة للإنسان أن يهيىء الله الأسباب التي يحرك بها ذلك الأصل ـ عجْب الذنب ـ الذي (منه يركب الخلق)[٥] كما أخبر على لسان رسوله، وبها يطلق

---

(٤) انظر جمع الفوائد رقم ١٠,٠٠٠ و ١٠,٠٥١

(٥) وردت العبارة في الحديث بصيغة (فيه يركب) و (منه يركب) انظر ج ٨ ص ٥٥٢ من الفتح طبع السلفية.

ما كمن فيه من خصائص الجنس البشري ، فلا يزال في تفاعله ونموه وتفريعه حتى يستوى على الصورة التي أنشأها أول مرة . . وبذلك تكون عملية البعث جارية على هذا النحو من النظام الإلّهي ويكون الانبات والإخراج على حقيقتهما الماثلة في عودة النبات لاستئناف مسيرته الأولى ، وفي عودة الإنسان لأداء حسابه بين يدي مولاه . .

**صمام الأمن :**

وتأمل معي أخيراً في هذا الشاهد الطريف من ملامح البعث الحسية :

هل أتاك نبأ تلك البيوض التي يودعها الجراد أحضان التراب وقد تحجبت في أغلفتها الخاصة واختلطت مع ذرات الأرض فلا تميزها سوى الأعين الحاذقة الخبيرة! . . وتمر الأيام والشهور وقد تمر السنون وهي في أكياسها دفينة حتي يشاء الله أن تدركها الرطوبة المحيية ، فإذا هي تتمطى ثم تتسلل ثم تنتشر لتلتهم كل ما تصل إليه أفواهها التي لا تكل ولا تشبع ! . . .

وليست هذه البيوض سوى واحدة من آلاف الأشكال التي يُتم بها الباريء الحكيم عملية البعث اليومي لأصناف من المخلوقات التي لا يحصيها إلا هو . . ومع ذلك لا تعدم الاذن أن تسمع مغروراً يعلن بوقاحة (إن هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر) وما أخطر هذا الضرب من المجانين على سلام الإنسانية ، التي جعل الله الإيمان بالبعث صمام الأمن في وجودها على هذه الأرض .

فلا اطمئنان للإنسان على نفسه وعرضه وماله إلا في كنفه ، وكل شقاء يعتري الفرد والجماعة فمرده إلى فقدانه أو نقصانه . . وصدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم : **﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرةِ قلوبُهم منكرةٌ وهم مستكبرون﴾** النحل ٢٢ . وأي ضلال أقتل لصاحبه من قلب سُلب نعمة الأمل بلقاء ربه فهو يتخبط في ظلمات اليأس وقد راح يعوض نقصه بالاستكبار عن عبادته ، والتكبر على الضعفاء من عباده ! ! . .

ثم من أظلم لنفسه من الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يَدُعُّ اليتم. ولا يحض على طعام المسكين!..

والحمـد لله رب العالميـن

# أقباس من سورة البقـرة

شهد الله لكتابه الخالد أنه ﴿يهدى للتي هي أقوم﴾ فلا خير إلا وهو خير منه، ولا قيِّم إلا وهو أقوم منه. وذلك حكم مطلق لا يتقيد بزمان ولا مكان، بل يشمل الحياة كلها ما استمر الجديدان. ولكل سورة من هذا الكتاب العجيب بل لكل آية منه خصائص تجعلها قمة في الإعجاز، بما تحمل إلى القلب السليم من إشرقات تضىءُ وتروع ومن وقع يبهر ولا يكاد يوصف.

وقد شاء الله أن أخلو لإعداد هذا الحديث وأنا في غمرة التفاعل مع موحيات سورة البقرة، فلم أر سبيلاً للإنصراف عنها إلى أي موضوع آخر.

في حديث أخرجه البخاري عن أسيد بن حُضير رضى الله عنه أنه (بينما هو يقرأ في الليل سورة البقـرة وفـرسـه مربـوطـة عنده، إذ جالت فسكت فسكنت، فقرأ فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت، فانصرف خشية على ولده أن تصيبه.. ورفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح.. ولما حدَّث رسول الله بذلك.. قال له: تلك الملائكة دَنَت لِصوتك..).

وفي حديث مرفوع أخرجه مسلم يقول ﷺ: (اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلة) والبَطَلة هم السَّحرة.

وفي الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً وأمر عليهم أحدثهم سناً لأنه كان يحفظ البقرة وقال ﷺ في وصفها آئنذ: (فإنها إن كادت لتُحصى الدين كله).

وقـد وردت في فضائل هذه السورة أخبار أُخَر من الصحاح لا يتسع لسرد ها حديث قصير، وهي بمجمـوعهـا إنمـا تؤكـد أهميتها، وتثير تطلعات أهل العلم

والإيمان إلى مضامينها العظيمة.

ولا أغالي إذا قلت: إن نظرة واعية إلى إطار السورة الكريمة تطل بنا على عالم الإنسان كله. فهناك أصناف البشر على اختلاف مسالكهم: مؤمنون عرفوا طريقهم بنور الله، فهم على بينة في كل ما يأتون ويذرون، ثم كفرة ومنافقون أسروا الكفر وأظهروا الإيمان، فهم في ظلمات ريبهم يترددون. ثم آخرون من أهل الكتاب في أيديهم بقية من التوجيهات الإلّهية، ولكنهم عجزوا عن احتمالها، وآثروا على دلالتها الواضحة مسارب الضلال. فهم مذبذبون بين هؤلاء وأولئك، لا يكادون يحسنون إلا الدّس والفساد، وتعهد نيران الفتنة بين العباد!.

وفي أثناء العرض لهذه النماذج البشرية، وفي أعقابها كذلك، تنطلق أشعة الوحي حاملة إلى الفئة المؤمنة كل ما يعوزها من أسباب التنظيم الذي يجعل منها خير أمة أُخرجت للناس.

إن ها هنا مجتمعاً جديداً في حالة البناء، ولكي يكون البناء صالحاً للبقاء والاستمرار لا مندوحة له عن العناصر المتينة القادرة على الثبات في وجه الأحداث، على اختلاف ألوانها وأحجامها وأخطارها. ومن هنا كان التركيز في السورة منصباً على تنظيم الطاقات الإنسانية في الفرد المسلم، وفي الجماعة المسلمة على السواء، تنظيماً لا أبلغ في وصفه من قول رسول الله ﷺ (إن كادت لتُحصي الدينَ كلَّه).

إنه تنظيم شامل يبدأ بداخل الإنسان فيصحح عقيدته في مولاه، ويطهر نفسه من كل شوائب الانحراف التي تصرفه عن طاعته، ثم يعمد إلى سلوكه الشخصي والجماعي فيغمره بالنور الذي يعصمه من الزيغ، إذ يزوده بمنهجه الأمثل في العبادة والمعاملة، ويبصره بالقيم التي تربط القلب بالحق، حتي ليؤثره على كل متاع، فيوطد العزم على تحمل كل ابتلاء في سبيله بالغاً ما بلغ، لأن وراء ذلك رضوان الله وحسن ثواب الآخرة.

ولتنسيق العلائق بين أجزاء هذه الجماعة الجديدة تفصل الآيات الكثير من أحكام الحلال والحرام، في أخصِّ الشئون المتعلقة بحيوات الناس، كالطعام

والشراب والعبادات والعقوبات والجهاد. وتركز السورة خلال ذلك على موضوع الحج ونظام الأسرة. . وما إلى ذلك مما لا سبيل إلى اصابة الحق الخالص فيه إلا عن طريق الوحي الذي لا يأتيه الباطل. وبذلك يستكمل البناء الاجتماعي الممتاز عناصره الأساسية، من العقيدة والنظام وآداب السلوك، على الصورة التي تهيء هذا المجتمع للنهوض بمهمته العظمى في قيادة الركب البشري إلى التي هي أقوم، وقد عرف طريقه بنور ربه، وامتلأ يقيناً بأنه الوارث الوحيد لرسالة النبيين، الذي به يحيى الله ملة إبراهيم، بعد أن خان بنو إسرائيل أمانتها. فلم ينتفعوا بما ورثوا من الكتاب، ومن ثَم لم يقدموا لعباد الله سوى الإفساد والتباب!.

وهكذا يجد القارىء المفتوح العقل والقلب أنه من سورة البقرة أمام النظام المتكامل الذي يصل بين المؤمنين العاملين به، وبين الرعيل الأول من حملة الرسالة الخالدة. بحيث يعى كل فرد من هذه الأمة أنه حلقة في سلسلة الخير، وأنه جزء من الجماعة الوحيدة في هذه الأرض، التي تدعو إلى الله على بصيرة.

وما دمنا هذه الأيام في غمرات الحج الذي تحدد السورة الكريمة خطوطه العريضة، فلنقف قليلاً على بعض ارشاداتها ذات الأثر البعيد في بناء المجتمع الجديد.

لقد حافظ العرب على صلتهم بهذه الشعيرة منذ عهد اسماعيل عليه السلام ولكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على سلامتها، فخلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً. وكان من مظاهر الانحراف بهذه الشعيرة المقدسة ما فرضته قريش لنفسها من امتيازات لا يرضاها الله، ومنها استنكافهم عن الوقوف والافاضة مع الناس، فكان من فضل الله على عباده أن حطّم ذلك الامتياز القبلي بهذا الأمر الإلّهي: **﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾** فلا قرشي ولا أعجمي، بل الناس على سواء، لا فرق في عبوديتهم لربهم بين لون ولون وقبيل وقبيل!..

ثم تأتي الضربة الثانية على يافوخ التقاليد الجاهلية، وذلك في قوله تعالى: **﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذِكرا﴾**.

لقد استحال الحج في أعراف الجاهليين سوقاً للتجارة والمفاخرة كأي سوق أخرى، فلا خشوع لله ولا تطلع إلى ما وراء التراب.. ولكنه التحدّى بالقوة، والتباهي بالأنساب: أنا فلان. ونحن بنو فلان!.. وهكذا.. والويل للضعيف الذي لا حماية له في هذا المعمعان.. فبهذه الفقرة الحاسمة من كتاب الله ثاب أولو الألباب إلى عقولهم، فتذكروا أن الحج والعمرة لله، وانهما فرصة الأرواح لتعظيم الخالق الرزاق، والإلحاح بطلب مغفرته. فمن ظفر بهذه الفرصة حرص على أن يطهّر نفسه من الرفث بإعلائها عن مزالق الشهوات، ومن الفسوق والجدال بالباطل، بالترفع عن هاتيك التفاهات. حتى إذا أتم شعائرها على الوجه الذي يحبه الله، رجع إلى نقاء الفطرة الأول، كيوم ولدته أمه. وبذلك قضى الإسلام على ركيزة أخرى من قواعد الجاهلية القائمة على التمييز، ورفع على أنقاضها صرح القيم الجديدة، التي تجعل التقوى وحدها مناط العزة والكرامة في المجتمع البشري، وهي الفضيلة الميَّسرة لكل من سلك سبيلها من عباد الله، على اختلاف هُوياتهم ودرجاتهم.

وأحرى الخلق بإدارك هذه الحقيقة هم أولئك القاصدون إلى بيت الله، وقد تجردوا من زخارف الدنيا، واتحدوا في الزي المتواضع، الذي يذكرهم أكفانهم التي هم إليها صائرون، ثم الحساب الذي هم إليه سائرون، فكيف وهم يتلون في تدبر قول العزيز الحكيم: ﴿واتقوا الله.. واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾

**فـ ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾.**

# قبسات من أخلاق النبوة

سئلت عائشة عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت (كان خلقه القرآن) وتريد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان في مسلكه الخلقى محققاً لأدب القرآن في كل ما أحبه الله من الصفات العليا، وكمثل من ذلك نذكر أن الله تعالى أمر بالوفاء بالعهد فكان صلى الله عليه وسلم أوفى الناس بعهد، وأمر بالتواضع فكان أكرم الخلق تواضعاً، وأمر بالعبادة فكان أكثر العباد إقبالاً على العبادة، وحث على الشجاعة في الحق فكان أشجع البشر، وحبب للمؤمنين الصفح والعفو فكان ﷺ أعفى الخلق وأصفحهم، وحض على الرحمة والبر فلا يُعرف من يدانيه رحمة وبراً. .

وهكذا نعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يمثل سلوكه الكامل أكرم الأخلاق التى رغَّب الله فيها عباده الصالحين. . حتى ليجعل تثبيت الفضائل الخلقية بمثابة الهدف الأعلى لرسالته صلوات الله وسلامه عليه فيقول: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

**لمحة من شجاعته:**

كان صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى في الشجاعة، وقد تجلت شجاعته في الناحيتين المعنوية والحسية على السواء، ولكي ندرك مبلغ شجاعته المعنوية نتذكر أنه قد وقف بدعوته الربانية في وجه العالم، إذ كان العالم قد انصرف كله عن طريق الله وغرق في بحر من المعاصى والآثام والشرك، فثبت على دعوته يحتمل في سبيلها أشد ألوان الأذى والبلاء. وقد حاولت قريش معه مختلف الوسائل حتى الإغراء بالملك والمال فلم يزده إلا ثباتاً وتصميماً، حتى كتب الله له الفلاح، وأظهر

دينه على الدين كله . .

أما شجاعته الحسية فلا مثيل لها في ما عرف تاريخ الناس، يستوى في ذلك عهده السابق للبعثة وعهده النبوي . . وقد تجلت شجاعته لعهده الأول في جهره بالكره لآلهة قريش على ملأ من عُبَّادها إذ أقسم بأنه لا يبغض شيئاً بغضه لها . وذات مرة خرج في قافلة مع بعض أعمامه إلى اليمن وكان في سن الحداثة . وفي أحد الأودية واجههم فحل من الإبل مستوحش جامح فلم يجرؤ على الدنو منه أحد سواه فتغلب عليه وكبح جماحه! . أما شجاعته بعد البعثة فعجب من العجب . لقد ثبت يوم حنين في وجه الآلاف من هوازن، بعد أن تفرق عنه الناس خوفاً من الكمين المفاجىء وهو يهتف بالأعداء : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب . وحسبنا في ذلك ما روى عن على رضى الله عنه (إنا كنا إذا حمي البأس واحمرَّت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه) وطبيعي أن يكون ذلك منه صلى الله عليه وسلم تعبيراً عن ثقته بربه وتحقيقاً للتوجيه الإلٓهي الحكيم في قوله تعالى : ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ .

**لمحة عن وفائه :**

إن الحديث عن وفاء محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها طويل لا يقوم به الايجاز بالغا ما بلغ، وحسبنا من أمثلته بعض الحوادث . يقول عبدالله بن أبي الحماء : بايعت محمداً ووعدته أن آتيه فنسيت فذكرته بعد ثلاثة أيام فإذا هو في مكانه، ولما رآني لم يزد على أن قال : (لقد شققت على، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك . . ) هذا وفاؤه في الإسلام فلنذكر من أمثلته الكثيرة موقفه يوم الحديبية من أبي جندل بن سهيل بن عمرو، فقد جاء يرسف في قيود المشركين طالباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحماية .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد اتفق مع سهيل أبيه أن يسلم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين دون إذن وليه، فرد أبا جندل وفاء بعهده الذي لم يكن قد كُتِب بعد .

وفتحُ مكة نفسه إنما حدث بسبب وفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحلفائه من خزاعة، ذلك لأن قريشاً نقضت عهدها واعتدت على خزاعة، فجاء كبيرها سالم الخزاعي يطالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعهد، فلم يتردد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلبث إلا ريثما جمع جنوده وزحف على مكة ففتحها الله عليه.

ولا عجب في ذلك فمحمد صلى الله عليه وسلم إنما يطبق بذلك أمر الله الذي يقول في كتابه الحكيم ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**﴾.

**تواضعه وسماحته :**

كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس تواضعاً، وأكثرهم لطفاً وسماحة وبعداً عن التكلف، يعامل بذلك أبعد الناس وأقربهم على السواء.

زار رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل أحد الصحابة ذات يوم فسلم فرد صاحبه ردّاً خفياً. وحين لم يسمع رد الرجل عاد من حيث أتي. فأتبعه الرجل قائلاً: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام. فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ظن أن صاحبه لا يأذن له بالدخول ثم عاد فدخل حين علم برغبته في دخوله، وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أن يعاقب مع رفاقه على مطيته فيركب حيناً ويمشى حيناً، وكان يردف عليها. ويروى جابر أنه صلى الله عليه وسلم كان يتخلف في السير فيزجى الضعيف ويردف ويدعو لهم. وذات يوم كان في سفر مع أصحابه ولما أرادوا إعداد الطعام تقاسموا العمل بينهم فقام صلى الله عليه وسلم بجمع الحطب وأبى أن يقوم أحد عنه بذلك.

ومن صفاته الأخلاقية صلى الله عليه وسلم أنه كان يبدأ الناس بالسلام، وإذا تحدث إلى أحد انصرف إليه بكله، وإذا صافح أحدهم لم يبدأ بسحب يده، يجلس حيث ينتهى به المجلس، يرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه وأهله. ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين.

ولا غرابة في شيء من ذلك فهو قدوة المؤمنين والمثل الأعلى للأخلاق التي يحب الله أن يتحلى بهـا المجتمع الإسلامي. وهو الذي يقول (إن أحبكم إليّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً) ويقول: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر) وحسبه مدح ربه له بقوله الحكيم: **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**، **﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾**.

**رحمته صلى الله عليه وسلم:**

وصف الله تعـالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقـال: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعـالمين﴾** وأنـه **﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** فكان صلى الله عليه وسلم يقول: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) (لا تُنزع الرحمة إلا من شقي) وقد وصف نفسه فقال صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا رحمة مهداة) وقد تجلت هذه الميزة في أفعـالـه صلى الله عليه وسلم جميعـاً، لـم يعامل بها أصحابه وأقرباءه وحدهم، بل شمل بها الصديق والعدو والحيوان والإنسان، وهو بذلك يخالف عادة العرب الذين نشأ فيهم وعاصروه، إذ كانت الجفوة والقسوة أبرز أخلاقهم، حتى إن أحدهم رأى ذات مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الحسين فاستغرب ذلك وقـال: إن لي عشـرة أولاد ما قبلت أحـداً منهم. وقـال له أعـرابي آخر أتقبلون الصبيان؟!. فما نقبلهم. فقال صلى الله عليه وسلم: (أو أملك لك أن نزعَ الله من قلبك الرحمة) ورأى صلى الله عليه وسلم مرة حُمَّرة ترف.. فقال: (من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها).

ومن رأفته بالحيوان قوله صلى الله عليه وسلم: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض) وسئل مرة يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: (في كل كبد رطبة أجر).

وقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحفاوة بالمساكين، ومن قوله فيهم (ابغوني ضعفاءكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم). ولذلك أحبه الضعفاء والأرقاء حباً عجيباً، حتى أن مملوكه زيد بن حارثة آثره على والده، وقد رُوي عن أنس رضي

الله عنه أنه قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أفٍ قط).

وسئل مرة أن يلعن أعداءه فقال (ما جئت لعَّاناً بل رحمة) وقد أصيب أعداؤه في مكة بعض السنين بضيق وجدب فأرسل إليهم بمعونة كريمة. وهم الذين أخرجوه وآذوه وعذبوا أصحابه، وما كانوا ليدخروا وسعاً في سبيل إيذائه.

وبعد فهذه أمثلة يسيرة من أخلاق سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم وهى قطرات من بحر لا سبيل إلى استيعابه في صفحات قليلة.. وهى على غرابتها بالنسبة إلى المألوف، لا تُستغرب من إنسان اصطفاه الله ليكون رحمة للعالمين، وأسوة للمتقين، والأنموذج الأمثل للعبد الرباني الذي يمثل بسلوكه الأعلى أخلاق القرآن العظيم.

ونحن حين نعرض لهذه الأمثلة من أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم لا ننسى أن أول واجباتنا نحوها هو التقرب منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، واتخاذها القدوة المثلى لسلوكنا أفراداً وجماعات، في وقت أصبحت الأخلاق الفاضلة فيه غريبة مستغربة، وبذلك نعيد للمجتمع الإسلامي مميزاته الفضلى وصفاته المثلى، التي بها جعل الله المسلمين الأولين (خير أمة أخرجت للناس..) ويومئذ نكون قد حققنا في أنفسنا ما أحبه الله لنا، وما دعانا لتطبيقه في قوله الخالد: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة﴾.

# المعركة الأبدية بين الاسلام والجاهلية

(نقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية. . )

بهذه العبارة الجامعة المانعة يطرح الفاروق العبقري رضي الله عنه نظرية كاملة في أصول التربية الإسلامية، فهو يفرق بين امرىء وجد نفسه في بيئة مسلمة فمضى على سَنَنِها لا يعرف شيئاً خارج نطاقه، وآخر أضاف إلى معلوماته الإسلامية إلماماً وافياً بخصائص الحياة الجاهلية. .

فبينما نجد الثاني يُدرك بملكته الإيمانية أدق الفروق بين نور الإسلام وعتمة الجاهلية فيرفضها بطبعه، ولا يفارق الحذر من تسرباتها. . نرى الأول معرَّضاً لمغرياتها الخفية لا يكاد يميز بين أصيل الإسلام ودخيل الجاهلية، فيختلط عليه الأمران حتى ليجمع بين الخلقين في آن. .

وقد شاء الله جلت حكمته أن يستمر وجود الخصمين أبداً في هذه الأرض، فمنذ أخرج الله آدم وزوجه من الجنة، أهبط معهما الشيطان الذي استزلَّهما، قائلاً للفريقين: ﴿اهبطا منها جميعا بعضكم لبعضٍ عدو. .﴾

ومن هنا كان الصراع الأبدي بين الخير، ممثلاً في رسالة الأنبياء، والشر الذي أعلنه الشيطان وذريته على بني الإنسان، فكلما تخلى فريق الإيمان عن مسئوليته وسلاحه، قفز جنود الفساد إلى مواقعه، فأحدثوا الاضطراب، ونشروا الاختلال، إلى أن يستيقظ أهل الحق فينظموا صفوفهم، ويستأنفوا زحفهم. .

والواقع الذي لا مناص من معرفته هو أن للإسلام ميزة الثبات على أصوله الإلٓهية لأنه قائم على ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ وهي لا تقبل التبديل ولا التغير، مهما تكاثرت الوسائل والمحاولات، فلا استقرار ولا اطمئنان إلا في ظلال الإيمان،

والاَّ في التزام سبيل الله الذي هو إسلام الوجه والجوارح إليه سبحانه . . على حين يستمر الشيطان في تطوير موبقاته، فلا يستنكف عن استخدام أخس الوسائل لإنفاذ موعوده من إفساد الحياة على أبناء آدم . فهو يتعهد المضللين بألوان الشهوات التي تتخذ كل يوم وفي كل مرحلة أشكالاً جديدة، ويتسلل إلى الطيبين عن طريق المغالاة، التي لا تزال بهم حتى تباعد بينهم وبين معالم الهدى، الذي عيَّن لهم طريق النجاة من الضلال والشقاء، والاستقرار الذي لا خوف معه ولا حزن، تحقيقاً لوعد الله الحق الذي زوَّد به عباده حين قال لهم : **﴿فإما يأتينَّكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾** .

ولقد أحرز الشيطان أول انتصاراته على الأرض يوم استطاع التسلل إلى غريزة الطموح في نفس قابيل فحوَّلها إلى تيار من الحسد والحقد على أخيه، ثم لم يزل ينفخ فيها حتى دفعته إلى قتل ذلك البريء . . ثم تتابعت انتصاراته فكان من أهمها إفساد التصورات البشرية الذي فسح المجال لكل المغريات الإبليسية . فعن هذا الطريق جاءت الإنحرافات التي زينت للطيبين الأولين تغيير دين الله بإقامة التماثيل للصالحين، إذ بدأت تقديراً لذكرياتهم، وتذكيراً بفضائلهم، ثم انتهت بعبادتهم واتخاذهم شفعاء ليقربوهم بزعمهم إلى الله زلفى . . وعن الطريق نفسه جاءت العصبيات العمياء التي مزقت وشائج الأسرة البشرية، فقسمت الناس فِرقاً يقتل بعضهم بعضاً في طاعة الشيطان، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . .

وعن هذا الطريق تدسست مفاسد الأمم إلى صميم المجتمع الإسلامي ـ بعد الفتوح الأولى ـ فشقت المنافذ لتسرب الأفكار الوثنية إلى عقول البسطاء من المسلمين، فإذا هناك فرق يكاد يخطئها العد، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون . . وتتدفق على ذلك المجتمع فنون المضلات ـ التي دمرت طاقات الأمم السابقة ـ فلا تلبث أن تحتل قلوب الناس وعقولهم، فتصطبغ بها عاداتهم وسلوكهم، وتستحوذ على بيوتهم، وما هي إلا أيام وليال حتى تصير جزءاً من كيانهم لا يستطيعون عنه فكاكاً، يستوى في ذلك عامة القوم وخاصتهم، إلا من رحم الله،

ثم كان عاقبة ذلك هو المصير الذي لا مندوحة عنه، وهو تضعضع البنيان الاجتماعي، وفقدان المسلمين عوامل التفوق والقوة، التي لا بقاء لها إلا بالتزام الإسلام نظاماً وسلوكاً وتربية . . فحق في ذلك المجتمع قوله تعالى في بني إسرائيل من قبل: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**.

**مصلحون ومفسدون :**

تلك صور موجزة مكثفة لمسيرة المجتمع الإسلامي منذ أيامه الأولى حتى العهد الراهن. يبدأ ربانياً خالصاً محصَّناً من سموم الجاهليات على اختلافها، وبذلك طويت له الأرض، وانقادت له الشعوب، إذ كان بمثابة النور في الظلام، والدم الجديد يأخذ سبيله إلى شرايين الإنسانية التي حطمتها الآفات . .

بيد أن هذا المجتمع لم يلبث ان استهوته بهارج تلك الشعوب فشغل بها عن مهمته في تقويم عوجها، وردها إلى ربها، وفعلت به تلك السفاسف ما فعلت في ذويها من قبل، فجردته من إمكاناته الخارقة، فما عتم ان غدا نهباً للعادين والعاديات، حتى لقد عجز أخيراً عن حماية نفسه وأرضه، بعد أن فقد القدرة على الانتشار في جوانب الأرض التي تهيأت لاستقباله، ولعل الشبه أتم ما يكون بين هذا المجتمع وذلك الملك الذي يقال ان جراثيم غريبة لوثت مياه بلده، فأصابت ناسه بالجنون، وبقي هو العاقل الوحيد فيهم، ولكنه لم يستطع الصبر على انفراده بالعقل، وأقبل أخيراً على الماء الملوث يعبُّ منه حتى استوى مع القوم في جنونهم . .

ولقد وصف الله تبارك اسمه حياة الناس على هذه الأرض فقال: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** . . فالحياة إذن معركة أبدية بين الناس، فصالحون يصارعون للحفاظ على السلامة العامة، ومفسدون صمموا على تخريب صمامات الأمان، فلا أسعد لنفوسهم المشوَّهة من إشاعة الضلال، وإطفاء نور الله، حتى لا يتبين الناس طريقهم بين أسداف الظلام. ولكل من الفريقين منطقه

الذي منه ينطلقون. أما الصالحون فإنما عرفوا سبيلهم في ضوء الوحي الذي حدَّد لهم مهمتهم ومسارهم، فاستيقنوا أنهم أمناء الله على دعوته، لا يفتؤون يذكّرون بها إخوتهم في الآدمية، ويجاهدون لاستبقائها متوهجةً على مرّ القرون.. ومن أجل ذلك يحرصون أبداً على التزام سبيلها والاستضاءة بنورها، فلا يسمحون لجنود الظلام بالتسلل إلى مواقعهم، ولا لسمومهم بالنفاذ إلى كيانهم، مهما بالغوا في تزويقها وتغليفها بألوان المغريات. وأما المفسدون في الأرض فقد ادركوا عجز وسائلهم عن استئصال روح الإيمان من قلوب أهله فرضوا بالالتفاف حوله، وراحوا يبذلون جهودهم لإقناع المؤمنين بتبادل المنافع فيما بينهم، فيشارك كل منهم الآخر ببعض ما عنده من المقومات، تماماً كما فعل مشركو مكة حين دعوا رسول الله ﷺ للتهادن على أن يعبد آلهتهم عاماً ويعبدوا إلهه عاماً. فجاءه الجواب من ربه براءة كليةً من ضلالاتهم، وتوكيداً أبدياً للتشبث بمبدأ التوحيد الخالص: **﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾**.

**لا سلام إلا بالإسلام:**

ولكي نشرف على الوضع الذي يشار إليه بكلمة الجاهلية في قول الله سبحانه **﴿أفحكمَ الجاهلية يبغون..﴾** وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قاتل تحت راية عمّية.. فقتل فقتلته جاهلية)[1] يحسن بنا أن ننعم الفكر في خطبة جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي، حين سأله عن أمر المهاجرين فقال: (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف).[2]

فهاهنا خطوط تحدّد واقع الجاهلية كما أدركها صحابي جليل عاشها رَدَحاً من الزمان، ثم هداه الله للإسلام. وقد اكتفى من صفاتها بالأسس التي عليها يقوم

---

(١) من حديث لمسلم والنسائي.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٠ مكتبة الكليات الازهرية.

كيانها كله، وأولى هذه الصفات انحراف الفطرة عن عبادة الله، الذي منحها الوجود وأحاطها بجليل النعم ودقيقها، إلى عبادة حجارة نحتها الإنسان بيده، ثم راح يوليها التمجيد، ويستمد منها النفع والضر.. فكان ذلك الانحراف منطلقه إلى سائر جوانب الحياة، إذ صرف عينيه عن نور الله فمضى يخبط في ظلمات تستتبع ظلمات، وإذا هو لا يفرق أخيراً بين الطيب والخبيث ولا يميز بين الفساد والسداد، حتى استحالت الحياة بهذا الانحراف غاباً رهيباً لا يرحم فيه الإنسان قريباً، ولا يوقر جاراً، ولا يعرف للضعيف حقاً، وإنما هي قوة الظفر والناب، من ملكها ملك حق التصرف في كل ما يريد دون منازع..

وكان طبيعياً أن يقرن خطيب المهاجرين - رضى الله عنه - بين هذه الصورة الكالحة، التي لخص بها ضلالات الجاهلية، وبين الأفق المشرق الذي انتقلوا إليه بتوفيق الله، وذلك في وصفه معالم الرسالة الجديدة، التي صدمت المسيرة الخاطئة فردتها إلى الطريق القويم: (**فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. فصدقناه وأمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا..**)[1].

وقد بدأ الحديث عن الإسلام بالتركيز على شخصية صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم من حيث منبته ونشأته الجامعة لأصول الفضائل التى تنزهه عن كل شائبة، ثم مضى يعدد للنجاشي خصائص هذا الدين، وفي رأسها تحرير النفس المؤمنة من كل عبادة لغير الله، ومن ثم تحصينها من نزغات الشياطين بالعواصم التى تؤهل هذه النفس لتمثيل الحقائق الإسلامية في نماذج حية تقيم حجة الله، وتدعو إليه على بصيرة.. لتعود بالإنسانية الى نور ربها الذي شردت عنه طويلاً،

(١) المرجع السابق.

فتنعم بالسلام الحق الذي لا سبيل إليه إلا عن طريق القيم الإسلامية من الصدق والأمانـة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن كل مفاسد الجاهلية المخربة للحياة الإنسانية.

**الركـب الغريـق :**

وعلى ضوء هذا التحديد الدقيق لكلا الاتجاهين يمكن القول بأن الحد الفاصل بين الجاهلية والإسلام، هو أن الجاهلية انحدار بالنفس البشرية من منطقة النور إلى متاهات الظلمة، على حين يمثل الإسلام عودة هذا الشريد إلى حقيقته التي فصل عنها. وطبيعي أن يكون لكل من الاتجاهين خصائصه الذاتية والتأثرية، ففي المضـطرب الجـاهلي يأخـذ التصـرف البشـري طابع النفعية العابرة، الخاضعة لتقلبات المصالح والأهواء، فلا يعرف السبيل إلى الاستقرار الآمن، لأن تصادم المصالح صائر به إلى التصارع المستمر، وهذا بدوره منتهٍ إلى تحكيم القوة، ولا سبيل إلى ثبات القوة في حيز معين. . وهكذا يتواصل التنازع على مراكز التحكم حتى تستحيل الحياة نفسهـا ملحمة هائلة، لا يسلم من شرها جاهل ولا عاقل. وبقليل من التأمل في حياة الشعوب المعاصرة في كل زمان ومكان ودون استثناء يبرز هذا الواقع للمفكر البصير، حيث يرى الجميع أشبه بركب في سفينة دهمتها الزوابع فمزقت أشرعتها، وحطمت ألواحها، وبعثرت أفرادها على كل صاخب من الموج، فليس ثمة من يعي شيئاً غير ما يعانيه هو، فبين يائس يتعجل نهايته للخلاص من آلامه وأوهامه، وآخر يكافح للحصول على خشبةٍ يستعين بها للتغلب على الأخطار المحدقة به.

أجـل تلك حال المجتمعـات البشرية في واقعها المشاهد، وقد أخفقت كل محاولات المصلحين للتخفيف من آثاره على الأفراد والجماعات. وليست موجة العنف التي تتفجر في الشرق والغرب، وتنشر الرعب هنا وهناك وهنالك، وليس إقبـال الشباب الشارد في متاهات الحضارات المادية، على سموم المخدرات، وعلى فنون اللهو الهابط، وعلى التمرغ في أوحال الفجور المدمِّر، سوى التعبير

الصارخ عن مفاسد الأنظمة البشرية التي لا تزيد ذلك الواقع إلا سوءاً على سوء، بل ليس ذلك الضياع الغامر إلا واحداً من الأدلة الحاسمة على أن هذا القطيع البشري قد ضُلّل حتى صُرف عن طريقه الآمن. . وبدلاً من أن تتضافر جهود أصحاب الطاقات العقلية لإعادته إلى مأمنه اتخذوا من هذا المسكين مختبراً للتجارب العقيمة، فكثرت المحاولات، وتعددت النظريات، وتضاربت الأفكار، وتولد عن ذلك ضروب من النظم السياسية والاجتماعية، ولكل منها فلسفته المباينة لغيرها، ثم لم تلبث إلا قليلاً من عمر الحياة حتى تكشفت مثالبها جميعاً، وأعلنت الأحداث إفلاسها كلها، فهي تترنح تحت أعباء الاخطاء دون أن يفكر أصحابها بالبحث عن المخرج الصحيح.

**أنعام بشرية :**

إنها المأساة نفسها التي واجهها الإسلام يوم بعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وقد تبينا صورها كاملة في كلمات أحد تلاميذها. ولئن تفاوتت ملامح الجاهلية بين ما رأيناه في وصف جعفر، وما نشاهده اليوم، فأنما مرد ذلك إلى تطور الخطط الشيطانية التي استخدمت كل مكاسب العقل والتكنولوجية لتزيين الباطل والتعتيم على طريق الحق. ولقد أخذنا العلم بذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي نقل إلينا وعيد العدو الألدّ بقوله لرب العزة: ﴿**لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً. ولأضلنَّهم، ولأمنّينَّهم، ولآمرنهم فليبتكُنَّ آذان الأنعام، ولآمرنَّهم فَلَيُغَيّرُنَّ خلق الله**﴾ فهو ـ لعنه الله ـ يؤكد بالأيمان المغلَّظة تصميمه على أن يكون له في عباد الله قسم معين يقتطعهم لمتابعته، ويتعهد إفسادهم بكل الوسائل المتاحة، حتى ليجعلهم يقفون بعض أنعامهم لتكرمة الأصنام التي يغريهم بعبادتها، وحتى ليتسلل إلى فِطرهم النقية فيشوهها ويصرفها عن سبيلها المطبوع. . وهو انما حدد مطامعه في قسم من عباد الله دون كلهم، لما علمه من طبيعة العناصر التي صُنع منها الجنس البشري فكان منها القابل للهبوط إلى أدنى الدركات، وكان منها الصالح

للتسامي إلى أعلى الدرجات، وقد يئس من إمكان التأثير في أولى الوعى منهم فأعلن عجزه عن إفسادهم باستثنائه إياهم في قوله إذ ذاك: **﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾**[٢] وفي استثنائه المخلصين استثناء آخر لغيرهم ممن لا يملكون مثل عزائمهم القاهرة له، بل يستسلمون لدواعي السقوط جرياً وراء الأدنى من الرغبات، فعلى هؤلاء يُعوّل في معركته مع الجنس الذي ميزه الله بتكرمته، فأثار بذلك حسده ودفعه إلى اقتراف أول معصية عرفها تاريخ الخلق، بمخالفة أمر ربه بالسجود لآدم مع الملأ الأعلى.

وعلى الرغم من التطور الكبير الذي طرأ على شكل حياة الإنسان منذ زيَّن له الشيطان اتخاذ الأصنام، وشق آذان الأنعام إعلاماً بوقفها علىَ تلك المنحوتات، لا يزال جنوده المضللون ملتزمين هذه البدعة الخبيثة، وليس ذلك في مئات الملايين من الهنود فحسب، الذين يخصون الملايين من البقر بتقديسهم، فَيَدَعون لها أن تعيث في زروعهم فساداً، دون أن يمدوا إليها يداً إلا حين تلقي بخِثْيها فيمسحون به وجوههم ورؤوسهم تبركاً، أو حين تدفع بأبوالها فيشربونها تداوياً وتشرفاً. على حين يموت منهم الملايين جوعاً كل عام وهم ينظرون إلى لحومها المتراكمة على حساب شقائهم، إيثاراً لمرضاة الشيطان الذي أمرهم بذلك فأطاعوه، ورفضوا نعمة الرحمن الذي أمدهم بأصناف المغذيات من اللحوم والنباتات.

أجل. ليس ذلك في عالم الهنود من عبدة البقر والقرود والثعابين فحسب، بل كثيراً ما نشهد بعض ظواهره في أوساط المسلمين أنفسهم، حيث تُعلف العجول وتحبس على أسماء البدوي والرفاعي وإخوانهما من سكان القبور، وحيث تُسيَّب الدِّيكةُ فداءً عن المرضى فلا يدنو منها أحد استمساكاً بمواريث الوثنيات الجاهلية من السائبة والوصيلة وما إليهما.

ولعلنا لا نبعد عن الواقع إذا أضفنا إلى هاتيك الأنعام، التي حوَّل الشيطان وظيفتها من خدمة الإنسان إلى استخدامه، ما استطاع الماكر الخبيث أن يجنده لمعركته في أوساط النساء، حيث حول مهمة الكثيرات من تربية الأجيال، ونشر

الطمأنينة، وتأصيل المودة والرحمة الى تدمير هذه المقوّمات الأساسية. حيث أغراهن بالتحرر من نطاق الأسرة، والانطلاق وراء الشهوات، فاستحالت بهن الحياة متاهة عمياء لا يكاد الضارب في مفاوزها يلمح ظلاً يستريح إليه.

**القطعان المروَّعة:**

وهكذا صرف الشيطان أشياعه عن التوجه إلى ربهم الرحيم الحكيم، نحو أرباب من الجمادات صنعوها فعبدوها، وساقوا إليها ما هم في أمس الحاجة إليه من نِعَم الخالق الكريم. وها هو ذا اليوم يختلق لهم آلهةً والإهات، فإلى جانب بوذا وكريشنة وعشتروت وفشنو.. واللات والعزى وودّ وسواع، تقوم معبودات جديدة باسم الفن والموسيقى والباليه والجاز والروك اندرول.. وعشرات الآلهة الأخرى..

وقد علم الخبيث المكار بخبرته الطويلة ألاَّ بد من دعم هذه الآلهة المحدثة بالوسائل المثيرة والمؤثرة، فكانت المرأة الغاوية هي أفعل ذرائعه للتوكيد على عبادة هذه الأصنام، بل والايغال في العبودية لها.. وهكذا يستبدل بالأنعام الحيوانية أنعاماً بشرية ولكن بدلاً من أن يُبَتِّك آذانها للتفرقة بينها وبين بنات جنسها، يكتفى بتجريدها من مميزاتها الأنثوية، ثم يطلقُها لإفساد الحياة البشرية بضروب المنكرات، ومن ثَم يدفع جنوده من المضلِلين والمضلَّلين لتسليط الأضواء عليها وإحاطتها بكل المغريات، ايهاماً للناظرين والسامعين بأنها الأنموذج الأقصى للتقدمية المنشودة!.

أمَّا إنذار الملعون باعتزامه تغيير خلق الله فقد استطاع تنفيذه في مالا يحصى من التجارب، سواء في الأشكال الظاهرة أو في السرائر الباطنة، ولا ريب أن أخطر أضاليله إنما انصبت على أعماق الفطرة، التي استطاع أن يخربها، فيفسد قدرتها على الرؤية السليمة، وليس كل ما تعانيه إنسانية اليوم من قلق وشقاء وضياع إلا ترجمة حيَّةً لهذا الخلل الذي بثه في صميم الفطرة، فزلزل تصوراتها للحقائق، حتى لتبصر الشيء علي غير واقعه، ثم تصدر عليه أحكامها من زاوية الخلل فإذا ما تبين خطؤها أخيراً، راحت تلتمس التصحيح في خطأ آخر فآخر، إلى أن تيأس

من السـداد فتـرمى الـوجـود كله بالخطأ، ثم لا ترى إلا أن تفر من هذا المأزق باستعجـال النهاية إما بالانتحار أو باللجؤ إلى تدمير ما تبقى من وعيها في براثن المسكرات والمخدرات.

وهكذا استحالت المجتمعات البشرية، التي خُلِقت لعمران الأرض، أو كما يقـول علماء الكونيات، لتشييد ملكوت الله على الأرض، استحالت الى قطعان مروعـة يطأ بعضهـا بعضاً، فالأرض بهذا الصراع المجنون كسجن كبير ضاعت مفاتيحه، وشبت في أطرافه النار، وليس بين نزلائه رجل رشيد.

**الطائفـة الظاهـرة :**

على أن من رحمة الله بهذه الإنسانية أنه لم يتخل عن هدايتها قط، فما عمت الظلمات بقعة إلا تداركها بالنور الذي لا يزيغ عنه إلا هالك، يحمل مشاعله أنبياء أطهار، أو مصلحون من أتباعهم أبرار. وهذا تاريخ الإسلام منذ مبعث خاتم النبيين حتى السـاعة يؤكد هذه الحقيقة بأجلى بيان، إذ يرينا العقبات تُقذف في طريق الـدعوة لتقف مسيرتها، ولتخلي مكانها لشياطين الجن والإنس، حتى إذا توهم هؤلاء أنهم أصبحوا سادة الموقف واجهتهم الحقيقة الربانية على لسان أمام من أهل الإسلام، لا يلبث أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ويقيم على أهله حجة الله. . وعلى هذا السَّنن المعهـود نشـاهـد اليوم الفئـة الوارثة لأنوار النبوة تنبري لمجابهة التيارات الشيطانية على الطريقة التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك).[١]

هذه الطائفة القائمة بأمانة الله لا يكاد يخلو منها بلد أو إقليم. . فأنت تراها في مصر تعلن كلمة الله بوجه الطغيان الذي لم يدَّخر وسعاً في مكافحتها، ومحاولة اسكاتها عن باطله، فلم تزدد إلا امتداداً وجهاداً. وتراها في القارة الهندية صامدة بوجـه المؤامرات التي تريد إطفاء نور الله، فلا تزداد على الارهاب الوحشي الا

انطلاقاً واستباقا وتألقا.

وهكذا شأنها في الشام والعراق وأفريقية على امتدادها واختلاف أسمائها، وفي تركية التي يتكالب عليها الغرب الصليبي واليهودي، والشرق الماركسي. . وحتى في قلب الاتحاد السوفيتي والصين وأرجاء الشرق الأقصى، حيث واجه ويواجه دين الله أشرس حملات الإبادة الجماعية. .

في كل هذه الأرجاء من دنيا البشر تقف هذه الطائفة معلنةً شهادة الله على أهل الأرض بالبينات التي لا يرفضها عقل ولا يعذر بالإعراض عنها إنسان يحترم نفسه، ثم بالتضحيات التي تنوء بحملها الجبال.

إن هذا الصمود الفائق لكل تصور ـ خارج تصور المؤمنين ـ قد بدأ يقرع رؤوس الطواغيت الذين يقودون جبهة الكفر، في الشرق والغرب، وفي صميم الوطن الإسلامي حيث استطاعوا أن يزرعوا أعشابهم السامة بأيدي عملائهم الذين سلخوهم من هويتهم، ثم سلَّحوهم بأحدث أدوات الفتك والتخريب، للقضاء على كل منفذ يتوقع أن يتسرب منه نور الله، ولاستئصال كل جماعة تجرؤ على الدعوة إليه.

أجل. . لقد استيقظ هؤلاء على مواكب البعث الإسلامي الجديد يزحف من كل صوب لتدمير قلاع الظلم والبغى، لا ترهبها فنون التعذيب الذي حشدوا له أشرس الخبراء، ولا تُروّعها السجون التي حفروها في أعماق الأرض، حيث يستوى في أعين نزلائها الليل والنهار.

بيد أن هؤلاء الطواغيت من أئمة الكفر، وأذنابهم من أولئك الذين غسلت أدمغتهم وقلوبهم من آثار الإيمان، فكانوا مخالبهم التى تفتك، وأنيابهم التي تنهش، وسياطهم التي تلسع، لم ينتفعوا بتجاربهم اليومية في مواجهة هذه الطلائع الصابرة، وبدلاً من أن يراجعوا حسابهم فينعموا الفكر في البواعث الدافعة الى هذا الصمود العجيب، بدلاً من ذلك جعلوا يعلنون عزمهم على (تصفية) القائمين بهذه الدعوة مهما اقتضاهم الأمر من حمامات للدم، واشاعة للرَّوع، ونشر لروح

الكـراهية، ولـو أنهم بقيت لهم مسكـة من الوعي لم ينسوا الدروس التي تلقاها أسـلافهم أثنـاء مجابهاتهم زحوف الدعوة الإسلامية، وليس على المظلومين من عباده إلا أن يثوبوا إليه، ويشمروا للتضحية التي حثهم عليها، حتي يوافيهم بالنصر الذي ادَّخره لكل المجاهدين في سبيله منذ قال سبحانه في شأنهم: ﴿**وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخْلِفَنَّهم في الأرض كما استخلف الذين مِن قبلهم، ولَيمَكِنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ولَيُبَدِّلَنهم من بعدِ خوفهم أمنا**﴾[1]

**إيـمان وعمـل:**

ويستـوقفني في هذه الآية المبشـرة ذلـك الإطـلاق الذي يبرز الفئة الموعودة بالاستخلاف غيرَ مقيدة بجنسيةٍ إلا صفةَ الإيمان والعمل الصالح، وهذا يعني أن كل النـاس من كل الشعـوب مرشحـون لهذا الاستخلاف إذا توافرت فيهم تلك الصفة، وهى الهُوية العالمية التي ترد الإنسانية إلى أخُوتها الأصلية، التي أتلفتها العصبيات الجاهلية، فجعلت من الإنسان عدواً لأخيه، يستبيح دمه وماله وعرضه.

أما الإيمان فهو أعمق السمات المغروزة في ضمير الإنسان، تنمو معه طوال رحلة العمر، وهي تشدُّه أبداً إلى خالقه كلما أحاطت به نائبة. أو استشعر الحاجة إلى عون غير منظور. ولكنها قد تصطدم بالعقبات المصطنعة فتترنح على غير هدىً، كالإبرة المغناطيسية حين تخضُها فيضطرب اتجاهها، بيد أنها ما إن تستعيد الهدوء حتى تأخذ سمتها في الاتجاه الصحيح.

ورأس الأمر وعموده في دعوة الطائفة القائمة على أمانة الله تذكير إخوتها من أبناء آدم بربهم الذي نسوه في غمرة الشحناء والمطامع، ليرجعوا إلى كنفه في توبة نصوح تغسل أوضارهم، وتضع عنهم أوزارهم التي طالما أخضعتهم لألوان من العبوديات المذلة.. وتلك أولى الخطوات الرشيدة في الاتجاه السليم.

---

غير أن الإيمان وحده لا يوفر لصاحبه أسباب الأمان من الزلل إذا لم يصحبه التوجيه الإلّهي الذي يحدد له معالم الطريق، فلا يُخدع بالمغريات التي يُلبس بها الشيطان على الغافلين، حين يعرض عليهم الباطل في حلية الحق. . ولذلك كان من تمام الحكمة أن القرآن العظيم لم يذكر الإيمان قط إلا مقروناً بالعمل الصالح، ليكونا بمثابة الجناحين اللذين يحلق بهما الإنسان، فرْداً ومجتمعاً ودولة، نحو الأعلى فالأعلى من كل تصرف.

وقد علمنا أن الإيمان يعين الوجهة فقط، ولا يحدد أشكال العمل الصالح. ولا يصح الاعتماد على العقل في تحديدها لأنه لا يستطيع التخلص من سيطرة العادات الاجتماعية والمواريث البيئية، التي كثيراً ما تقود الفرد إلى الفاسد من الأعمال فيمارسها وهو يحسب أنها الخير كله. . وإلا فكيف تفسر استمساك غاندي بالوثنيات الهندية، وهو الذي تغلب بتفكيره الكبير على جيوش انجلترة ودهائها. . وكيف تؤول التزام بعض كبار مفكري النصارى مبدأ التليث مع علمهم بأنه من أشد مواريث الوثنيات عراقة!. . هذا إلى أن الحكم على الشيء بالخيرية أو ضدها يقتضي، وبخاصة في القضايا الكبرى، الإلمام بعشرات الأسباب والملابسات الماضية والمستقبلية، وهو أمر يعجز العقل بطبيعته عن تصوره فضلاً عن الإحاطة به. . يضاف إلى ذلك أن تجريد التفكير من مؤثرات البيئة والعادات شأن غير معقول أصلا، لأن التفكير الحر من أثقل الأعباء التي يتعرض لها العقل. . ومن هنا كان الاندفاع في تيار التقليد هو ديدنَ الناس إلا من رحم الله وقليل ما هم. وقد فسر لنا هذا الواقع الصحابيُّ الداهية عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ حين قال له بعض إخوانه: (رجل في مثل عقلك يتلكأ في قبول الإسلام؟) فأجاب: (لقد كنا نرى لآبائنا عقولاً تزن الجبال فاكتفينا بما يرون لأنفسهم ولنا ولم نكلف أنفسنا التفكير في دعوة رسول الله، حتى إذا زالوا رجعنا إلى أنفسنا فعرفنا الحق فاتبعناه. .) وطبيعي أن ليس كل الناس في مثل دهاء عمرو وبعد نظره ونفاذ بصيرته. .

وعلى هذا فـ (العملُ الصالح) في التعبير القرآني إنما هو نوع من الاصطلاح الإسلامي تحدده التعاليم الإلّهية المبثوثة في كتاب الله، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى هذا يشير نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[1] ففي هذا الحديث الجامع حكم مطلق بأن للمسلمين نظاماً كاملاً لم يغفل صغيرة ولا كبيرة من شئون الدنيا والدين، وأن على المؤمنين أن يعرضوا تصرفاتهم عليه، فما وافق أصلاً من أصوله فحسن، وما خالفه فمردود لا مسوّغ لقبوله.

**حيـاة جـديدة :**

وإذن فمهمة الطائفة المَهدِيَّة هي دعوة الناس جميعاً للعودة إلى ربهم، والالتزام بشـريعته التي ختم بها رسالاته إلى الثقلين، وهي حين تنهض بهذه الدعوة إنما يحفزها إلى ذلك دافعان أحدهما القيام بأمر الله، الذي حتم على كل مؤمن أن يكـون عامـلاً بدينه داعية له، والثاني رغبة صميمة في إنقاذ التائهين من اخوتها بهدايتهم إلى الطريق الأقوم.. وهي على أتم اليقين بأن مجرد استجابة الناس لهذه الدعوة سيؤدي بهم إلى الأمن الذي لا يحلمون به، كشأن الضرير الذي لم يلمح النـور قط، ثم أتيح له طبيب حاذق أجـرى له جراحة ناجحة فإذا هو مبصر بعد العمى، يحس أن كل ما يراه يسبح معه بحمد ربه الذي كشف له الحجاب عن كل هذا الجمال.

ولقد واجهتُ مثل هذه المشاعر السعيدة في العديد من المرات، كانت إحداها أثناء لقائي مع بعض الرجال ممن سبقت لهم الحسنى، فهداهم الله إلى الإسلام، بعد أن كانوا غائصين في ظلمات المرشدية طوال العشرات من السنين[1] كان كل شيء في حياتهم الجديدة ينم عن غبطة لا حد لها بهذا النور الذي أضاء وجودهم. وأنـك لتحس من خلال أحـاديثهم العفوية استعدادهم لبذل كل شيء في سبيل

---

(١) البخاري ـ كتاب الاعتصام.

(١) نحلة منسوبة الى سليمان المرشد الذى ادعى الالوهية في جبال اللاذقية بدعم من الفرنسيين.

هداية الآخرين إلى مثل ما اهتدوا إليه. وحدثني الرجل الثقة الحاج بكور الذي كان إسلام تلك الآلاف من أهالي شين[٢] على يده أنه شهدهم إذا سمعوا الأذان تركوا أعمالهم ومضوا إلى المسجد الذي بناه لهم وهم يبكون من السرور ويرددون:

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

وقبل أيام استقبلنا في المدينة قرابة المئة من الأمريكيين في طريقهم لأداء فريضة الحج، بعد أن هداهم الله إلى الإسلام، وفيهم الأبيض والأسود، ومنهم عشرون امرأة يملأن القلوب بهجة بزيّهن الإسلامي المهيب.. وقد حدثنا المعرِّف بهم، وهو مهندس سوري من مدينة حماة، أن تلاميذه هؤلاء بلغوا مستوى رفيعاً في تمثل المعاني الإسلامية، وأن لهم نشاطاً طيباً في الدعوة إلى دين الله عن طريق القدوة والمعرفة.

ومثل هؤلاء وأولئك عرفنا من الألمان والفرنسيين وآخرين من مختلف الجنسيات، وقد قدموا إلى الجامعة الإسلامية ليتزودوا من علوم الشريعة والعربية بما يساعدهم على الإسهام في دعوة الضائعين إلى صراط العزيز الحكيم. ولقد أنهى بعضهم دراسته، وانطلق إلى بلاده ليسهم مع الجنود المجهولين في نشر هذا الخير بين ظهراني قومه.

ولا غرابة في ذلك فقد كان هؤلاء وأولئك قبل هذه النقلة الروحية في إسار تعاليم لا تجاوز الآذان والألسن، يسمعونها فيرددونها دون أن يستشعروا لها أي أثر في قلوبهم الظمأى.. بل إنهم ليحسون أن ثمة فجوة هائلة تفصل بينها وبينهم، فهم أما معرض عنها رافض لها، أو مستريح إليها بعامل الاستمرار، فهو معها بجسمه، ولكنه مفارق لها بروحه. ومن هنا كان ذلك الضياع الذي يستغرقهم في ظواهرهم أو قرارة أنفسهم. فلما قيض الله لهم من يبلغهم رسالته الحية لم يترددوا في الاستجابة إليها، فكانوا معها كالمولد السليم ما أن يمسه التيار الكهربي حتى تتفجر به الطاقات الكمينة حرارة وحركة ونوراً. وذلك هو المردود الطبيعي للتلاقي المباشر بين الدين الصحيح والفطرة التي أودعها الخالق قابلية التفاعل معه. وبهذا التفاعل

(٢) شين مجموعة من القرى في جبال تكلخ قرب حمص في بلاد الشام.

تبدأ الخطوة الأولى في طريق التغير الذي لا مندوحة عنه لتصحيح المسيرة الإنسانية.

**لم يبق إلا الإسلام :**

ومن العجائب الخوارق في هذا الدين أنه يضم في أحضانه أصناف البشر، فالفيلسوف وعالم المادة، والأديب، والشاعر، والمحدود الثقافة، والعامي الذي لا قدرة له على التفكير.. كل أولئك ينعمون تحت لوائه في انسجام لا نظير له، إذ كلٌّ منهم واجدٌ راحة نفسه في رياضه الناضرة أبداً. وقد فطن لهذه الحقيقة الكبيرة برناردشو، الفيلسوف الايرلندى الذي أحاط بروح عصره، واكتشف مواطن العجز في النُظُم التي تزعم أنها تحاول إصلاح العوج البشري فلا تزيده محاولاتها إلا ايغالاً في التعقيد، فقال: وقد راعه ما أدرك من روائع الاسلام: (**لو واجه محمد صلى الله عليه وسلم هذا العالم المضطرب لعرف كيف يتداركه بالعلاج الشافي**) ومن هذا المنطلق نظر إلى تطور العقل الأوروبي فرأى أنه بعد تحرره من سلطان الخرافة أصبح مؤهلاً لاعتناق الإسلام فقال: (**ما أرى إلا أن الإسلام سيكون دين أوربة بعد قرن واحد..**) إلا أنه ما لبث أن عاد فاستدرك على نفسه بعد عشرين سنة بقوله: (**كنت مخطئاً في تقديري، وها أنذا أرى الإسلام قد بدأ يشرق على اوروبة منذ اليوم**).

وفي محاضرة للمفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبى رحمه الله يتوقع أن يكون الثلث الأخير من القرن العشرين لصالح الإسلام وحده، ومن أدلته على ذلك أن كلًّا من الوثنية العالمية والمسيحية على اختلاف مذاهبها، والماركسية بعد إخفاق تجاربها، قد استنفد أغراضه بالنسبة إلى العقل البشري، فلم يعد في أي منها ما يُروي ظمأً، أو يحقق أملاً.. ولا حاجة لذكر اليهودية التي احتكرها الشعب المختار، واستحالت من دين أنزله الله إلى تلمود يحمل آراء الحاخامين المتضاربة، كما استحالت المسيحية بتوجيه اليهود أنفسهم من دينٍ إلّهي لتقويم عوج بني إسرائيل إلى مقررات يصدرها رجال الكنيسة!

ولو أن مالك بن نبي (تغمده الله برحمته) تأخر به الأجل إلى يومنا هذا لدعم آراءه ببعض الكتب التي أصدرها مؤخراً جماعة من لاهوتيي النصرانية ومفكريها في الغرب، وكلها شاهد على انتهاء كل دور لكل دين ما عدا هذا الإسلام، الذي تكفل الله بحفظه إلى أبد الأبد، ووعد بإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون والملحدون.

وأي شهادة على المسيحية المنسية أكبر من كتاب يؤلفه سبعة من أكابر علماء اللاهوت واساتذة الجامعات البريطانية، وفيه يعلنون (إن من غير المقبول بعد اليوم القول بألوهية المسيح، فهو لم يدّعِ ذلك قط، ولم يخرج عن كونه انساناً كريماً قد اختاره الله لتبليغ رسالته).

ويأتي كتاب (موريس بوكاي) لإتمام ما بدأ هؤلاء، إذ يؤكد تعرض الكتب المقدسة السابقة كلها للتحريف والتبديل، على حين يُريك الشواهد القاطعة على سلامة القرآن وثبوت مصدره الإلهي من خلال أنبائه وإشاراته، التي سبقت علوم البشر وكشوفهم بالعديد من القرون الأمر الذي لا يمكن أن يهتدي إليه عقل بشري في معزل عن وحى الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

**الإسلام هو المنقذ :**

ولنعد قليلاً إلى كلمة برناردشو في شأن الحل الإسلامي لمشكلات العالم.

مثل هذا المفكر المعروف بصراحته لا يحسن القول أنه يلقى بأحكامه لمجرد التنديد بالواقع الفاسد والإعجاب بالإسلام، بل لا بد أنه قد استوعب بعض حقائق هذا الدين على الوجه الصحيح، فأدرك صلاحيته للإنقاذ. وقد ساعده على ذلك كونه في قمة عصر الانفتاح، الذي أعقب زوال الحجر الكنسي عن عقول المفكرين في أوربة، وفسح المجال لترجمة الآثار الإسلامية وانتشارها في الأوساط الثقافية.. فهو بتوكيده على هذا الجانب انما يعبر عن اقتناعه بأن في النظام الإسلامي أفضل ما يتطلع إليه الضمير البشري من عوامل الخير والاستقرار.

ولا يستبعـد على مثل هذا الطُّلَعَةِ أن يكون قد وقع على قصة (ذي القرنين) مترجمة عن القرآن الكريم في إحدي اللغات الغربية، فخرج منها بأكثر من حصيلة روسو، الذي اقتبس منها قصته الفرنسية (زاديك) ـ أي الصديق ـ إذ تبين من خلالها منهج الإسلام السياسي، الذي يجعل من الحاكم مجنَّداً لتحقيق العدالة الشاملة، بنجدة المظلوم، وكبح جماح الظالم، وصيانة الحقوق، وتأمين المصالح العامة، والتشجيع على إشـاعـة روح الإحسان بين عباد الله، حتى تستقيم حياتهم على المنهج الذي حققته العزائم المؤمنة في ظل ذي القرنين، وفي أيام صدر الإسلام.

ولعل برناردشو قد وقف ملياً على معنى قوله تعالى في تحديد مهام أوليائه حين يتولون مقاليد الأمور في الأرض: **﴿ولينصُرَنّ الله من ينصـره. إن الله لقـوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر﴾**[1] وشتان بين أقوام يقاتِلون الناس ليستعبدوهم، ويسلبوا أوطانهم، ويدمروا مقوّماتهم، ويُفسدوا عليهم حياتهم.. وآخرين يقفون أنفسهم على رعاية الحقوق، فقتالهـم جهاد في سبيل الله والمستضعفين من خلقه، لا يريدون من ورائه سوى تثبيت القِيم العليا من توجيه العباد إلى خالقهم، وإشاعة التعاون على البر فيما بينهم و (إخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)..

**مسـئوليـة المسـلم :**

والمفكر البصير حين يتاح له مجال التأمل في مقوّمات الإسلام سيجد نفسه تلقاء تنـظيم متكامل، قد حصل على وفق حاجة الفطرة الإنسانية، ومقتضيات السنن الكونية جميعاً فجاء (تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) أي لكل من أسلم وجهه إلى الله، بعد أن آمن أنه خالقه ورازقه وكافله وهاديه أبداً الى التي هي أقوم.

---

(١) الحج ـ ٤٠، ٤١.

ومن بدهيات الأمـور أن من خصـائص الكمـال في هذا الـدين عنايته بالفرد والجماعة في آن، فهو يبدأ تنظيم الكيان البشري بتسوية الفرد، ثم بناء الأسرة، ثم تأليف المجتمعات حلقة بعد أخرى، حتى نهاية التركيب الإنساني العام.

والفـرد الـذي هو أصل المجتمع في هذا الكيان محاط منذ يومه الأول بكل الوسائل التي تحقق له النشأة السليمة.. حتى إذا انتهى إلى أبواب الوعي واجهه بالزاد الضروري من الشعور بالمسئولية. فهو موقن عفويّاً بأن له ربّاً رحيماً حكيماً هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود، وهو الذي يحوطه بكل أسباب الحياة، فعليه أن يقابل جميله العظيم بالشكر الدائم، وبالتزام العمل الذي يحبه، ويكبر شعوره بهذه المسئولية مع نموه العقلي، حتى يتعلم من تعاليم هذا الإله العظيم ما يؤهّله للإسهام في إسعاد من حوله من أسرته الصغيرة، ثم أسرته الكبيرة على امتدادها في جوانب الأرض ما قرب منها وما بعد..

ولا يُتصـور في العقـل توافر مثل هذه النشأة السوية إلا إذا توافر لها المحيط الصالح الذي يأخذ بيد ذلك الفرد في الطريق القويم، وهو المحيط المتمثل في الأسرة المسلمة، التي تدرك مسئوليتها نحو أفرادها، من خلال الأمر الإلّهي الذي يُهيب بها دائماً ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾[1] ولا وقاية من هذه النـار إلا أن يتعهـد المسؤولـون صغارهم بإشرابهم معاني الإسلام، عبادةً وأدباً وسلوكاً، حتى يستحيل الواحد منهم صورة حية للمسلم الحق..

ومما لا مُشَاحَّة فيه أن مهمة الأسرة المسلمة لن تكون ميسورة إلا بمقدار ما تجد العون عليها من الأسر الأخرى، التي تؤلف المجتمع القومي.. فإذا غلب الفساد عليهن تعذرت حماية نشئها من تسرب الخلل العام.. ولا سيما إذا قامت بحماية هذا الخلل وسائل الإعلام، ومناهج التعليم التي تسيطر عليها الدولة الفاسدة.

ولذلك كان صمام الأمان في بناء الكيان المسلم اعتصامه بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي بالتزامه تتوافر لهذه الأمة خصائص الخيرية، وعلى قَدرِ تهاوُنِها فيه يكون انحلالُها وهوانُها، كما أخبر بذلك الصادق الأمين صلوات الله

---

(١) ٤ - ٩٧.

وسلامه عليه إذ يقول: (لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ولتدعنه فلا يستجيب لكم) ويلاحظ من هذا الحديث الجامع أن تسلط الأشرار على الأمة موقوف على إغفالها مبدأ الأمر والنهي، وفي إشارته إلى دعاء الأخيار غير المستجاب تنبيه إلى أن هؤلاء لم يقوموا بحق ذلك المبدأ، لذلك لم ينفعهم دعاؤهم شيئاً مع أن الدعاء هو مُخُّ العبادة، بل العبادة كلها كما صح في الحديث الصحيح.

**من أجـل الحفاظ على أمانة الله:**

ومن هنا لابد من التساؤل عندما يصل الخلل الى مثل هذا الحد، بحيث يفلت زمام التربية من يد الأسرة المسلمة، وتتكاثف عوامل الفساد على مقاومة الاتجاه الإسلامي في توجيه النشء.. فما علاج ذلك؟.. وهل تسقط مسئولية الأسرة نحو نفسها وأبنائها في مثل هذه الحال!...

الحق أن المسئولية قائمة لا تزول ما دام ثمة متسع لأي جهد.. وأول ما يواجهه صاحب المسئولية في مثل ذلك الموقف هو الهجرة إلى أي مكان يجد فيه الأمن على دينه الذي هو أغلى من الوطن والمال والحياة.. وإلا كان من ﴿**الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم؟.. قالوا كنا مستضعفين في الأرض.. قالوا: ألم تكن أرضُ الله واسعة فتهاجروا فيها!.. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً**﴾ سورة النساء.

أمـا إذا استحـالت الهجـرة بعـدم وجود المكان الآمن، أو لضغط الطواغيت المانعين من الهجرة، فلن يبقى سوى بذل الوسع في أداء الأمانة نحو الأطفال بكل الوسائل الممكنة، ولو أدى ذلك إلى السجن أو التعذيب أو الحرمان أو القتل.

ولقد حدثنا الأخ اسماعيل حقي صاحب دار الحكمة للنشر في استامبول أن والده وهو من أهل الدين والعلم، كان مواظباً على تلقينه القرآن في ظلمات العهد الكمالي، فإذا بلغ أمره المتسلطين قبضوا عليه وزجوه في السجن، فإذا ما أفرجوا عنه عاد إلى تعليمه القرآن فيعودون لاعتقاله.. وهكذا لم يفتَّ الارهاب من عزيمته

حتى أعـذر إلى ربـه ولـده. ومعلوم أنه لولا هذا الضرب من البطولات ما بقي للإسلام من أثر حتى الآن في تركية والاتحاد السوفيتي والصين وجنوب شرق آسية وبلغارية وما إليها من الربوع التي تنوء تحت سلطان الظالمين.

وإذا كان هذا واجب المسلم المكـره على الإقـامة في المحيط الفاسد، وقد سُدت بوجهه سبل الفرار بدينه وأبنائه، فما بالك بأولئك الذين يسلمون أبناءهم مختارين إلى محاضن الكفار يسلخونهم من بقايا سماتهم الإسلامية ليردوهم إلى أهلهم ألغاماً تنسف ما أغفله الظَّلمةُ من حصون الإسلام!..

هؤلاء المخـدوعـون يظنـون أنهم بإيفـادهم أفلاذ أكبادهم إلى أوربة واميركة ومدارس التبشير، إنما يمهدون لهم طريق المجد والعزة.. وما ندري أي مجد أو عزة يحرزهما إنسان تجرد من الولاء لدينه وأمته وخسر دنياه وآخرته!...

أول شيء نسيه هؤلاء الغافلون هو واجب الشعور بالمسئولية بإزاء الهوية التى يحملونها.. وقد علموا أن لكل هوية حقوقها على صاحبها منها بذل المال والنفس فداء الأمة المانحة لها، والتعاون المطلق مع شركائه فيها حفاظاً على كرامة الجميع وسلامتهم.

ذلـك هو القانون الذي لا خلاف عليه بين البشر بالنسبة إلى رابطة التراب، فكيف هانت لدى بعض المسلمين هوية الإسلام، وهي جوازهم الوحيد للمرور إلى آفاق العزة والحرية والقيادة العالمية، وقبل ذلك وبعده وسيلتهم إلى دار المقامة في جنات النعيم، ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾؟!

**أعمـى يقود المبصرين :**

وإذا كانت قِيَمُ الأشياء محـددة بنتائجها فمن حقنا أن نتّهم هؤلاء المفرِّطين بأبنائهم أنهم إنما يقذفون بهم عن طواعية إلى النار، لأنهم يسوقونهم بتوجيههم الخاطىء إلى الشقاء في الدنيا، وإلى العذاب الأليم في الآخرة.

لقد أُخذ القوم ببهارج الغرب، إذْ رأوه قد حقق أكبر الانتصارات في عالم المادة، فنظَّم مدنه، ومهد طرقه، وقصر مسافة الأبعاد بما أبدعه من عجائب المواصلات..

فتوهموا أنه قد بلغ الكمال في كل شيء، على حين يرون شعوبهم وهى تلهث وراءه لا تكاد تسهم بأي جهد في بنيانه الحضاري، فضلاً عن حاجتها اليومية اليه في مأكلها ومشربها وكسوتها وتعليمها. . وقد ترتب على إيمانهم بالغرب المتفوق أن كفروا بذاتهم فلم يروا غضاضة في تقليده وتسليم فلذات أكبادهم الى قبضته يصرّفهم على هواه. .

ولقد غفل هؤلاء في غمرة الدهشة عن ضروب التعاسة التي يعانيها هذا الغرب. . ولو هم نظروا إلى واقعه بوعي لأدركوا أنه لا يعدو صورة التمثال الآلي المجهَّز بالطاقات الالكترونية، فهو يتحرك ويسعى ويطير ويأتي بالغرائب، ولكنه جهاز أصم خال من كل أثر للضمير والمشاعر النبيلة، التي تحقق للحياة الإنسانية معناها السعيد.

لقد اكتشف هذا المخلوق أسرار الأرض والفضاء ومخزونات الهواء والبحار، ولكنه عجز عن اكتشاف نفسه، وبالغ في تجاهل أغوارها، فسقط فريسة الغرائز التى سرعان ما طغت على تصرفاته فمزقت وشائج الأسرة، وقطعت روابط الإنسانية، وفتحت السدود لسيول الفجور، تتدفق فتجرف كل ما زود الله به الفطرة من العواصم، حتى أنه ليعدو على أسماء القيم نفسها بالتحريف ليصرفها عن مدلولاتها الكريمة إلى أخس المعانى، فهو يتذرع بكلمة (الإنسانية) لتسويغ الظلم الفاضح، ويحتج بـ (الاخلاقية) لتمرير كل ما هو مناف للأخلاق، ويطلق شعارات الحرية ولا مفهوم لها عنده سوى حرية الجنس، حتى ليعد من مفاخره في هذا الميدان إباحة كل ما حرم الله من الزنى واللواط، وحتى نكاح الأخوات وتعدد الاخلاء والخليلات. . ولكن في الوقت نفسه لا يرى حرجاً في اغتصاب حريات الشعوب، وتشريدها من مواطنها المجبولة بعرق الآباء والأجداد ليحِل مكانها شذاذ الآفاق من لصوص الدنيا. . أو ليقذف بها في المجاهل مجردة من كل أسباب البقاء، وبذلك أحال الحياة بأسرها قاطرة يقودها سكران. .

والعجيب بعد هذا كله، بل الأعجب أن تستهوى حياة هذا السكران بعض أبناء الإسلام فيركبوا باختيارهم قاطرته دون أن يسألوا أنفسهم: إلى أين؟! ولكأنى

بالشاعر لم يرد سوى أمثال هؤلاء في قوله :

أعمى يقود بصيراً . . لا أبالكمُ قد ضلَّ من كانت العميان تهديه .

**النور الذي لن ينطفىء:**

إن قاطـرة الغرب لتتطلع في هلع لا يوصف الى اليد الرحيمة التي تمتد إلى محـوّل السير، لتصـرفهـا عن الهـاوية الفاغرة لابتلاعها. وقد خلت الساحة من المرشدين وعم الظلام ، إلا شعاعاً لا يزال يجتذب انظار الركب الهائم من بعيد. .

إنه الإسلام الذي أنزله الله رحمة للعالمين ، وضمن بقاءه مناراً للنجاة كلما أدلهمَّ ظلام الـدنيا ، وعُمّيت السبـل على أهل الأرض ، فَمَن لهذا المنار يرفعه لارشاد القاطرة الضالة إذا تخلّى عنه أبناء الإسلام ! . . ولكن . . لا . . لن يحدث التخلى أبداً ، ولئن تناسى هذه الرسالة المنقذةَ بعضُ المسلمين في بعض الأحايين إن لها الحُماة الذين يقول فيهم ربهم : **﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾**[1] أجل . . لئن انصرف معظم المسلمين عن رعاية هذه الأمانة ، وجهد الأكثرون من حكامهم لصرف شعوبهم المظلومة عن طريقها بكل وسائل القهر ، إن الله لأرحم بالإنسانية من أن يمكِّن للظالمين من إطفاء نوره . وها هي ذي الطائفة المعتمصة به تتوارد على هذا المنار الإلّهي فوجاً عقيب فوج ، معلنة كلمة الله ، مهيبةً بالتهائهين الحائرين الضائعين : هلمَّ عباد الله فمِن هنا الطريق إلى جنة الله .

إنها الطائفة التي تشهدها اليوم جامعاتُ العالم الإسلامي حاملة راية الإسلام ، وقد تميزت بكل فضائله الفارقة . .

إنه الجيل السلفي الجديد . . قد صمَّم على إعلاء كلمة الله في الخافقين ، ولو أدّى به الأمر إلى أن يخوض خنادق النار من جديد .

إنها الفئة الراشدة التي وَعَت في تعمق حكمة الله بترديد فاتحة الكتاب في كل ركعـة من صلواتهـا ، فكمـا تعلمت وحققت أن الحمـد لله رب العـالمين ، وانه المستحق وحده لخضوعها لأنه الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، فقصرت عبادتها

---

(١) الانعام ٨٩.

عليه واستعانتها به، كذلك ايقنت أن الصراط المستقيم هو التزام طريق الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. . وإن في هذا الإلتزام لعهداً تقطعه على نفسها بأن تجتنب البتة طريق أهل الكتاب من المغضوب عليهم والضالين. . لتكون مع خاتم النبيين في الصفات التي أحبها الله له ولكل فرد صحيح الإيمان من أمته، في قوله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

**﴿قل إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾**[1].

ومن هنا كان ترفع هذه الطائفة عن كل تبعية للشرق أو للغرب، وكان تحفظها من عدوى كل الأوبئة التى تجتاحهما، لإيمانها بقول ربها في أمة محمد صلى الله عليه وسلم: **﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾** [2] ولن يصلح للشهادة على الناس الغارقون معهم في مستنقعات الإثم، وانما يُنتدب لها العُدول الأطهار البرآء في عين الله، ولو اتهمهم بكل فرية المبطلون والباغون والمجرمون والمنافقون.

ولن يعيب هذه الثلة من أولى العزم قلة عدَدها، وضآلة عُددها فذلك شأن النماذج المختارة من كل الأشياء وفي كل الأزمنة. . وبحسبهم أن يكونوا حجة الله على الناس، يبلغون رسالته بالكلمة الصادقة وبالأسوة الصالحة، وملؤهم اليقين بأن الله ناصر دينه، ومظهره على الدين كله وان تأخر الموعد الى حين. . ومع كل الألم الذي يحملونه على أمتهم لا ييأسون من عودتها الى مرفئها الأمين، لأنهم على أتم الثقة من أنها لا تزال، بما تحتفظ به من معالم الوحي، خير أمة أُخرجت للناس، في خضمّ الأمم التي فقدت كل بصيصٍ من ضياء الوحي. .

**ويومئذ**. . يوم توفق هذه الأمة للعودة الى حقيقتها المحجوبة ليتم لها التحرر من رواسب الجاهلية، التي غشّت أبصارها حِقباً بلغت القرون. .

**يومئذ** ستبدأ عملية الإنقاذ، إنقاذ القاطرة التي تشرف بالعالم كله على الهلاك.

ومن ثم ستأخذ علوم المادة، التي أوشكت أن تدمّر الأرض، سبيلها إلى خدمة الإنسان، وتحويل هذه الكرة السابحة في فضاء الله إلى رياض وجنان. .

**﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾**.

---

(١) ٦ - ١٦٢.    (٢) البقرة ١٤٣.

# سبيل المسلمين
# لاسترداد قيادتهم العالمية

الآن وقد انطوت الأيام تلو الأيام على فراق المواسم الروحية، التي يعمر بها السملون رحـاب الحـرمين المبـاركين في كل عام، يجـدر بالمؤمن ان يستعيد انطباعاته ليحدد مدى آثارها في نفسه وفي مَن حوله، وإذا كان مثل هذا التقييم[1] مجدياً في كل مكان من دار الإسلام فهو أجدى علينا نحن الذين أكرمنا الله بالمقام في ظل بيته المطهر ومسجد نبيه الأنور، اللذين جعلهما مثابة المؤمنين يهفون اليهما من أداني الأرض وأقاصيها، ليتعرضوا للنفحات القدسية، وليغسلوا أرواحهم من أوضار الدنيا بشآبيب الرحمة التي خص بها الله تلك المناسبات، التي لا تُنسى وبخاصةٍ في هذه البقاع المكرمة. .

كان الحرمان كدأبهما في هذه المواسم الحبيبة مركز القلب من عالم المسلمين إذ أقبل إليهما كل من استطاع وأنعم الله عليه بغشيانهما من مختلف الأقطار والألسنة والألوان، حتى لَيغصَّان على سعتهما بالوافدين قائمين وراكعين وقارئين. . فما يكاد ابن مكة والمدينة يجد معبراً يسلكه للمشاركة في الصلاة. . لأن سيل هؤلاء الإخوة قد تدفق حتى تجاوز أبواب الحرمين إلى ما حولهما من السوح والرحاب. .

ولا جرم أن منظراً كهذا لا بد أن يؤجج الوهج الروحي في قلوب أُولي الألباب ممن يهمهم أمر الإسلام وعزة المسلمين. . وإذن فلا مندوحة لهم عن التساؤل: انها لغمرة الإيمان الحق تحرك هذه القلوب المؤلفة فتدفعها بأشواق الحب الأعلى الى نشدان القرب والرحمة والمغفرة. ولكن. . ما حصيلة ذلك كله في واقع الناس

---

(١) التقييم بناء صحيح قياسا على قولهم (عيَّد) و (نيَّف) و (أعليت) و (علَّيت) و (أحيل) و (دعاية) وكلها واوي في الأصل.

إثر هذه المناسبة الكريمة! . .

إن الكتائب التي انطلقت من هذين الحرمين لاستئصال الردة الجاهلية ومن ثم لابلاغ العالم رسالة الله لم تكد تبلغ في الإحصاء عدد هذه الحشود المقبلة على طاعة الله في حرميه، ومع ذلك فقد حطم الأولون عروش الطواغيت، وركزوا ألوية الإسـلام من قلب الصين الى بحر الظلمات، وأقاموا في كل مكان وطئوه أسس الحضـارة المثلى التى استمـرت تظل العالم طوال عشرة قرون، ولا تزال تغذى العقول البشرية بروافد العلوم المنشئة للمدنيات حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما هؤلاء فقد عجزوا دون استثناء أن يسهموا بأي أثر في الحضارة أو في تصحيح مسيرة الانسانية التائهة، لأنهم عجزوا عن اكتشاف أنفسهم، ونسوا بذلك رسالتهم فراحوا يتكففون أيدي الآخرين ويتسقطون الفتات من موائد المعربدين! . .

كيف حدث هذا التفاوت بين الأولين والآخرين؟ . . ما بال النفوس الكبيرة قد مُسِخت، والعقـول المبدعة قد عقمت، والمواهب الضخمة قد تقلصت، حتى فقـدت الصـلاة والصيام والحـج والتهجـد لله أسرارها المحيية، فلم تعد تصنع العجائب كما فعلت في السابقين؟! وقصرت موحياتها على أوقاتها فما إن تنقضي حتى يعود هؤلاء إلى مسيرتهم من مهامه الضياع، لا يكادون يعرفون أين يتجهون ولا يحسِنون حتى التفكير بما يعملون!! . .

لقد كانت العبادة عند سلف هذه الأمة مراكز تعبئة لمدخرات العزائم، يلوذون بهـا لتنقية الطاقات من أسباب الخور العالقة بها من إغراءات الدنيا، فإذا قضوا مناسكهم وغادروا معاكفهم كانوا صورة القضاء الإلهي، يهدم صروح الباطل ويشيد معالم الحق، فلا تقف في وجوههم قوة بشرية ولا شيطانية، حتى ليستطيع كل منهم أن يقـول لبغـاة الأرض ما قالـه خالد لطغاة فارس: والله لو صعدتم الى السماء لأهبطكم الله إلينا أو رفعنا إليكم، حتى نقضي عليكم . .

أمـا نحن خَلْفَهـم الـذين آثروا دواعي الشهوات فقد فرَّغنا العبادة من أرواحها فعادت كالزهر الصناعي، له منظر الزهر وليس له أريجه، وبذلك اختلفت نتائجها

بيننـا وبين أسلافنا فأولئك اتسعت بالعبادة آفاق نفوسهم فكانواغ عمالقة العالم، الذي تضاءلت اناسيُّه حتى بدت كالأقزام بإزائهم، وفقدنا هذه الخاصة العجيبة فكنا كالأقزام في دنيا العمالقة!.

أولئك بانفتاحهم الروحي على كتاب الله وحكمة رسوله، صلى الله عليه وسلم، تزودوا بالقوة التي مكّنت لهم من أزمة البشرية، فكانت الأرض كلها وطنهم لا يكاد ينازعهم فيه منازع. . ونحن بانغلاقنا دون هذه المشارق أضعنا تراثنا وسُلِبنا أوطاننا، وبتنـا من الـذل نغـزى ولا نعـزو، ونُقَتَّـل في كل مكـان وكأننا أشياء لا يأبه بها إنسان!!. . وكل ما نطيقه شكوى نرفعها الى الأعداء أو صرخة تتلاشى مع الهباء، ثم يُنفِّس المسئولون عن صدورهم بتدمير حصونهم وإرهاب المخلصين من أهليهم واخوانهم، الذين كل ذنبهم أنهم يقولون: ربنا الله. .

وبعـد. . فهـل من سبيل إلى تصحيح هذه الأوضاع المقلوبة، فنعيد للعبادة آثارها المسلوبة، لكي نستعيد بها مركزنا الطبيعي من قيادة الدنيا وهداية القطعان الضالة!. .

مثل هذا السؤال كثيراً ما سمعته فلم أجد له جواباً إلا في هذا التقرير الإلهي الجازم: ﴿**ومن يَتَّقِ الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب**. . ﴾ فبالتقوى إذن نجد المخرج من كل هذه المحن وذلك الضياع. . وبالتقوى يرزقنا الله كل ما يعوزنا من التأييد والعزة والانقاذ. .

والمهم أن يعلم المسلم أن التقوى ليست كلمة تقال ولا صلاة تقام، وإن كانت الكلمـة الـطيبة والصلاة الخاشعة بعض شروطها، وإنما هي برنامج حياة يعالج بمفرداته أمراض نفسه في تسليم مطلق لأوامر الله وانزجار واع عن مناهيه، فلا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا له، وكل علاقة بينه وبين غيره فعلى أساس من هذا النهج الرباني الذي يقرره سبحانه بقوله الجامع المانع: ﴿**قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين**﴾.

وتلك هي الركيزة العظمى التي عليها نهض كيان المجتمع الرباني في ظل كل نبي، ولا سيما في ظلال خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، حتى لم يكن للمؤمنين من رابطة تعدل رابطة الإسلام، فهو منطلق الأخوَّة، ومنه تستمد الصلات الاجتماعية مقوماتها وقيمها. . وقد رأينا نبي الله نوحاً عليه السلام يتوب إلى ربه ويستغفره من استرحامه لولده بعد أن اتضح له أنه من أصحاب الجحيم، ورأينا بعده إبراهيم عليه السلام يتبرأ إليه سبحانه من أبيه لما تبين له أنه عدو لله. . وفي الصدر الأول لهذه الأمة رأينا الصحابي يقتل أباه وأخاه ويخاصم كل نسيب وقريب في مرضاة الله ورسوله، ولا تزال كلمة الفاروق تدوّي في مسمع التاريخ يوم أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعقاب غزوة بدر قائلاً: (أرى أن تمكنني من فلان ـ قريبه ـ فأضرب عنقه، وتمكن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين).[1]

لا جرم أن التحقُّق بهذه الصفات أمر قصي المنال، ولكنه الأمر الذى لا خيار فيه، فنحن أمة كتاب هو خاتم رسالات الله، فلا كيان لنا إلا عن طريقه وبالتزامه، بيد أن الرضى بهذا الواقع المحتوم والتحرك باتجاهه كفيلان بتحقيق ما نتوهمه من المستحيلات. وفي سورة الحديد من كتاب الله بشرى ما أحوج المسلمين إلى تدبرها والانتفاع بها في كوارثهم الساحقة! إنه سبحانه يذكرنا بالتحجر الذي انتهت إليه قلوب أهل الكتب السابقة بسبب انصرافهم عن سبيلها، فيحذر المؤمنين من الوقوع في مثل تجربتهم لئلا يكونوا ﴿**كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمدُ فقستْ قلوبُهم وكثير منهم فاسقون**﴾.

ثم لا يلبث أن يلفتنا الى الوسيلة التي تنقذنا من ذلك المصير الرهيب، ألا وهي العودة الى كتاب الله، فهي كفيلة بأن ترد إلى قلوبنا الحياة بعد الموت، وإلى عزائمنا القوة بعد الفوت، وإلى سمعتنا المهابة بعد الذلة كما يرد الغيث إلى الأرض

(١) منتخب السنة ج ١ ص ١٥٩.

حياتها ﴿اعلموا أن الله يُحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآياتِ لعلكم تعقلون﴾.

أجل.. ذلك هو الطريق السويّ الى استرداد حقيقة أسلافنا ومن ثم إلى استنقاذ أوطاننا واستعادة عزتنا، ورضي الله عن الفاروق الذي أحاط بهذه الحقيقة أيما إحاطة إذ قال لأخيه أبي عبيدة عليهما رضوان الله: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما نبتغ العزة بغيره أذلنا الله..).

وإن الصعود الى هذه القمة لأمنية من حقها أن تراود كل مؤمن يعيش مأساة أمته في هذه الآونة، التي تتكالب فيها أمم الشرق والغرب على المسلمين. ولكن تعيين الوسائل الضامنة لتحقيق هذه الأمنية لا يعقله إلا العالمون.

إن المشكلة في رأيي المتواضع ذات وجوه كل منها يؤلف مشكلة لا مندوحة عن معالجتها أولاً في ضمائر الشعوب. وما أحسب ثمة متسعا للخلاف على أن في رأس مشكلات المسلم المعاصر التي تحول دون استرداده لشخصيته هذه المعوقات الأربع:

١- الاختلاف في نطاق العقيدة.

٢- العصبيات المذهبية.

٣- الركض وراء المغريات.

٤- إسقاط الجهاد من حياة المسلم.

أما موضوع العقيدة فهو نقطة الانطلاق التي على صحتها يتوقف مصير الإنسان كله، ومن هنا كان التركيز على تصحيحها وتوضيحها هو الركن الأساسي في بناء مهام النبيين ومن سلك سبيلهم من المصلحين، وهو القاعدة التي قدمها رسول الله لصناديد قريش يوم جاؤوا يفاوضون عمه أباطالب بغية إصلاح ما بينه وبينهم، فقال لهم: (نعم. كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.. تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه..).

وكان مفهوم كلمة التوحيد من الوضوح في أذهان زعماء المشركين بحيث لم يجدوا حاجةً إلى أي جدل في شأنه. فرسول الله ﷺ لا يقبل منهم إلا التحرر

الكامل من كل عبودية لغير الله، وهم لا يريدون الانسلاخ من تقاليد الآباء، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، لذلك كان جوابهم: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون فانطقلوا . .

إنه توجيه الولاء كله لله، فكما أنه هو الرزاق الخلاق وحده، فكذلك هو المتفرد بحق الطاعة والعبادة وإسلام النفس، حتى لا يطاع مخلوق في معصيته كائناً من كان وبالغاً ما بلغ من السلطان.

وفي نطاق هذه التربية الربانية من معاني (لا إله إلا الله) تكون الجيل الأول من مدرسة النبوة، ومن هذا المنطلق تحركت طاقاته المتكاملة لتحرير الجزيرة ثم لتحرير العالم كله من ظلمات الجاهليات. وقد مضى أولئك يجاهدون في سبيل الله على هدى من الله وعلى أتم الانسجام مع سنن الكون، لا تمزقهم صراعات الأفكار المتناقضة، ولا تخدعهم عن الحقيقة التى آمنوا بها بهارج الفلسفات المتضاربة، فكانوا الدم الجديد في شرايين الجسم البشري، يرد إليه الحياة بعد أن شارف الاحتضار، ثم خلف من بعدهم خلف آده ثقل الأمانة واستهوته الشياطين، فإذا هو فريسة الضياع الفكري، إلا من رحم الله . . وهكذا تمت مشيئة الله بتفكك هذه الأمة إلى عشرات الفرق، كل حزب بما لديهم فرحون . . وساق ذلك التمزق فتناً ومحناً أغرقت ديار الإسلام في لجج من الدماء لم تجف حتى الساعة.

ولنقف من هذه المآسي عند حدود الولاء الذي ما برح يفتت طاقات المسلمين ويهدر امكاناتهم الكثيرة.

إن الولاء الذي كان في ظل التوحيد الخالص منصرفاً الى الله وكتابه وسنة نبيه قد بات اليوم موزعاً بين مختلف النوازع . . فولاء لِشيوخ زعموا لنفسهم حق التشريع به يفرضون على مريديهم كل ما يخدّر قوتهم ويضخم زعامتهم، إلى ولاء لطواغيت فرضوا سلطانهم على شعوبهم بقوة الحديد، فبهذه القوة يسلخونهم من شريعتهم ويحكمونهم بما اخترعوا أو اجتلبوا لها من أنظمة شيطانية لا مردود لها سوى التمكين

لعوامل الفرقة، في شحناء تذهب بريحهم جميعا لمصلحة أولئك المتسلطين وحدهم . .

ولعلنا لا نفاجیء القاریء بجدید إذا قلنا إن كثیرین جداً من المصلین الصائمین الحاجین المعتمرین المعتكفین لا یرون أي بأس في أن یهبوا تأییدهم وتصفیقهم لطواغیت غاشمین أو متحكمین أحلّوا قومهم دار البوار.

وأن غیر قلیل من هؤلاء المغفلین یعلنون في غیر جمجمة : أن الإسلام شيء والسیاسة شيء وأن من توقیرنا للإسلام أن نقصیه عن نطاق السیاسة، كما یقرر صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ومن تبعه من المضللین.

وإن بین هؤلاء وأولئك لرجالاً من ذوي الشهادات العلیا جداً یقصدون البیت الحرام والمدینة المنورة مدفوعین إلى ذلك بحافز الفطرة العطشى الى غیر الأشربة المادیة دون أن یعرفوا أي شيء عن الإسلام، حتى الصلاة التي هي العهد الممیز للمسلم لا یعلمون كیف یؤدونها ویستنكفون أن یسألوا من یحسن توجیههم إلى صحة أدائها . . ولیسمح لي صدیق عزیز أن أعلن الآن ما أسرَّ به إليّ من أن أحد هؤلاء قد كاشفه وهو بجوار أُحُد أنه لا یدرى أي خبر عن غزوة أحد! . .

وهل أنا بحاجة إلى التوكید مرة ثانیة أن من غیر المبالغة القول بأن هؤلاء یؤلفون الكثرة الكاثرة من سواد المسلمین، وإذا صح هذا، وهو جد صحیح، فأي عجب الا نلمس لعبادات هؤلاء من ثمرة في نطاق الحیاة العامة، وألاّ تزودهم عبادتهم بأي حافز لمقاومة البغاة العادین على أوطانهم ومقدساتهم! . .

وطبیعي أن مجرد فقدان الجماهیر ضوابط الوعي الإسلامي هو الذي یجردهم من كل حصانة ضد التبعیات العمیاء على اختلاف أشكالها . . ولیس التعصب المذهبي الذي یزین لصاحبه إیثار أمر الشیخ على حكم الله ورسوله، والذي لا یزال یؤرث الشقاق بین أهله، سوى بعض المضاعفات الناتجة عن هذا الداء . وهل هذا التعصب الهدام الا إحدى ظواهر الانحراف عن مهیع الإسلام الذي یلزم المسلم أن یتجرد من كل ولاء لغیر الله ورسوله! ! . .

ثم لنتساءل: ما الذي يسوق المسلم إلى الركض وراء سراب الدنيا من المتاع الزائل، حتى ليكاد يحصر كل همه في حدود الدخل المادي ومستوى المعيشة، والمزيد من العلاوات، واهتبال كل الفرص للضرب في الأرض.. ثم إلقاء أزمته ومن تحت ولايته إلى أكف الشياطين من سفهاء الناس يتابعونهم في كل حركة وسكنة، حتى لو دخل أحدهم حجر ضب لدخلوه وراءه.. أليس هذا كله دليل تميع الشخصية وفراغ القلوب من المقومات، التي تملأ كيان المؤمن يقيناً بأنه شاهد الله على الخلق، والمسئول عن قيادة الزائغين الى سبيل الحق.. فكيف به يرضى أن يكون الإمعة الذي لا يتماسك عن الاستجابة لكل ناعق!..

وإذا نحن أحطنا بكل هذه الوقائع وتبينا ما بينها من الوشائج لم نستغرب أن ينتهي المطاف بالمسلم ـ الذي هذا شأنه ـ إلى إسقاط فكرة الجهاد من حياته كلياً، لأن فاقد الشعور بالمسئولية لا يستطيع الارتفاع بتفكيره الى مستواها.. ومن ثم فأي محرض يمكن أن يغريه بالمغامرة في صراع قد يكلفه راحته وماله ونفسه!.

لقد فهم الجيل الأول من الصحابة ومن تبعهم معنى الأمر الحاسم في قوله تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً..**﴾ فلم تشغلهم متعة ولا رغبة عن النهوض بواجب الجهاد، إذ كان كل منهم مثال المؤمن الذي وصف رسول الله مدى استعداده للجهاد بأنه: (.. **ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمه هيعة ـ استغاثة ـ طار إليها**). حتى كان من الصحابة الشيخ الفاني يتوقع الأجل بين يوم ويوم، ومع ذلك يُرى دائباً على تعهد الرمي خشية أن ينساه، وحتى كان من التابعين من فقد القدرة على القتال ومع ذلك يأبى إلا صحبة المجاهدين لخدمتهم وحراسة امتعمهم، فإذا قيل لهذا أو ذاك: (أن شيخوختك قد أعفتك من هذا العبء أجاب: ولكن الله لم يعفني ولم يعف أحداً حين قال: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً..**﴾

من أجل ذلك كان الحث على الجهاد أحد العناصر الكبري في البيان الخلافي الأول الذي خاطب الصديق به إخوانه من الرعيل الأول فقال: (لا يدع قوم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل: :).

وعلى هذا السَّنن جاء خطاب رابع الراشدين كرم الله وجهه الذي كان أبرع نص أدبي يصـور جلال الجهـاد وأهميتـه في حمـاية البيضة وصيانة العزة، وفيه قولته الشهيرة: (اغزوهم قبل أن يغزوكم . . فوالله ما غُزِي قومٌ في عقرِ دارِهم إلا ذَلوا . . )

وهل بقيت ثمة حاجة لتوكيد هذه الحقيقة بعد أن لمسنا بكل واقعنا مدى الذلة التي استحوذت على المسلمين، منذ مكنا لاحفاد قريظة والنضير وقينقاع من نقل المعركة الى قلب ديارنا! . .

إن المشكلة ذات شعب لا مندوحة عن معالجتها في ضمائر الشعوب . . والحق أنني عاجز عن تحديد الشكل الأفضل لهذه المعالجة ولا سيما بعد أن أصبحت أزمة التربية بل (الثقافة والإرشاد) منوطة بتنظيمات تملي معظمها أرادات متسلطين لا يرون من مصلحتهم الاهتمام بصيدلية الإسلام . .

والأمر لله من قبـل ومن بعـد . .



# مجتمعنا الاسلامي
# كيف بدأ!.. وكيف تحول؟!!..
# وما السبيل إلى تصحيح مسيرته؟!!

**مسلمون ومأواهم جهنم:**

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمر لهم بنصف العقل. . وقال: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: يا رسول الله لِمَ؟. . قال: لا تراءى ناراها: :).

أخرجه أبوداود في السنن آخر كتاب الجهاد، وذكر أن جماعة رووه مرسلاً. وقال المنذري في مختصره: وأخرجه الترمذي والنسائي. وظاهر من السياق سبب وروده، وذلك أن سرية لرسول الله ﷺ أغارت على المشركين من خثعم، وكان فيهم بعض المسلمين، فلما وقع السيف في القوم لجأ هؤلاء الى الصلاة لينقذوا أنفسهم من القتل بحق الإسلام، ولكن ذلك لم ينفعهم إذ أخذتهم سيوف المسلمين. ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ لم ينكر على جنوده فعلهم، بل أنكر على أولئك المسلمين إقامتهم بين المشركين حتى أُخذوا بجريرتهم، ولذلك حكم لهم بنصف العقل - الدية - لأنهم كما يقول الشراح أعانوا على أنفسهم، فكانوا كمن هلك بجناية نفسه وجناية غيره، فسقطت حصةُ جنايته من الدية.

وفي هذا الحديث الشريف عدد من الأحكام الشرعية لا غنى للمسلم عن معرفتها والتفطن إلى مراميها القريبة والبعيدة، بل إن حاجتنا إليها هذه الأيام أكبر من أن يحاط بها في مقال أو بحث، لذلك سنقف منها على بعض الجوانب الشديدة المساس بحياة المسلمين في مرحلتهم الراهنة.

أول ما يواجهنا مما نحن بصدده ذلك النذير المخيف في اعلانه صلى الله عليه وسلم براءته من كل مسلم يقيم بين المشركين وهو قادر على مفارقتهم، ونحن لا نعلم سبب وجود هؤلاء المسلمين مع أولئك المشركين أثناء الغارة فربما كانوا أسارى لديهم، وربما كانوا تجاراً نزلوا بهم. . ومهما يكن ذلك السبب فالنكير لاحق بهم لأنهم لم يبذلوا وسعهم للتخلص من جوارهم.

ثم يأتي تعليله صلى الله عليه وسلم لذلك التشديد في التحذير من مخالطة المشركين بقوله (لا تراءى ناراهما) وقد تعددت أقوال العلماء في المراد من ترائي النارين، ولعل أقربها إلى المفهوم العام أن على المسلم أن يبالغ في مباعدة المشركين حتى لا يرى كل من الفريقين نار الآخر. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون للتقارب بينهما ألوان من المحاذير لا يعذر المسلم بجهلها أو تجاهلها أو التهوين من شأنها. .

وقد برز هذا المعنى جلياً في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: أو لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا**﴾.

وقد رُوِي من عدة وجوه أن الآية نزلت في قوم من أهل مكة، كانوا يَسْتَخْفون باسلامهم، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم. فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع. .

وقد وصف الله هؤلاء بظلمهم أنفسهم لمجرد تخلفهم عن مفارقة البيئة الكافرة مع توافر القدرة لديهم على الخروج، وإنما آثروا البقاء تهرباً من مسئولية التعاون مع المؤمنين، أو تطلباً لمصلحة شخصية يخشون فواتها ونحو ذلك من ضروب المعاذير. .

ويحـاول هؤلاء الاعتذار للملائكة بما يزعمونه من الضعف، ولكن الملائكة يرفضون اعتذارهم بما كان أمامهم من سعة في الأرض لم يجربوا الاستفادة منها للفــرار بدينهم . . ثم يأتي حكم الله عليهم بالمصير المقــرر للظالمين : جهنم وساءت مصيرا .

وروى النسائي من حديث بهز بن حكيم عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لا يقبل الله من مشرك، بعدما يسلم ، عملاً ، أو يفارق المشركين الى المسلمين . . وذكر أبوداود من حديث سمرة عنه صلى الله عليه وسلم (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) . [١]

وهكذا تتضافر الآثار من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بما لا يدع مجالاً للتردد على تحريم إقامة المسلم بين غير المسلمين، إلا من سدت بوجوههم المنافذ فلا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا .

**كيف كنا وكيف تحولنا :**

ولقد التزم المسلمون ذلك التوجيه فلم يعدلوا بمجتمع الإسلام مكاناً، واستمر هذا بعـد غزوتي بدر وخثعم إلى عهد عمر رضي الله عنه حيث استبحر الفتح ، وانتشـرت الجيوش الإسـلامية في فارس والشام ومصر، فكان طبيعياً أن تحدث المخالطة بين جنود الفتح وطوائف الأعاجم ، وأن يطلع المسلمون على الكثير مما لم يألفوه من عادات هؤلاء وأخلاقهم وأزيائهم ، ولم ير بعضهم بأساً في اتخاذ بعض هذه الأزياء. فمــا إن بلغ ذلـك الفـاروق حتى كتب إليهم : (إياكم وزي أهـل الشرك) . [٢] وبالاسناد عن الثوري . . عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه : (من بَنى ببـلاد الأعاجم ، وصنع فيرزوهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة . [٣] وقد تعددت موارد هذا الخبر عن عبدالله بن عمرو باللفظ

---

(١) انظر مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود ص ٤٣٧ ط ١٣٦٨هـ.

(٢-٣-٤) انظر (اقتضاء الصراط المستقيم . .) ص ١٢٥ و ١٩٩ . ٢٠١ ط ـ ١٣٨٩هـ

نفسه وبأسانيد صحيحة، وهو من الأخبار التي تعتبر بمنزلة الحديث المرفوع لاحتوائها على مغيَّب لا يُعلم إلا عن طريق الوحي. وعقب شيخ الإسلام أبوالعباس بن تيمية عليه ـ في اقتضاء الصراط المستقيم. . ـ بقوله: وهذا يقتضى جعله كافراً بمشاركتهم فى مجموع هذه الأمور، أو جعل ذلك من الكبائر الموجبة للنار(٤) وفى رسالة عمر رضي الله عنه إلى سعد يقول له: (وترفق بالمسلمين. . ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه. .)(٥) والموثوق بدينه عند عمر هو الفقيه المدرك لخلفيات الأحداث والظواهر. وإنما يريد بذلك صيانة المسلمين من الخلطة التي تفتح المنافذ لتسرب الأخلاق الأجنبية الى طبائع العرب، الذين يعتبر الفاروق استبقاء سلامتهم الفطرية من أهم أسباب التميز عن أولئك الذين أفسدهم الترف، واستذلتهم الشهوات. .

لقد كان الفاروق وإخوانه من أهل الصف الأول يدركون من خلال الرؤية الإسلامية أن مهمة المسلمين بإزاء العالم القديم الذي يواجهونه، مهمة الطبيب الذي يواجه مجتمعاً يجتاحه وباء عارم جارف، وليس لهذا المجتمع من معين بعد الله سواه، فأول واجباته إذن هو الحفاظ على نفسه من سريان العدوى إليه لكى يتمكن من مكافحة الوباء. . إلا أن هذه السياسة اليقظة لم تُعط فرصة الاستمرار الا ريثما تسلل العنصر الفارسى الى ميدان السلطة، فإذا هو يفرض عاداته وتقاليده وألوان حياته الكسروية على حرم الخلافة، ثم يأخذ سبيله من هناك إلى معظم الأوساط من مجتمعات المسلمين. . ثم ما هي الا سنون بعد سنين حتى صارت الدولة كلها ـ كما يقول بعضهم ـ أعجمية الوجه عربية اللسان.

الأزياء، والمساكن، والأطعمة، والفنون، والمتع المختلفة، حتى الأنظمة العسكرية. . كل هؤلاء قد استحال صورة مجسمة لأخلاق فارس، ومواريثها الاجتماعية.

(٥) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٢٣٤ ط ١٣٥٦.

وقد هيأ ذلك التحول الأسباب اللازمة لقبول الأفكار الأجنبية، ليس في نطاق العلوم المادية وحدها بل في الفسلفة والفنون والأخلاق أيضاً. .

وهكذا تعرضت الدولة الإسلامية العباسية، ثم الأندليسية فيما بعد، لأحكام النظام الإلهي الذي حطم صروح الدول السابقة بسبب انصرافها عن الحق الى العبث، فزالت كما زال مَن قبلها. . ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ الأحزاب ٦٢.

**المسلم قاضٍ وشهيد :**

على أن تساؤلا لابد أن يتحرك فى خاطر كل ذي لب بإزاء هذا التوجيه الإسلامي لصيانة الذات المسلمة من مخالطة غيرها. أهو قضاء مُلزم في كل زمان ومكان. . أم تراه ضرورة مقترنة بمواقف خاصة تزول بزوالها، وتثبت ببقائها؟ . .

وقد يقول قائل: كان ذلك الفصل بين المسلمين وغيرهم في صدر الإسلام من الضرورات الحاسمة، إذ كانت الأمة حديثة العهد بالخروج من متاهات الجاهلية، فلا مندوحة للقيادة عن تأمينها ضد كل ما هو مباين روح الإسلام، ومن ذلك التوكيد على امتيازها، والتحذير من التفريط بهذا الامتياز الرباني. . ولكن استمرار الاعتزال بعد رسوخ المعاني الإسلامية مناف لطبائع الأشياء، إذ يستحيل على الفرد، فكيف بالأمة، الانفصال الدائم عن الجماعات الإنسانية الأخرى. . فلم يبق إلا أن يكون لهذا الفصل صفة التوقيت على قدر الحاجة. .

والحق أن الأمر باجتناب معايشة المشركين من العزائم التي لا رخصة فيها. . كما يتضح من القرآن والسنة. . وذلك لتعلق الموضوع بقضية الكيان الإسلامي ذاته، ذلك الكيان المتفرد بخصائصه وحضارته ومسئوليته نحو الحياة والإنسان.

يقول ربنا تبارك وتعالى في وظيفة المؤمنين: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾ البقرة ١٤٣.

ويقول سبحانه في تحديد هذه المسئولية ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبعْ**

**أهواءهم عما جاءك من الحق﴾** المائدة ٤٨ .

فالمجتمع الإسلامي هو الذي وقع عليه الاختيار الأعلى ليكون شهيداً لله على عباده، وإنما جُعل الرسول شهيداً عليه تبياناً لجلال المهمة التى شُرِّف بها، فهو من أجل ذلك جد حريص على تحقيق مهمته على الوجه الأكمل، تقديراً للتشريف الإلهي، وحفاظاً على مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن فضل الله على هذا المجتمع أن زوده بالوثيقة العاصمة التي تضيء له السبيل لتحقيق مهامه في التعامل مع الخلق، فهي الحق الثابت الذي به يُعرف الصحيح من الفاسد، والأصيل من الدخيل، وما خالفه من قول أو عمل فهو حصيلة الأهواء الصارفة عن الحق.

ومن هنا تتحدد صلة المسلم بالناس، على أنها صلة تبليغ وشهادة وتصحيح، فلا بد له والحالة هذه من التحفظ في معاملتهم، كما يجب على القاضي العادل، الذي يعلم أنه إنما يعرض كرامة القضاء للهوان، ويطمع بحيفه كل ذي زيغ، إذا هو أطلق لنفسه العنان، فلم يكفها عن مقاربتهم، ولم يكفَّهم عن مخالطته . .

**هزيمة نفسية :**

على أن هذا لا يعني أبداً أن يقف المجتمع الإسلامي بمعزل عن المجتمعات الأخرى فى كل شيء

فالناس للناس، من بدو ومن حضر ... بعض لبعض وأن لم يعلموا خدم

فهناك الصلات الدبلوماسية، والعلائق التجارية، والروابط الصناعية . . وعشرات الأسباب الدافعة إلى التلاقي . . فما موقف المجتمع المسلم من **ذلك كله؟ . .**

إن الجواب على ذلك ذو صلة وثيقة بقيمة الشخصية لدى المسلم . . فكلما كان أعمق تفهماً لدينه واعتداداً بفضائله كان أقدر على الانتفاع بكل ما يمر به من أحوال الشعوب سلباً أو إيجاباً، فمثله كمثل الجسد السليم يستحيل فيه الميكروب غذاء نافعاً، على حين يكون في أجسام المرضى بلاء ووباء . .

وقـد رأينـا أمثلة ذلـك من أحداث التاريخ، حيث كان المسلم فوق مغريات الدنيا، ففي ذاتيته من عناصر القوة ما يعصمه من الانحلال والذوبان فى الآخرين مهما يكن شأنهم. وقد تأتّي من ذلك أن كان المسلمون أيامئذ هم القوة الفاعلة، وكان الآخرون فى وضع المنفعل بإزائهم، حتى إذا نظر هؤلاء إليهم، لم يقفوا عند ظواهرهم من الزي البسيط والصور المألوفة، بل نظروا إليهم من خلال مآثرهم في الأخلاق والتقوى والعلم والتعاون والبسالة الفائقة، فتموج في صدورهم الأمنيات بأن يرتفعوا الى بعض مستوياتهم الخارقة هذه.

أجل كذلك بلغ المسلمون من قوة الشخصية فى الصدر الأول، فما كان لشيء أن يصرفهم عن رسالتهم التى هى (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام..)

ولكن هذه القوة قد بدأت بالتقلص منذ اليوم الذي تفتح فيه قلب العربي المسلم لمـواريث الأعـاجم فى طرائق التفكير وفنون اللهو. لقد بُهِر بما واجهه من هذا الجانب، ثم أقبل عليه يُقلب فيه الفكر والبصر، ثم ما لبث أن مازجه، حتى انتهى إلى أن صار أخيراً جزءاً لا يتجزأ من حياة الأكثرين.. وبذلك أخذ الانهيار سبيله الى شخصية الأمة التي مالبثت أن فقدت أصالة الرؤية، فإذا هي فريسة للتنازع الذي انتهى بها إلى النكبات المتلاحقة في كل ميدان..

وفي ظل هذه الهزيمة النفسية ينبغي أن يُنظر الى كل ما اعترى هذه الأمة من التدهور خلال القرون حتى الساعة. فليس ثمة من نكسة أو محنة تعرضت لها قط الا ومرجعها الى هذا الواقع، ذلك لأن وعد الله إياها بالكلاءة والنصر مشروط منذ البدء بالتزام سبيله **﴿وان هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولا تتّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** ٦/١٥٢. وعبثاً يلتمس المريض الشفاء إذا هو أغفل العلاج الذى وصفه الطبيب المجرب الحاذق، ومضى على هواه في ممارسة كل ما يزيد من بلائه.

ونظرة إلى المجتمع الإسلامي المعاصر تقدم لنا الصورة الشاملة للأخطاء التي لا يبرح يتخبط في ظلماتها منذ وضع قدمه في المنحدر.

وأول ما يواجهك من ذلك الواقع الرهيب زوال الحواجز العاصمة بين الإسلام والكفر. حيث ترى المسلم فرداً أو جماعة، ذكراً أو أنثى، لا يرى أي غضاضة في مشاركة الكافر أساليب عيشه، بل لعله يرى في ذلك مدعاة للفخر، لأنه دلالة على تحرره من معوقات التقدم!..

وأنت لا تملك قدرة على الاحصاء لأنواع المشاركة هذه، لأن منها الظاهر الذي يطالعك في الكتاب والصحف ووسائل الاعلام المسموعة والمنظورة.. ومنها الباطن الذي يتمثل في إعجابه بكل ما هو أجنبي.. وإنما جاء التقليد الظاهر ترجمة لذلك الإعجاب، الذي جره طائعاً الى التخلي عن الكثير من مقوماته، التي لا يكون المسلم إلا بها مسلماً.

ودعني أحدثك هنا عن ظواهر محدودة العدد من تلك المشاركات، التي لم تعد متروكة للمصادفات يواجهها المجتمع المسلم دون قصد ولا توجيه.. بل لا مندوحة عن الاقتناع بأنها مرسومة في دهاليز السياسات الخفية.

**١ـ مدارس التبشير :**

منذ استقرت أقدام الفرنسيين في سورية شرعوا في مطاردة الكتاتيب الإسلامية، وجعلوا يلاحقون الصغار ليسوقوهم إلى المدارس الحديثة.. وما هى إلا أويقات حتى توارى الكُتَّاب نهائياً وأخذت مكانه المدرسةُ الأجنبية.

وكنا ـ لقصر تجربتنا ـ نحكم على هذا التصرف بالخيرية ظنا منا أن الدافع إليه فقط هو حب العلم ونشره.. ولكننا بطآن ما أدركنا أن الغرض أبعد من ذلك، إذ جعلنا نحس آثاره في أبنائنا: بعداً عن الدين، وتعظيماً للكافرين، وتحبيباً بمسالك المستعمرين، الذين كان هذا ديدنهم في معظم المسلمين..

ومع الاستعمار استبحرت حركة التبشير، لأنها في الواقع سبقت الاستعمار في بعض الديار الإسلامية، وقد ركزت بوجه خاص على الأولاد والبنات.. واتخذت الى ذلك شتى المغريات..

ولم يعد خافياً على ذي حس هول هذه التجربة، التي تركت في أعماق الأجيال أبلغ الآثار، وبخاصة في مشاعر الانتماء الذي زلزلته التربية الأجنبية، فأخرجت المسلم من كيان جماعته، وسلخته من خصائصها، فهيأته لقبول أي لبوس. ولعل كثيرين لمسوا مثلنا بعض نتائج هذا الفصام، في سلوك الناشئين بأحضان هذه (المسالخ) إذ أصبحوا أقرب لموجهيهم منهم إلى ذويهم. وحسبي هنا أن أمثل لذلك بحادثين اثنين. أما أحدهما فيوم سمعت طفلة في حوالي العاشرة تحلف بالعذراء والصليب، فسألت عنها فإذا هي من أسرة مسلمة ولكنها شبت على مناهج المبشرين.

وأما ثاني الحادثين ففي كلام موظف كبير في معارف سورية، وقف ذات يوم في حشد من مرؤوسيه يحاضرهم عن التربية، وكان مما قاله: أهم واجبات المدرس إزالة الحاجز الطائفي من بين التلاميذ، حتى لا يشعر أحدهم بعازل روحي عن الآخر.

وضرب للسامعين المثل التالي فقال: كنت وزوجتي في سياحة باليونان، فلاحظت تحديق الناس بالمصحف الذي تحمله في قلادتها، فعارضتُ بين سبابتي راحتي حتى أشبها الصليب، ثم جعلت أقبله لأشعر القوم أننا لا نفرق بين المصحف والصليب، بل نحترم كلا من الاثنين على سواء!..

وما أرى حاجة للكلام عن خلفية كل من الحادثين، فهي إحدى ثمرات المناهج التبشيرية، التي خرَّبتْ البيت المسلم في صميمه، فقطعت وشائجه، وجردته من كل حصانة ضد المفسدات المهدمات..

ومع شمول الخطر التبشيري للجنسين من أبناء المسلمين، فقد ضوعف اهتمامهم بالأنثى على وجه الخصوص، وأعلنوا في مؤتمراتهم المسكونية أن إنشاء الفتاة المسلمة على طرائقهم هو السبيل الأقرب لتخريب الكيان الإسلامي بأسره.[٦]

---

(٦) راجع (التبشير والاستعمار) للدكتور عمر فروخ ومصطفى الخالدي.

٢ـ الهجرات الدراسية :

وحاجتنا الى علوم الغرب أكرهتنا على الهجرة إليه، ثم استحالت الحاجة إلى ضرب من التمجد، دفع الكثيرين الى تغريب أبنائهم لا ابتغاء العلم، بل منافسة على الشهـرة، فليس بالقليل في نظرهم أن يقـال إن ولـد فلان أو أولاده يتلقون دراستهم في أميركة أو بريطانية أو ألمانية أو موسكو! . . ثم ليكن عقب ذلك ما يكون من صياعهم أو فسادهم، أو تنكرهم لِقيم أمتهم . .

ونحن لا ننكر أن بين هؤلاء المغرَّبين عناصر كريمة استطاعت الحفاظ على ذاتيتها، فهي في اللهب ولا تحترق. . بل لعلها زادت ألقاً وصفاء عما كانت عليه في بلدها، ومرد ذلك الى عناية الله التى تولتها بالرعاية، وأحاطتها بالدعاة الهداة، الذين نثرهم الله في مختلف المواطن، كما نثر الكواكب في أنحاء السماء يضيئون ويعلِّمـون ويرشـدون. . يعلنـون في مهاجرهم كلمة الله، ويرفعون راية الإسلام خفاقة في الشعوب، التي لم تكن لتعلم شيئاً عنه، إلا عن طريق الأفَّاقين الأفاكين من أعداء الحق والخير. .

والمتأمل في واقع هؤلاء الفتية المرابطين في الغرب لا يتمالك من الدهشة تملأ صدره وهو يرى الى الى جهادهم المبرور في خدمة إخوانهم المبتعثين من أبناء الإسلام، وفي تعريف غير المسلمين بما جهلوه وما هم في أمس الحاجة إليه من أنوار هذا الدين.

إنهم بهذا الجهاد الدائب ينهضون متطوعين بالأعباء التي هي من واجبات الدول الإسلامية كلها، لا يريدون على ذلك جزاء ولا شكورا. . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا ييسره إلا لمن أعطى واتقى وصدق بالحسنى.

٣ـ الأصدقاء الألداء :

ولكن أبناء المبتعثين للدراسة لا يكادون يطئون أرض الغرب كل الغرب حتى يجـدوا أنفسهم تلقـاء (أصـدقـاء) متطوعين لاستقبالهم وتأمين راحتهم. . وأولى الخـدمـات التي يقـدمـونها إليهم إنزالهم على أُسرِ أجنبية يجدون عندها كل ما يعوزهم من الطعام والمنام والكلام . .

في هذا الجـو الغـريب يدرب الطالب المسلم على ما لم يألفه من الأخلاق والسلوك وكل ما يراد له من أنواع التغيير، وقد وصف ذلك أحدهم في وقفة مع أحد المذيعين في برنامج (على الناصية) سأله المذيع، أراك مسرعاً فإلى أين؟

ـ الى مكتب الخطوط لتأمين سفري الى اميركة. .

ـ لأول مرة هذا السفر؟

ـ كلا. . بل أنا هناك من سنين أداوم على الدراسة.

ـ هل لك أن تحدثنا عن حياتك في اميركة. . كيف استقبلتها أولاً وكيف أصبحت أخيراً؟

ـ لقد استأجرت سكناً لدى إحدى الأسر الاميركية، فعانيت الأمرين من اختلاف العـادات بيني وبينها، ولكن هذه الوحشة ما لبثت أن تبخرت يوماً بعد يوم حتى أمسيت واحداً منهم. .

وطبيعي أنه لم يصر (واحداً منهم) الا بعد أن نجحت الأسرة في ترويضه على طريقتها في الطعام والشراب والسلوك الاجتماعي. . وللقارىء أن يتصور المصير الـذي سينتهي إليه يوم يعـود إلى أهله وبلده. . وبـأي عين سينـظر الى اخلاقنا وتصرفاتنا، المغايرة لكل ما تشربه في ذلك الوسط البعيد.

**٤ـ البعثات العسكرية :**

ولهـذه البعثات حديث لا يقل طرافة عن أخبار التبشير والترويض والتغريب، التي كتب على أبنائنا وبناتنا أن يخوضوا غمارها دون أي حصانة سابقة. . وأقتصر من موضوع هذه البعثات على الكلمة التالية أنقلها من ترجمتي للمفكر الإسلامي المعروف اللواء محمود شيت خطاب في ج ١ من كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم) ص ٣١٠ ـ ٣١١. قال لي اللواء وهو يحدثني عن بعثته الى بريطانية: (من المألوف أن يتولى مساعد الكلية تقديم الضباط القادمين من وراء البحار الى عميدها عقيب وصولهم. وكان هذا العميد احد أبطال العبور الى النورماندى أثناء الحرب العالمية الثـانية، فجعـل يسـأل كلًا منا عن حاله وبلده و. . وجاء دوري فسألني: لماذا قدمت؟ فقلت لتجـديد معلوماتي العسكرية. . فعقب على كلامي متهكماً: بل

قدمت لمغازلة الفتيات! . .

وكتمت غيظي وقلت في نفسي ان هذا يحكم علي بما شاهده في سواي . . ولما ذهبت الى السكن المخصص لي وجدت فراشاً وفتاة تعمل في ترتيب غرفة نومي، فانتظرت في البهو . حتى إذا خرجت سألتني : هل لديك من توجيهات؟ . . قلت : شيء واحد هو أن تحضري لأداء مهمتك أثناء غيابي فقط .

وأقبل المكلف بإعداد الطعام يسألنا عن الألوان التي نريد، فعددت له المحرمات التي أرفضها، والألوان التي أرغب فيها . . بخلاف رفاقي الذين آثروا الاندماج معهم في كل شيء .

ويقول اللواء : كان الفرأش يلح عليَّ بزيارة منزله كما يفعل زملائي فى التردد على مساكن فراشيهم، فأرد دعوته بلطف، لأني على يقين أنه وسائر الخدم المخصصين لنا ليسوا سوى جواسيس وموجهين . وذات يوم جاءني العميد . . وفي أدب بالغ يعرض علي مرافقته في نزهة بين الآثار، وهناك بادرني بالاعتذار عما اسمعنيه في لقائنا الأول، مؤكداً لي العميق من احترامه وتقديره . .

واكتفى بهذه الصورة المصغرة لأوضاع لا تتسع لها الصفحات الكثيرة . . ولنتساءل : كم بين أولئك البعثات من رجال استطاعوا أن يقفوا موقف هذا الضابط الإسلامي، ويظفروا من عمدائهم بمثل التقدير الذي استحقه من ذلك العميد الداهية! . .

ولا حاجة للاسهاب في الجواب، فالأمثلة ناطقة في واقع المسلمين الذين تقبض على مقدراتهم تلك الأيدي التي تلقت تدريبها وتركيزها في أمثال تلك البعثات . . ولو نسي المسلمون كل مآسيهم لم يحق لهم أن ينسوا بعد أن الانقلاب الماركسي الذي يستهدف اقتلاع جذور الاسلام من أرض الأفغان، إنما جاء به ضباط ابتُعثوا الى موسكو للتدريب على فنون الحرب، فغُسِلت أدمغتهم هناك من قيم أمتهم، وعُوضوا عنها ظمأً لا يرويه الا القضاء على كل رجال الإسلام، وكل فضائل الإسلام .

**إنها قضية الإسلام:**

هذه الحقائق أشهر وأكبر من أن تكابر أو تنكر، فهي بمرأى ومسمع من كل ذي بصر، يشهدها حيث مضى أو أقام من بلاد الإسلام.. ولئن ألفها الأكثرون حتى باتوا منها كالأجرب الذي يمزق جسده بأظافره دون أن يفكر في عواقب إهماله.. إن أولي الوعي من المسلمين هم الذين يقدرون مسئوليتهم بازائها، لأنهم يدركون ما وراء تجاهلها والسكوت عليها من سوء المصير.

ولكن.. ما الذى يستطيعه هؤلاء لوقف القطار الزاحف نحو الهاوية؟.. حقاً إن الموقف لمحيِّر بل مذهل، فالزمن يجري بسرعة، والفُرص تتفلت بغير توقف.. وكل تردد في بذل المحاولات الممكنة معقب للندم اللاذع..

وليست القضية قضية شخص يهلك، أو طائفة تنتحر، كما فعل المئات من جماعة (معبد الشعب) في (جونز تاون) ولكنها قضية الإسلام الذي لم يبق سواه موئلاً لأمم العالم، التي فقدت الدليل الهادي الى طريق الخلاص.. أفيكتفي أُولو الوعى هؤلاء بالدموع يذرفونها، والدعوات يرفعونها، دون أن يلوِّحوا برايات الخطر لتحذير الركب الغافل من النهاية الرهيبة!..

إن على هؤلاء، في أي موقع كانوا من سفينة الإسلام، أن ينذروا قومهم، فيبصروهم بواقعهم الذي يجهلون، وبالفجائع التي هم عليها مقبلون.

لقد حذر رسول الله ﷺ كل مسلم خطر الإقامة بين أظهر المشركين، أيام لم يكن للإقامة سوى صورة واحدة هي مخالطتهم خشية أن تسري عدواهم إلى أخلاق المسلمين.. أما الآن فقد تعددت صور الإقامة حتى تجاوزت الاحصاء..

فمدارس التبشير دار إقامة للفتى المسلم والفتاة المسلمة..

والهجرات الدراسية الى ربوع الكافرين دار إقامة للطالب المسلم...

والبعثات على اختلاف مسمياتها أشكال مختلفة لهذه الإقامة..

والفنون الهابطة تغزو البلد المسلم، والبيت المسلم، والنفس المسلمة، ملفوفة بأشرطة السينما، أو في معروضات التلفاز، أو الفيديو.

والمؤلفات الملغومة بمغريات الجنس. . والتمثيليات الاذاعية المحشوة بسموم المفاسد الغربية. .

كل أولئك وأمثاله مما عُهِد وما لم يُعهد بعد، صور للإقامة المنطوية تحت تحذير رسـول الله صلى الله عليه وسلم والمشمولة ببراءته صلوات الله وسلامه عليه من أصحـابها. . ما دامت مفتوحة النوافذ لتسرب الأوبئة، التي توشك أن تأتي على البقية الباقية من الحوافظ العاصمة للذات المسلمة. .

ورب معترض يقول: ولكنها الضرورات تبيح المحظورات. . ولا ضرورة في هذه الأيام أكبر من الانتفاع بما سبقنا إليه الغرب في حلبات العلم والصناعة. . فهل يرضى الإسلام لنا أن نظل في أواخر الركب البشري محرومين من كل أسباب التقدم؟. .

والحق أن هذه إحدى المغالطات. . لأن الإسلام عندما يحظر على المسلم الإقامة في أوساط المشركين انما يريد حمايته من الانحلال والذوبان في غيره من الأقـوام الذين زاغت بهم الأهواء عن طريق الله، وقد غرهـم ما علموا من ظواهر الحياة الـدنيا، فهم لا يفرقون بين حق وباطل، ولا حرام ولا حلال، واستهوتهم الشهوات حتى أصبحت الأصل الذي ينهض عليه وجودهم كله. . وأي وباء يمكن أن يهـدد كيان المسلم أكثـر من أن يألف هذا الاسلوب المنـافي لكل ما توارثته الانسانية من تعاليم الله!. .

وينسى في الوقت نفسه ذلك النذير الإلهي الذي يقرؤه في كتاب ربه **﴿والله يُريدُ أن يتوبَ عليكم، ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ ٤ / ٢٧** .

**﴿ومن أظلم ممَّن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه﴾ ١٨ / ٥٧** .

**الطريق الصحيح الى التصحيح :**

على أن إقحام كل شيء في نظام العلم والصناعة مغالطة أخرى، وإلا فما شأن الفنون المثيرة للغرائز البهيمية في العلم والصناعة؟

هذا مع التذكير أننا لا نتنكر للفنون، لأننا نعلم أن النفس البشرية مطبوعة على طلب الجد واللهو. ولكننا نؤمن أن لكل أمة فنها ولهوها، والفنون الإسلامية لابد أن تكـون منبثقـة من صميم التصور الإسلامي، فطبيعي أن تمتاز بلون الفضيلة والأخـلاق الـلائقة بروح الإسلام.. فتطهير أجهزة الإعلام إذن من تلك الفنون الدخيلة المغايرة للقيم الإسلامية واجب لا مندوحة من تحقيقه إذا كنا نؤمن بالله واليوم الآخر. ومرفوض كل ادعاء يزعم أننا عاجزون عن تقديم البديل الإسلامي الممتع النافع، فالقلم المؤمن لا يزال بحمد الله قادراً على العطاء فى كل ما لذ وطاب.. ولن يعوزه لأداء ما عليه إلا أن يفسح له المسئولون عن اجهزة الإعلام مجال العمل والانتاج..

ومثل ذلك يقال في مدارس التبشير، فما دمنا ندرك بيقين أنها البؤرة المفسدة للأجيال فلا بد من مقاطعتها ورفع براثنها عن أعناق أبنائنا وبناتنا، ثم تحويلهم الى مدارس إسلامية تسد فراغها، بل تفوقها بكل الأسباب المؤدية الى التفوق.. وفي مدارس المنار في الرياض والمدينة وجدة وغيرهن أنموذج صالح لهذا البديل الذي نتطلع اليه ونتمنى له المزيد من الانتشار.

أما الهجرات الدراسية والبعثات الأخرى.. فلا نقول بمنعها البتة، ما دام ثمة ضرورة لهـا، ولكننـا نقول بوجوب تحصينها ضد السموم التى أتلفت الكثير من أنسجة الحياة فى اجيالنا حتى الآن.

وفي تاريخنا الحديث تجربة رائدة في هذا المجال يجب أن نعقلها وننتفع بها الى اقصى حدود الامكـان تلك التجـربة التى اختطها محمد على باشا يوم بدأ مشـروعاته في تحديث التعليم، فوجه أول بعثة الى فرنسة، بعد أن زودها بكل الحوافظ المانعة، فألزم أفرادها الحفاظ على زيهم الوطني، والإقامة في بناء خاص يصـونهم من الخلطة المفسـدة، وأمـدهم بفقيه يعـالـج مشكلاتهم اليومية بروح الشريعة السمحة.

ولم يكتف بذلك بل أقام المعاهد الضرورية على أرض مصر أيضاً، واستقدم لها كبار المدرسين الأجانب.. وبالغ خلال ذلك في تثبيت الطابع الإسلامي على

نفوس الطلاب . .

وإنما فعل محمد على ذلك لما أدركه بفطرته من أن سلامة هذا الطابع هو الأساس الذي يتيح للتعليم الحديث أن يؤدى دوره في رفعة الأمة وتمكينها من السمو الى المكانة اللائقة، وأن أي تهاون في هذا الجانب معطل لفاعلية العلم، إذ يجعل صاحبه كمثل الحمار يحمل أسفاراً . .

وإذا كان هذا ما هُدِي إليه ذلك الأمي بفطرته السليمة، فأحرى بنا أن نفيد من نهجه، ونبالغ في التزامه، بعد الإخفاق الكبير الذي منيت به بلاد الإسلام، بسبب إهمالها تلك الأفواج التى تتدفق من أبنائها الى الغرب والشرق، دون حصانة، من علم ولا هدى ولا كتاب منير . .

ولا جرم أن فى سلوك هذا الطريق الوضيء خير وقاية للبعوث الإسلامية من مخاطر المخالطة التي حرمها الله ورسوله، وانجح وسيلة لاشعار المسلم أينما كان بقيمته، واعتداده بشخصيته المستمدة من قوله تعالى : **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين! . . ﴾**

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيه الأمين، وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

# الترف وأثره في مصاير الأمم

فى ظل الحضارة الإسلامية إذْ كانت الأسس الأولى للثقافة مستمدة من ينابيع الـوحي، ومدعومة بالتذوق البياني من روح العربية، كان الإنسان المسلم مؤهلا لفهم تراكيب القرآن في كثير من اليسر. فقد يواجهه الإشكال في لفظ أو تعبير، فلا يعجل إلى الحكم فيه حتى يعرضه على مقاييس القرآن والسنة، وحتى يستشير به قوانين الكلام العربي.. ثم خَلَفَ من بعد تلك الأجيال خَلْف، أضاعوا هُويتهم الإسـلامية، وغلب عليهم الجهـل بلغـة العـرب، وتضاءلت صلتهم بالقرآن بل أوشكت تنبت. فكان طبيعياً أن تتعثر أذهانهم بإزاء معاني الوحي. فتشتبه عليهم إشاراته. وتستغلق في عقولهم مدلولاته. فتضطرب أحكامهم على الآية والحديث. كما تغمض الرموز الرياضية على من لم يلم بدساتيرها الأولى، حتى ينتهى بهم الأمر الى الغرور المركّب. فإذا هم يجهرون بشكوكهم المريضة كأنها حقائق لا تقبـل النقض.. وهكـذا! بتنـا نشـاهد من ذلك الأعاجيب، إذ نسمع الكبار من المغـرقين في الجهـل بلغـة القرآن يرمونه بالتناقض، وينبذونه بالأساطير، لانهم يواجهون الآية من كتاب الله. فتعجز أفكارهم عن الإحاطة بمضمونها، لأنهم لا يحسنـون تتبـع معانيها في مجموع الكتاب المحفوظ، ولا يملكون القدرة على استشرافها في ضوئه الشامل، وقد تضخم بهم الغرور حتى استنكفوا أن يسألوا بها أهل الذكر، فراحوا يعاملونها بسلطة الاستبداد التي فرضوها على شعوبهم..

والمشكـلات التي أثارتها الجاهليات الجديدة حول آيات الله كثيرة، يقتضي استقصاؤها الزمن المتطاول، والصفحات الكثيرة، والأشكال المختلفة من وسائل الإعـلام، وكـل أولئـك متعـذر في نطاق الجهد الفردي، ولكن إغفاله من كبائر المناكر، وما لا يدرك كله لا يترك جلّه.

كثيرا ماووُجهت فى فصـول الـدراسة وخارجها، ومن قبل جاحدين وحائرين، وراغبين في الحق، بالسؤال عن معنى قوله تعالى: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرْنَا مُترفيها، ففسقُوا فيها فَحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً﴾** الاسراء ١٦ . وطبيعي أن يكون تصوّر كل من السائلين عن الآية مما ينسجم مع أفكاره الخاصة. وما دام غير المؤمن منصرفاً إلى مجرد العناد، والتنقير عن مستنداته بالغةً ما بلغت من التهافت، فلا مندوحة عن إثارته الغبار حول لفظ (أمرنا مُترفيها) من نظم الآية. وأول ما يشد أذهان السائلين من هذا التركيب هو التعقيب على أمر المترفين بالفساد (ففسقوا فيها) أما المؤمنون فيعلمون أن الله لا يأمر بالفحشاء. ولا يكلف إلا بالحق والخير، ومن هنا يفهمون أن ثمة حكمة ربانية قاهرة تتجلى في كون الدمار مقروناً بمعاصي الله، فمجـرد الفسـوق عن طاعتـه مؤدٍ إلى انحـلال القوة، سواء في ذلك الفرد والجماعة، والقضاء عليها قضاءً مبرماً لا يتخلف.

وأما الذين في قلوبهم مرض فلا يرون لذلك من مفهوم سوى أن هناك تكليفاً من الله للمتـرفين بالفسـاد، حتى إذا فعلوا ما يؤمـرون حق على مجتمعهم العذاب الحاسم.. فالقضية بنظرهم قاطعة بنسبة الظلم إليه تعالى، لأن هؤلاء المترفين لم يفعلوا سوى ما قُدِّر عليهم أن يفعلوه. وهو التقرير نفسه الذي يسيطر على قلوب العـامـة من المسلمين، الـذين يختلط عليهم أمـر القضاء والقدر، فينزعون إلى الاعتقاد أن الإنسان مكبل بقيود الجبرية التي تسلبه كل اختيار.. ولا جرَم أن مرد هذا التخليط الى جهل هؤلاء وأولئك لروح الإسلام، الذي ينزّه الله تبارك وتعالى عن كل ظلم، ويوضح لكل ذي تفكير سليم أنه سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها. وأن القدر في ضوء الوحي لا يعدو العلم الإلهي السابق بكل ما حدث ويحدث من صغيرة وكبيرة.. فإذا كتب على مخلوق الشقاء وهو في رحم أمه أو صلب أبيه، فمعنى ذلك أنه تعالى أحاط علماً بما سيقترفه مختاراً من موبقات تزج به حتماً في هذه الهاوية.. وليس في ذلك أي إلزام له، بل هو العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.. كعلمه سبحانه بأحوال أهل الجنة وأهل

النار وتحاورهم وما سيقول كل منهم للآخر يوم يصير كل من الفريقين إلى مستقره. .

إن المشكل كله محصور بالدرجة الأولى في دلالة (الأمر) بوصفه جواب الشرط لصدر الآية، ثم في مدلول (الإرادة) المسببة لهذا الجواب.

ويحسن بنا قبل استقصاء الصور اللغوية للكلمتين أن نتأمل موقع الآية في السياق المحيط بها من سورة الإسراء. . لنلاحظ المدلول العام الذي يوحي به.

فالسورة تبدأ بخبر الإسراء الذي أكرم به الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم. فجمع له به قيادة المسجدين، وريادة الوحدة الإنسانية وإمامه النبيين. ثم لمحةً عن ماضي إسرائيل وما عرضوا له أنفسهم من نكال الله بسبب انحرافهم إلى معاصيه. وتحذيراً لأمة محمد من مثل سلوكهم الصائر حتماً إلى مثل مصيرهم. ويعقب ذلك أهمية القرآن في ضمان الهداية إلى الأقوم من كل أمر ثم التذكير بطبيعة الإنسان. وقابليتها للسمو والهبوط، وحاجتها الماسة إلى دوام الاستمساك بحبل الله العاصم وتحذير المؤمنين من التهاون بهذه الأمانة. ويتخلل ذلك توجيه إلى آيات الله في النظام الكوني، وتقرير المسئولية الشخصية ليكون الإنسان على ذكر مستمر ليوم الحساب. .

وهنا تأتي الآية موضوع البحث لتؤكد أن مسئولية العمل ليست موقوفة على ما بعد الموت، بل لا بد من تحققها في الدنيا أيضاً، بترتب كل نتيجة على مقدمتها. . فكما أن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها، كذلك جعل الله دمار المجتمعات البشرية نتيجة مباشرة لذيوع الترف وطغيان المترفين.

وتتالى الآيات بعد ذلك في الاتجاه نفسه تبيّن زهادة متاع الدنيا، وتؤكد على القيم العليا، التي هي طريق الإنسان الكريم إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. . وأثر ذلك يعود إلى أهمية التوحيد ووجوب إفراده تعالى بالعبادة، التي منها تحقيق هذه المبادىء التي اصطفاها سبحانه لعباده رحمة بهم، مازجاً ذلك بالقواعد التي عليها يقوم تنظيم الأسرة والمجتمع المؤمنين، وطرائق الإنفاق الذي لا يجوز أن يتجاوز حدود الاعتدال. .

فالسياق إلى حدود الآية الأربعين منصب على ترسيخ الضوابط الحاسمة التي تصون مسيرة المجتمع المؤمن من الزلل والخلل. . وهي بمجموعها أضواء كشافة تحدد مفهوم الآية، بالنظر إليها في ظلال الكل المتكامل.

**تعدد القراءات ودلالاتها:**

والآن ننصرف الى دراسة الآية الكريمة بعد أن اتضحت متعلقاتها وتعين هدفها. ونبدأ بالجانب اللغوي لمعنى «الأمر» في كلام العرب، ولدى ثقات العلماء.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره: اختلف القراء في قراءة قوله (أمرنا) فالمشهور قراءة التخفيف. . وراح يعرض للمعاني التى ذهب إليها مفسرو هذه القراءة، ومن ذلك ما رواه عن بعضهم من قوله: إنه سخرهم لفعل الفواحش فاستحقوا العذاب، وعن بعضهم الآخر أن معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة، وهو ما رواه ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأشار إلى القراءة الأخرى بالتشديد، على معنى أنه مكّن لهم من «الامارة» فعدلوا عن العدل فاستحقوا العقوبة» وقد وقف عند هاتين القراءتين ولم يتجاوزهما إلى الأُخريين، (آمرنا) ـ وزن فاعَل ـ و (أمِرنا) ـ مثال عَلِم ـ فكأنه استضعفهما فلم ير إثباتهما. . ولكنه أشار إلى معناهما من «التكثير» فأثبت في ذلك رواية العوفي عن ابن عباس بقوله (أمرنا مترفيها) أكثرنا عددهم. ومثل ذلك عن عكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعن مالك عن الزهري. . ثم ذهب إلى الاستشهاد على هذا المعنى بالحديث الذي رواه الإمام أحمد عن. . سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (خير مال امرىءٍ مهرة مأمورة. . ) وأورد تفسير الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام للمأمورة بأنها الكثيرة النسل. . والذ ي ذهب إليه الحافظ ابن كثير في هذا السياق يكاد يكون زبدة كلام المفسرين الثقات لما نحن بصدده.

وعقد البخاري رحمه الله لهذه الآية باباً في كتاب التفسير من جامعه الصحيح، وفيه يروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ـ قال: كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية (أمِرَ بنو فلان) وضبط الفعل بكسر الميم وِزان عَلِم، ثم عقّب على ذلك

بقوله: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان وقال: (أمَرَ) ضابطاً إياه بالفتح . . على أنهما روايتان عن عبدالله رضي الله عنه.

وفي شرح الحديث لابن حجر العسقلاني رحمه الله في فتح الباري يؤكد هاتين اللغتين، ويرد على من أنكر إحداهما . . ثم أثبت ما ذكره ابن كثير عن ابن عباس، وأثبت قراءة المد عن أبي رجاء وغيره، وقراءة التضعيف بمعنى «التأمير» عن النهدي. ويقول: حكى أبوجعفر - الطبري - عن ابن عباس أنه قرأها بكسر الميم . . وعامة كلام ابن حجر يشير إلى أنه يقرر المعنيين (أمر بالطاعات) على الحذف، و (أمِرهم الله) أي كثّرهم . .

وفي اللسان: ومعنى آمرنا - بالمد - أكثرنا. وقرأ الحسن: أمِرنا مترفيها مثال عملنا . . وقيل إن معنى أمِرنا مترفيها - بالكسر - كثرنا مترفيها. ويستشهد لذلك بحديث المهرة المأمورة - المتقدم - وقال أبوزيد: مهرة مأمورة هي التي كثر الله ولدها. يقولون: أمِر الله المهرة أي كثر ولدها . . ومنه قول أبي سفيان: لقد أمِرَ أمْرُ ابن أبي كبشة . . وعن أبي عبيدة: آمرته بالمد وأمِرْته لغتان بمعنى كثرته.

وخلاصة ما تقدم أن في (أمر) معاني وقراءات تدور حول ما يلي:

١- أمَرْنا مترفيها: كلفناهم ما يصلح حالهم وحال من معهم فرفضوا التكليف إلى الفسوق فأُخذوا بالعذاب.

٢- أمِرنا مترفيها: كثرناهم فغلب شرهم حتى فسدوا وأفسدوا فوقع العذاب.

٣- آمرنا مترفيها: وهي بالمعنى الآنف نفسه.

٤- أمّرنا - بالتشديد - قضت مشيئتنا بوصولهم إلى الإمارة والتسلط.

وإذا نحن أنعمنا النظر في هذه المدلولات وجدناها ذات نسب متشابك، فالفعل (أمر) ثلاثياً - وزان نصر - ينطوي على المعنى العام الذي هو القدر المشترك بين معظم الصيغ، وهو التكثير، ثم ينفرد بخاصية هي أنه يحمل معنى التكليف، وكذلك الفعل المشدد يزيد على ذلك وهذا معنى الإمارة والتسلط . . وكلا المضمونين غير بعيد عن مفهوم الكثرة ذلك أن التكليف في المدلول الأول منصب على جمع هم المترفون، ولابد أن يكونوا ذوي قوة وسلطان، يبلغان حد التفوق،

ومن هنا يكون متضمناً معنى التسلط والتأمير. وهذه الصفات تفيد الكثرة من حيث دلالتها على سعة التأثير الذي لا يتصور صدوره من الأقل أو الأضعف، ولا يضير هذا التداخل كون المعتمد من القراءات هو المجرّد وزان نَصَر والمضعّف وزان شدّد، لأن انفرادهما بالأولوية لا يمنع الاستئناس بالأشكال الأخرى، ولا سيما من الناحية اللغوية. هذا إلى أن من القراءات الشاذة ما يرتفع إلى مستوى الصحة، إذ ليس كل شاذٍ مردوداً، كما نص على ذلك أولو العلم.

بقي أن ندقق في مفهوم الشرط الذي صدرت به الآية الحكيمة، فمحدود الإدراك ليس من شأنه أن يلمّ بمعنى الإرادة عندما تسند إلى الله عز وجل، ولعله هنا لا يفهم إلا أن الرب سبحانه قد أصدر حكم الهلاك على أمةٍ ما، فحرّك مترفيها لتوفير أسبابه، حتى انتهى الأمر بها إلى الدمار، كما يؤرث رجل عوامل الشقاق بين اثنين ليقضي عليهما معاً. . وتعالى ربنا عن ذلك. لأن الإرادة الربانية إما أن تكون كونية كما يرى الإمام ابن القيم، تتعلق بالنظام العام الذي يربط بين المقدمات ونتائجها، وإما شرعية تضع المكلفين أمام واجباتهم فيعملون باختيارهم لاستحقاق المثوبة أو العقوبة.

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله (فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشيء السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب).

ولإيضاح ذلك نذكر أن من معاني الإرادة الكونية أن أي شيء لا يمكن أن يحدث في الوجود إلا إذا شاء الله حدوثه. . وهو ما ضل عنه المعتزلة، إذ فَصَلوا إرادة الله عن فعل العبد، فزعموا له القدرة المطلقة على كل ما يفعل بمعزل عن المشيئة الإلّهية، وهو قول آفن يتهم الله تعالى بالعجز حتى يقع في ملكه مالا يشاء. . بل إنه تقرير لمذهب اليهود الذين تنسب كتبهم المقدسة الى الله أنه حزن وندم لِما أصاب أسلافهم. . تعالى الله عما يقول الظالمون. وعلى هذا يتضح أن إرادة الله هلاك القرية ـ والمقصود بالقرية كل مجتمع بشري ـ تعني بيان أثر النظام الذي ربط الله به بين كل سبب ونتيجته، حتى لا تحدث حركة إلا رافقها، مردُودها. . والمجتمع الذي سلك مزالق الهلاك بإهماله المترفين، قد حقت عليه

إرادة الله بإهلاكه الذي لا مفر منه، لأنه نتيجة إصراره. ولا خلاف على أن الأمة التى تفسح للفسقة مجال التهديم في بنيانها، دون أن تتخذ الأسباب لوقف أخطارهم، إنما تسوق نفسها باختيارها إلى النهاية الفاجعة التى هي غاية كل زيغ عن سبيل الرشاد.

**الترف لا يكون إلا شراً:**

بقي أن نتساءل: ما الفائدة العلمية التي تحصل عليها من هذا التخريج؟ والجواب: إنها فوائد لا فائدة.

فأولى هذه الفوائد أن فيها دحضاً حاسماً لدسائس المشككين، الذين يحاولون إيهام البسطاء، من العامة وأرباع المتعلمين، بوجود ما يزعمونه تناقضاً في معاني الذكر الحكيم.. وقد تعالت في الزمن الأخير صيحات مشبوهات أراد الناعقون بها استغلال المحن التي يعانيها حملة الإسلام، ليجددوا بها محاولات أساتيذهم من عهد ابن النغريلة ـ اليهودي الأندلسي ـ إلى الأب لا مانس المبشر البلجيكي، والخوري يوسف الحداد اللبناني، في نطاق هذا التضليل.. فإذا كان من معاني الأمر التكثير افتضحت محاولاتهم، لأنهم لا يستطيعون الإنكار لآثار الترف في إفساد الأمم.

وثانيهما إبراز النظام الإلٓهي الذي ربط بين الترف والفسوق، وهو من الواقع المنظور في كل مكان فما كثر المترفون في بلد إلا أسرع إليه الانحلال، وفقد الضوابط الخلقية التي تحفظ عليه توازنه وتماسكه.

ومعلوم أن الترف شيء زائد عن الثراء، فليس لزاماً على كل ثري أن يكون مترفاً. لأن الترف سوء التصرف بالنعمة وهو يمثل الطرف المقابل للاقتصاد، الذي هو التزام الاعتدال في معاملة المال، فالمترف قصير مدى الفكر لا يكاد يرى أبعد من لحظته العابرة. إنه في نطاق الخير شديد الحرص حتى الشح، وإذا اضطر للإسهام في أي مجالات البر عمد إلى استيفاء الثمن عن طريق الشهرة أو الرشوة، وكلاهما ذريعة إلى الاستعلاء، وإلى مزيد من الاستغلال. على أنه من الجانب

الخـاص بذاتـه شديد التبذير. . لا همَّ له إلا إظهار القدرة على الاستمتاع بكل طريفٍ من الملاذ. . مدفوعاً إلى ذلك بحوافز الغرور، الذي يخيل إليه أن غاية الحياة لا تعدو تضخيم الذات، والتفوق في كل منافس على تحقيق الشهوات، إلى حد يجعله موضع الهزء والاشمئزاز لدى العقلاء.

وهكـذا ينحصـر أثر المترف من مجتمعه في الترويج لعبادة المادة، والإزراء بالقيم، والاندفاع المجنون خلف المتاع الزائل. . فلا يتمالك قصار البصيرة أن يقتفوا خطواته في المنحدر نفسه، حتى ينتهوا إلى المصير الذي سبق إليه قوم نوح عليه السـلام، حين استهواهم مسلك هؤلاء الفسقة، فعصوا رسول ربهم، (. . واتَّبعوا من لم يَزِده مالُه وولدُه إلا خَساراً) نوح/٢١. حتى إذا غلب هذا الأسلوب من الزيغ على سواد المجتمع ـ كما هو الشأن في الكثير من ديار المسلمين فقد ضوابطه العاصمة، وارتطم في مهاوي الانهيار. وبذلك يكون قد سعى الى حتفه بظلفه، وانتهى إلى الدمار الموعود. ﴿سنة الله في الذين خَلَوا من قبل، ولن تَجد لسُنّة الله تبديلاً﴾. ومن ثم كان الترف قرين المذمة في القرآن العظيم، حتى إنه لم يرد ذكره في أربع عشرة آية إلا في معرض الوصف لجرائر الكافرين، كقوله تعالى عن أصحاب الشمال (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يصرون على الحِنت العظيم) الواقعة ٤٥، ٤٦. وقوله في حال المعاندين لرسالة النبيين، (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة. . وأترفناهم في الحياة الدنيا: ما هذا إلا بشر مثلكم) المؤمنـون ٣٣. فالتـرف عنـد هؤلاء وأولئك مدعاة لبلادة الأذهان وغلظ القلوب، ثم التحلل من كل التزام خلقي.

### الاستعمار قمة الترف

وكمـا يكـون التـرف فى الأفراد يتمثل كذلك في المجتمعات الدولية، وليس الاستعمـار الاقتصـادي، وسـطو الـدول القوية على مرافق الشعوب المتخلفة، ومحـاولـة تجميدهـا على حدود التخلف في الإنتاج والإتقان توصلاً إلى الكفاية الذاتية، ليس ذلك كله سوى ظواهر متعددة لحقيقة واحدة هي احتكار وسائل الترف

للمجتمعات المستغلة، واستقباء هذه الوسائل خاضعة لرغباتها.

وبينما كنت أسطر هذه الكلمات كان المذياع يبث أخبار المؤتمر السكاني المعقود في بخارست والذي يتولى النظر في موضوع تزايد الجنس البشري، الذي يشكل ـ بنظر الدول المترفة ـ أكبر الأخطار على موائد الأرض، فهم يريدون إقناع المحرومين بأن السبيل الوحيدة لتدارك الهول هي تعقيم شعوبهم بما يسمونه تحديد النسل، حتى لا يضطر أولو النعمة إلى تعديل واقعهم، القائم على إطلاق الغرائز التي لم تألف الحدود.. وقد استرعى انتباهي من خطاب الممثل الهندي قوله في وصف الفجوة بين الفريقين: إن جذور الأزمة العالمية منبثقة من إسراف الدول الصناعية في استهلاك المرافق الضرورية للجنس البشري.. وهي كلمة حق من شأنها، إذا ترجمت إلى عمل، أن تشد الكوابح على سُعار أولئك الذين لا يفهمون من الحياة إلا أنها خُلقت لترفيههم، ولو اختنقت البشرية كلها تحت كابوس الجوع.. حتى سباق التسلح الذي يستنفد نصف جهود الانسانية، وما يستتبعه من تنافس على ريادة الفضاء، الذي يستهلك آلاف ملايين الدولارات والروبلات، لا غرض لهما في المدى البعيد سوى محاولة الظفر بأكبر قسط من الرفاهية على حساب الشعوب التي يريدها كل من الطاغيتين أن تظل مسخرة لشهواته.

**الأمن فوق الترف**

وإذا كان ذلك محصول الترف في الإنسان الذي فرغ قلبه من نعمة الإيمان، فللمؤمن سبيله الأخرى التي تحددها في حياته الثقة بحكمة خالقه، الذي نظم مرافق الوجود، على أسس العدالة التي لا سبيل غيرها لأمن البشر وسعادتهم فلا تخرجه النعمة إلى البطر، ولا يكرهه الفقر على الهوان.. فإذا رزق اليسر شرك به المحروم بأداء حقه الذي حدده الشارع الحكيم، وعلى الصورة التي وصف بها الله عباده المحسنين (الذين يؤتُون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة أنهم إلى ربهم راجعون) المؤمنون ٦٠. وهو الى ذلك معتدل في الارتفاق بما رُزق، فلا يبذر لأنه لا يرضى لنفسه أن يحشر في الزمرة التي قال الله فيها (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين،

وكان الشيطان لربه كفوراً) الإسراء ٢٧ . ولا يقتر، لأنه موقن أن لنفسه وأهله حقاً في طيبات الحياة الدنيا وزينتها (قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الزرق) الاعراف ٣٢. وبذلك يحقق التوازن بين الحاجة والقيمة، فلا يهبط إلى درك الحيوان، ولا ينزلق إلى مهاوي الطغيان، وإنما يظل متماسكاً في المستوى اللائق بالإنسان الفاضل، الذي يكون المال في يده وسيلة إلى إصلاح الحياة، في حين يستحيل في يد غيره معولاً للهدم، وأداةً للإفساد. وما أعمق إشارة رسول الله صلوات الله عليه وسلامه إلى هذه الحقيقة في حكمته الخالدة: (نِعمَ المال الصالح للرجل الصالح)(١) ومن الطبيعي جداً أن مجتمعا تتمكن منه هذه الفضائل لن يرضى عن تنكر بعض أفراده لها،إذ يستهويهم التقليد فيسرفون في الشذوذ.

**الآية قانون إلّهي:**

وقصارى القول أن الإشكال الذي يتخيله الغافلون، ويبتدعه المضللون حول الآية الكريمة، سرعان ما يتلاشى في ضوء التحقيق الصحيح، الذي يقدمه العلم، مستمداً من وحدة النظام القرآني في مجموع أحكام الكتاب الذي لا يأتيه الباطل، ومستنداً إلى الأصول الثابتة البيّنة من فقه العربية، التي لا تسلس قيادها للغافلين من ذوي الضمائر المدخولة. . وبذلك تتجلى الآية في أفقها الهادى قانوناً إلهياً يكشف للعقل واحداً من كنوز الكتاب الذي لا تفنى عجائبه. . أجل. . إنه قانون كأيٍ من هذه القوانين القائمة عليها حركة الكون، لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها. . فكما تجري الشمس لمستقرها، ويتنقل القمر في منازله، وتتعاون مركبات الذرة على تحقيق نظامها، بقدرة خالق الكل، هكذا قدر سبحانه أن تكون سعادة الإنسان موقوفة على الانسجام مع أوامره ونواهيه، وأن كل زيغ عن سبيله صائر بصاحبه إلى هاوية الشقاء الحتم. . ولا جَرَم أن تكاثر المترفين في مجتمع ما، وشيوع طرائقهم في عبادة المادة، والتنافس على الشهوات، دافع بالمجتمع إلى الدمار المؤكد. وصدق الله العظيم (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً).

فهل من متدبر؟ . .

وهل من متعظ؟ . .

وهل من ثائب إلى التفكير قبل حصول التدمير؟ . .

اللهم لقد بلغتَ عبادَك وأعذرت حتى لم تُبقِ لمخلوقٍ حجة عليك، فأعنا على طاعتك، واعصمنا من معصيتك وأنقذنا من شرور الترف والمترفين. آمين.



# كيف وبأي الوسائل نستعيد بناء الأسرة المسلمة

١ـ موضـوع الأسـرة هو موضوع الفرد والكل منفردين ومجتمعين، لذلك كان اختيار (الـوعى الاسـلامي) لهـذه الفكـرة محرجا لكتابها بالنظر لسعته ولتشعب فروعـه، وشمـولـه العديد من دروب البحث، بحيث لا يستغنى معالجه عن أي الجـوانب التى تؤلف عناصر المجتمع البشرى. ومن هنا تأتى خشية الكاتب أن يكون موضوعه ترداداً لسواه أو تواردا مع زملائه، وبخاصة عندما يكونون من ذوي الاتجـاه المـوحـد أو المتقارب. وهذا التقدير هو الذي جعلنى أمحو الكثير من الخـطوط التي أعـددتها للبحث لاكتفى ببعض الجوانب الأساسية من الموضوع تجنباً للتوارد والتكرار.

٢ـ لكى نعطى التقويم السليم لقضية الأسرة والأسرة الاسلامية بوجه خاص، لابد من النظر إلى أصلها أولاً، ثم تعيين القيمة النوعية لهذا الأصل وفق الموازين المعتمدة في مقاييس الحضارات.

والأصل الأول للأسرة هو الإنسان وقد اتفق أهل الأديان قاطبة على أن الذكر هو السابق، ومنه انبثقت أنثاه، ولا اعتراض على هذا المفهوم في أي مذهب فكرى، إذ لا أهمية في موازينها لتقدم أي النوعين على الآخر.

وتكاد النظرة الدينية تتفق على تكرمة الانسان ـ ممثلا فى أصله الأول ـ إذ تخبرنا بأنه المخلوق الممتاز الذي فضله خالقه وهيأه لخلافة الأرض وسياستها، فأودعه أسس المعرفة، وزوده بالخصائص التي تؤهله للسيادة على كل موجودات الأرض. من أحياء وجوامد ونبات. . !

ومن هذا الأصـل اشتق الخالق سبحانه قرينه فكان من جنسه، مزودا بمنحة التكرمة نفسها، وبالقدرة الانشائية المتممة لمهمته في رحاب هذه المملكة المذللة لجنسهما، المسخرة لخدمته.

ثم من هذا الأصل المزدوج نشأت الأسرة الأولى للجنس البشرى، تحمل خصائصه المتميزة كلها، والمؤهلة لبناء الكيان الأمثل لسائر أفراد الجنس.

فالأبوان بإدراكهما لمؤهلاتهما العليا، الناشئة عن النفخة الربانية، التي ميزتهما على سائر المخلوقات، قد أدركا عظم المهمة التي اختيرا لتحقيقها على الأرض، عن طريق إعداد النسل الصالح لخلافة الله، المدرب على مقاومة العدو الأول، الذي أعلن خصومتهما وحسدهما على ذلك الامتياز منذ اللحظة الأولى.

وطبيعى أن مثل هذا التصور اليقيني لموضوع تكرمة الانسان يعين بوضوح تام منزلة الأسرة البشرية في القمة من منازل الحق.. لأنها منبثقة عن المميزات التي خص بها هذا الجنس من بين سائر المخلوقات.. فهي أسرة ممتازة، ذات وظيفة كونية، تتجلى في استخدام قوانين الطبيعة لتشييد الحضارة الربانية، على الأسس المنسجمة اتم الانسجام مع خصائص الفطرة السليمة، التى من شأنها تحقيق الصورة الفضلى للحياة السعيدة، القائمة على التعاون فى طاعة الخالق، وفق المخطط الآلهى الذي تعهد بتزويد الانسان به على مر الازمان.

٣ـ ذلك هو الأفق الذي منه ينطلق تصور المؤمن لكيان الأسرة الذي كان على الانسان أن يتعهده بالاستمرار فى هذا الطريق الأمثل، مهما تتقلب الأيام، وتتطور الأحداث، على أن الواقع قد حاف على هذه الحقيقة إذ تعرض للمشوهات الكثيرة خلال التاريخ. وكان مرد ذلك كله إلى فساد التصور البشرى لموضوع التوحيد، وقبول الانحرافات الكبيرة في مفهوم الانسان لصفات ربه العلى، فكل انحدار فى هذا المفهوم عن مستواه الصحيح استتبع مثله فى مفهوم القيمة الانسانية.. وقد بدأ ذلك جليا في موازين الأمم المختلفة، نخص منها بالذكر وثنية اليونان، التى انحدرت بتصور الألوهية إلى أحط الدركات، فجعلت لكل ظاهرة من القوة إلهها الخاص، ثم اخترعت لهذه الآلهة احداثا أفسدت الخلق اليونانى، إذ أوقعت في ضميره أن الفجور والخداع وارتكاب أحط الموبقات هي من أقدس الصفات..!

وتلاقت الوثنية الهندية معها في ذلك المنحدر، الذي جعل تصوير العملية الجنسية شيئا رائعا يستحق أن يحفر على جدران المعابد(١) وتسربت هذه المنكرات الى

الكتب اليهودية المقدسة . إذ نسبت مثل هذه الارجاس الى أنبياء الله أنفسهم ! . .
ثم تسللت الى المسيحية في بعض الأقطار كانجلترة، حيث أعطت المحاكم الكنسية ـ في القرن الحادي عشر ـ الزوج الحق في أن يبيع زوجته أو يعيرها لآخر إلى أجل ـ كما يؤكد ذلك هربرت سبنسر ـ ولم ينج العرب فى جاهليتهم من هذا الزيغ فكان ـ الى جانب البغاء العلنى ـ زواج الاستبضاع ، الذي يبيح للرجل دون معرة أن يأمر زوجته بمضاجعة الرجل الذي يتسم ببعض المواهب العالية رجاء أن يرزق منه بغلام من نبعته . (١)

فإذا انتهينا إلى واقع المرأة في الحضارة الغربية المعاصرة واجهنا الحقيقة الكبيرة التى تؤكد أن قيمة المرأة هى حصيلة تلك الانحرافات جميعا وبخاصة اليونانية منها ، بحيث لا تعدو أن تكون متعة وملهاة ، يرغب فيها ما دامت صالحة لتوفيرهما ، فإذا فقدتهما نبذت ، ولم تجد من يعيرها التفاتة أو اهتماما ! . .

وقد أحدثت هذه النظرة في جسم الأسرة نفسها ندوبا بالغة توشك أن تدمره تدميرا ، بل لقد انتجت مذاهب فكرية تدعو علانية الى نسف الأسرة كليا ، وذلك عن طريق الغاء الروابط الشرعية ، التى يتبعها عفويا انحلال العلاقات الوالدية بأسرها ، وتعطيل الأحكام المدنية الخاصة بحقوق الزوجية والبنوة ، وعلائق الأرحام المتقاربة والمتباعدة ، حتى يستحيل المجتمع البشرى قطيعاً من الحيوانات بل من أدنى الحيوانات ! . . ولا ننسى محاولة الشيوعية تطبيق ذلك المذهب باقدامها على الغاء الكيان العائلى فى مطلع الدولة الماركسية بزعامة لينين . . وقبل ذلك في الدولة الساسانية بفارس أيام انتشار المذهب المزدكى ، الذى اعتبر مجرد امتلاك المال واحتكار المرأة المصدر الأول لكل شقاء ! . . ثم ما تولد عنه فى العصر العباسى من نحل قرمطية وخرَّمية انطلقت من البؤرة نفسها لتقويض الوجود الاسلامى .

٤ـ ومما لا سبيل الى تجاهله هو أن مثل هذه الأحكام الخاطئة لا تقتصر على المرأة بمفردها . بل هى تتناول الرجل معها وبالتالى تشمل الجنس كله . ذلك أن

أساس الخلل فى موازينها عائد الى القدر المشترك الذي يجمع بينها على اعتبار ان الانسان لا يخرج عن كونه حيوانا، مهما يضيفوا إليه من صفات تميزه. بأن يسموه حيوانـاً اجتماعيا، أو مدنيا، أو ناطقاً، أو حيوانا منتصب القامة، أو أنه الحيوان الضـاحـك أو الحيوان ذو الراحة الملساء.. الى آخر ما ابتدعوه له من نعوت لا تستـطيع انتـزاعه من المستنقع الحيوانى. الا بما يعترفون له من تطور لا يبعد - بنظرهم - أن يصيب غيره من تلك الانسال على مر الزمان!.. وهى نظرة تسللت مبادئها الاولى الى الفكر العربى عن طريق المترجمات اليونانية منذ عصر المأمون. فهى دخيلة عليه، أجنبية عن تصوره العقدي الذي يرفع الانسان الى أسمى مراتب الخلق، منذ اطلاله على الوجود متميزا بتلك النفخة المقدسة.

ولقد تضخمت هذه الفرضية المادية أخيرا بما استحدثته الحضارة الغربية من مذاهب تقيم بنيانها على هذا الاعتبار الحيوانى، الذي يجرد الجنس البشرى من خصائصه العليا جميعا، ثم يقنعه بانحطاطه، فيألف الاستسلام الى أخس الغرائز، حتى يقتل في كيانه أخيرا كل شعور بالتميز أو السمو..! وهكذا ينتهى دور الانسان الذي كرمه الله، ليبدأ دور الحيوان المتطور الذى أذلته التخرصات المادية!..

وبَـديهي أن لكـل من الاتجـاهين أثـره العميق في نوعية الأسرة وفى تحديد مضمونها وأهدافها، ومن ثم في مسيرة الحضارة البشرية.

أما في ظل النظرة المادية فالأسرة وضع عرضى غايته القصوى هى التلاقى العابر على متعة شخصية قلقة، لا استقرار معها لأنها لا قداسة لها.. حتى المواليد في مفهـوم هذه الأسـرة لا أثـر لهم في تكـوين أي ضرب من الـروابط الروحية بين أعضائها، لأنهم غير مسموح لهم بالخروج إلى الدنيا، ولا بالبقاء فيها إلا ضمن حدود المصلحـة نفسها، فإذا بلغوا حدود القدرة الذاتية فصلوا عن جسم الأسرة بقسوة ليضربوا في جوانب الأرض على غير هدى.. ثم لا يبالى أحدهم أن يلقى الآخر. أو يطمئن الى مصيره، حتى إذا وافى أحد الوالدين شبح الموت ورغب فى مشاهدة ولد له أعلمه ذلك عن طريق الاذاعة الخاصة (٣) وقد يبلغ الانفصام في

الواحدِ من هؤلاء الاعضاء أن يوصى بثروته كلها لكلب أو قط. دون أن يشعر بأيّ عاطفة نحو قريب له مهما تبلغ حاجة هذا الى عطفه! . .

ومثل هذه الأسرة أو هى علائق من خيوط العنكبوت. فهى أضعف من أن تقاوم التيارات التى تريد اقتلاعها. وأعجز من أن تأمل بالبقاء طويلا. لأنها مبتوتة الجذور. كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

وإذا كانت الأسرة هي المجتمع الأول الذي يؤلف مع اخواته عناصر المجتمع القومى ثم البشرى، فالحصيلة الحضارية لهذا الضرب من الأسر هى تحول الحياة الى معترك صراع. يجعل من الطاقات البشرية وسائل جهنمية تتجه الى تدمير الجنس كله. . وهى النهاية التى تشهد طلائعها في ما يسمونه بالثورات الثقافية، التى تكتسح اوساط العالم الذى تخلى عن الفضائل الروحية، كما نشهدها فى المذاهب الانحلالية المتمثلة في الوجودية والخنفسة والهيبية، التى أصبحت كمجمعات الأقذار. هُدِّمت سدودها. فهى تكتسح الاخلاق وتجرف الفضائل. لتقضى على البقيئة الباقية من مقومات البناء.

٦ـ ولا جرم أن اكثر الناس شقاء فى مثل هذا الجو المسموم الملغوم هى المرأة، لأنها العضو الأشد حساسية. فهى بسبب ذلك أوفر شعورا بالحرمان من نعمة الامومة والاستقرار فى ظل الحياة الطبيعية التى أعدت لها بكل أجهزتها الفطرية. ولقد كثرت الوقائع التى تعلن هذه الحقيقة. وامتلأ الفضاء بأصوات البقية من أولى الوعى رجالا ونساء، الذين أحاطوا بهذه المخاطر، تنذر البشرية بالويل والثبور وعظائم الأمور، إذا لم يتداركها المسؤولون عن قيادة الحضارة بالاصلاح العاجل السديد. وسأكتفى بمثل مصغر لهذه الكارثة الانسانية نقله الى ابن لي عن مشاهداته فى عالم الغرب. ذلك أنه ذات يوم ضل الطريق الى العربة التى كان يأوى اليها من القطار العامل بين لوبيانا وفيينا، فلم يجد مناصا عند تحركه من اللياذ بأية عربة فاذا هو بفتاة أوربية. . وخلال الحديث بينهما علم أنها تقصد البلد النمساوي لزيارة خطيبها الذي مضى على علاقته بها عدة سنوات! . . فسألها ابنى عن السبب الذي يحول دون زواجهما فاجتماعهما في بيت واحد! . . فأخبرته انها

لم تستطع حتى الآن توفير المال الذي يحقق لها هذه الأمنية. وهنا أطلعها الابن على الحقيقة التي لم تعرفها قط، وهي أن الرجل المسلم هو الذي يقوم بتقديم الصداق إلى المرأة دون أن يكلفها شيئا سوى التعاون معه على توفير الجو الزوجى السعيد. . وما كان أبلغها مفاجأة إذ هبت عن مقعدها ترفع يديها وتقول «أين أجد مثل هذا الإنسان؟!. . أليس من مسلم يتزوجني فينقذني!. . .».

ولعمرى أنها لصورة مصغرة من المأساة الكبيرة التى تعيشها المرأة بل الأسرة، فى ظلمات هذه الحضارة التى لا تعترف للإنسان بغير الجانب الحيواني. . !

٧ـ بقى أن ننعم النظر قليلا في الجانب المقابل من العرض. لنرى مقومات الأسرة في ظل النظام الاسلامي الصحيح. ولن تجد صعوبة في تبين المنطلق الذي تصدرعنه،بعد أن اوضحت للبصيرة مكانة الانسان في مفهوم الاسلام. انها الملاذ الكريم الذي يهيىء لكل من الزوجين وبكل منهما الجو الفطرى. الذى يتحدد مضمونه بقول الله «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» الآية ٢١ من سورة الزمر.

فالزوجة مخلوق من نفس الزوج، وبذلك يتعين مكانها الطبيعي، بوصفها انسانة تملك المقومات الانسانية نفسها التى تميز قرينها عن سائر المخلوقات الأخرى، وبهذا التعيين تسقط الأحكام الزائفة التي تعتبرها روحاً شيطانية فى جسم انسان. . والمذاهب الاجتماعية المدخولة التى تحدد وظيفتها ضمن نطاق الإلهاء والامتاع!. .

ثم أنها مبعث السكينة لقرينها. والسكينة وضع نفسى يصور الجو الزوجى ملاذا للنفس القلقة التعبة، تجد فيه الأنس والهدوء والطمأنينة التى تخف بها أعباء الحياة. . وهى فى الوقت نفسه منبت المودة التى هى ثمرة الانسجام الروحى بين الزوجين، ومن ثم بين أفراد الأسرة الآخرين مهما امتدت أعراقهم وتباعدت منازلهم. والمودة قرينة الرحمة التى هي فيض القلب الطيب. . وبهاتين الميزتين ـ المودة والرحمة ـ تجد كل مشكلة زوجية أو أسرية حلها السليم القويم.

بيد أن مثل هذا الكيان الأسرى لا يمكن تأليفه على الوجه الأكمل بالجمع بين أي رجل وامرأة، بل لا مندوحة فيه من التخير الواعى، ومن هنا كان توكيد الاسلام على المقومات الخلقية والدينية الرفيعة. . ففى الكتاب الحكيم (ولأمة مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم. . . ) (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم. . ).

٨ـ وايثار المؤمنة أو المؤمن على المشركين لا يمت بسبب الى التمييز العرقى أو الوراثى، بل هو منبثق من نظر الاسلام الى ثمرات كل من الفريقين للمجتمع فـ (أولئك ـ المشركون ـ يدعون إلى النار) نار الشقاء الدنيوي الصادر عن الانسياق في غير طريق الفطرة. الصائر بأهله أخيرا الى جهنم، وبئس المصير. . على حين أن المؤمن انما يدعو لما يستيقنه ويسعى لتحقيقه من بث الخير والعمل الصالح، الذى لا سبيل سواه لتحصين المسيرة الانسانية من حبائل الشيطان. . ومن أجل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خطب اليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه. . ان لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(٤).

فضابط الاختيار بالنسبة الى الزوج هو الدين العاصم من الزيغ، والخلق المساعد على الفضيلة. وكل تجاوز لهذا المقياس النبوى، من اغترار ببهارج الدنيا منصبا وجاها ومالا. . إنما هو انحدار بالأسرة فالمجتمع الى مزالق الفساد منذ الخطوة الأولى.

وكذلك الشأن بالنسبة الى الزوجة، فليس كل فتاة صالحة للبناء، فقد تعجبك المرأة لمالها أو حسبها أو جمالها، ولكن ذلك كله لا يعدو أن يكون وسائل تدمير للحياة العائلية إذا تجردت عن فضائل الايمان والعمل الصالح، ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم (تنكح المرأة لأربع لماها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)(٥) وبذلك يجعل غاية التلاقى الزوجى استمرار النسل الصالح لحمل مسئولية الاصلاح والتصحيح، وعن هذا يقول صلى الله عليه وسلم: (تزوجوا الودود الولود فانى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة)(٦) وغير مقبول ولا معقول

أن تكون رغبته صلى الله عليه وسلم فى المكاثرة لمجرد الاعجاب بالعدد الكثيف، وهو الذي يبين في الأثر الصحيح أن صعلوكا من أهل التقوى يفضل ملء الأرض من غيرهم. (٧) ناهيك بالغثاء الضخم من أشباه الضفادع والببغاوات، ولو كانوا من كبار الجامعيين والجامعيات!.. وبهذا التحديد يغلق أبواب الأسرة المسلمة نهائيا بوجه التافهات من حثالات الفتيات، اللواتى عرين عن الخلق والدين، لأن الطيبين للطيبات، والخبيثين للخبيثات و (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينحكها الا زان أو مشرك، وحرم ذلك على المؤمنين) سورة النور ٣ - ومن خلال هذا المبدأ الاسلامي نلاحظ تركيز القرآن على تلك الخاصة التى اشترط توافرها في الكتابية ليصحَّ للمسلم تزوجها. وهى اتصافها بالاحصان (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) **المائدة ٥** ففي التعبير بهذا اللفظ توكيد حاسم على كل ما ينطوى تحته من العفة والحشمة والبعد عن مزالق الريب. ولو أن السلطات التى تحكم الشعوب الاسلامية أخذت بهذا المبدأ لأبطلت كل عقد بين مسلم وكتابية لا تتقيد بهذه الصفات. ولكن المؤسف أن الحاكم والمحكوم في منأى عن هذا المفهوم.. إلا من رحم الله. والمغترب من أبناء المسلمين حين يؤثر الفتاة الغربية لا يشعر غالبا بأى التزام اسلامى، وانما ينحصر همه - بعد النزوة الجنسية - فى أمر واحد هو تلقيح وجوده وبلده بخصائص الجنس الأجنبى الذي آمن بامتيازه، أيا كانت ثمرات هذا اللقاح!.. وما ذلك إلا نتيجة الجهل المطبق للمفهوم التربوى الذي يقرره الاسلام فى هذا التوجيه النبوى الحكيم: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)(٨) وأي مفسدة أخطر على البيئة الاسلامية اليوم من تلك الانثى التى نشأت فى احضان الحرية الجنسية، وأشربت تقاليد الغرب المتدهور، بكل ما فيها من سموم وخبائث!.. وما أكثر الرزايا التى حملتها هذه المطايا!.

٩- ولا حاجة الى التذكير بأن اهتمام الاسلام بأصلي الأسرة - الذكر والأنثى - الى هذا الحد إنما هو نابع من القدسية التي يسبغها على هذا الكيان، الذي يريده مصنعا دائم الصلاحية لأنواع الفضائل الانسانية.

على أن هناك نقطتين لا مندوحة عن وقفة عليهما لاستيفاء عناصر البحث. أما

احداهما فمشكلة التعدد التى كثر فيها الجدل. وقد نالت من الأقلام الاسلامية حظا كبيرا، ولا أرى ضرورة لمناقشة جوانبها المختلفة فى القديم والحديث، بعد الـذي سطرته عنها فى كتابى (تأملات في المرأة والمجتمع) وانما أريد فقط أن أضيف الى ذلك ما توافر لدي من تجربة في هذا المضمار علمتني ما لم أكن أعلم.

لقد أكدت لي هذه التجربة أن التوحد هو الأصل في الحياة الزوجية، وأن التعدد عارض طارىء ليس من مصلحة المسلم أن يتطلع اليه الا عند الضرورات التى يتعـذر تحديدها، ولا تدرك الا بعد حصولها. لأن الزواج ليس مجرد متعة يبدل الرجل وسيلتها كلما حركه الهوى او تيسرت له السبل. . وإنما هو تعاون روحى متكامل غايته إنشاء الجو الهادىء الودود. . وقد أودع الله فى طبيعة المرأة أسرارا عجيبة منها اعتبارها كل مشاركة فى هذا الجو عدواناً على وجودها كله. وبدافع من هذا التصميم تجدها مستعدة لأن تحيل طاقتها البناءة أدوات تخريب تدمر كل شيء. . عندما تستشعر أى ظاهرة من هذا العدوان! . . وحسبك بهذا نذيرا بنسف كل عوامـل السكينة والمودة والرحمة، التى لا شيء غيرها صالح لاعطاء الحياة الزوجية معناها الصحيح. . ناهيك بما وراء ذلك من معارك خفية وظاهرة قد تشمل بشـرورهـا القريب والبعيد من أعضاء الأسرة! . . وهذا هو البلاء الذي دونه كل بلاء. . وكفى بالمؤمن رادعا عن هذه التجربة في غير ضرورة حكم العليم الخبير باستحالة العدل بين النساء (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) النساء ١٢٩ بجانب توجيهه المؤمن إلى إيثار الواحدة بمجرد أن يساوره خوف العجز عن تحقيقه: (فإن خفتم الا تعدلوا فواحدة)

١٠ـ وأما الثانية فمشكلة التربية التى لا غنى للزوجين عن اتقان أصولها الفعالة فى انشـاء الابناء. . ولعل أخطر جوانب هذه المشكلة هو فقدان البيت المسلم ضوابط التربية الاسلامية، ثم قطع المدرسة ـ في البلد المسلم ـ كل صلة لمناهجها بهذه الضوابط! . . فنحن بيتا ومدرسة ودولة قد نعلم الكثير من نظريات الغربيين في التربية على اختلاف موازينها، ونحاول تطبيق كل ما وقفنا عليه منها، سواء أكان حقاً أم باطلاً، وسواء أثبتت التجارب نجاحه أو اخفاقه. . فى حين لا نكاد نسأل

تراثنا التربوى الاسلامي عن أي شيء من ذلك! . . ولا أذيع سرا اذا قلت اننا سلبنا أزمة التربية حتى لأنفسنا فضلا عن بيوتنا، وقد بلغت المحنة أشدها حين أخفق العلماء أنفسهم ـ أو معظمهم ـ في قيادة أهليهم الأدنَينَ الى جادة الاسلام، حتى بات من المألوف جدا أن ترى الداعية الاسلامى يكتب ويخطب ويجهد في عرض فضائل الاسلام على الناس، ولكن ما ان تنظر الى سلوك الذين إليه ولا يتهم حتى ترى العجب، لأنك ستجد البون شاسعا بين دعوته وأسرته! . . وانا لا أحمل بذلك على هؤلاء الفضـــلاء فوق ما يستحقـون، لأنى أعلم بل أحس عذرهم فى هذا التباين، الذي هو حصيلة عشرات العوامل الجبرية، فهم لا يعفون من المسئولية عن بعض هذا التردى في بيوتهم، ولكن لا ننسى أنهم لم يعودوا وحدهم القابضين على توجيهها. بل ليس في أيديهم من أزمتها الا النزر اليسير، أما السيطرة العملية عليها ففي أيدي المدرسين، وحملة الأقلام، ومؤسسات الاعلام من اذاعة وتلفزة، ومـا الى ذلـك من عديد المؤثـرات! . . ومعظم المسئولين عن هذه المصادر لا يملكون ذرة من الوعى الاسلامى، إذا لم نعترف بالواقع المر، وهو أنهم يعادون كل ما هو اسلامى! . . حتى انهم ليصبغون المعانى الاسلامية بالألوان الدخيلة، التى تذهب بكل أثر يتاح لها أن تتركه فى نفوس السامعين والناظرين والقارئين! . . وبإزاء هذا كله لا يستطيع المفكر الغيور على أمته إلا أن يتساءل فى دهشة لاذعة (كيف وبأى الوسائل يتاح للمسلمين اعادة بناء الأسرة المسلمة والجيل المسلم، بعد أن أصبحا نهبا مباحا لكل هذه التيارات المدمرة)!

اللهم ان الظلمات لكثيفة، والمحنة لعظيمة . . ولا مخرج منها إلا بخارقة من خوارق قدرتك . . ولا حول ولا قوة الا بك.

---

(١) و(٣) أنظر (الحجاب) للعلامة المودودى و (تأملات في المرأة المجتمع) لكاتب هذا البحث.

(٢) من حديث شريف رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها.

(٤) للترمذي عن أبى هريرة مرفوعا.

(٥) للشيخين وأبي داود والنسـائي.

(٦) رواه أحمد عن أنس وفي أبى داود والنسـائي (الامم) مكان (الانبياء)

(٧) مضمون حديث رواه الشيخان ـ انظر جمع الفوائد رقم ٥٥٩٥

(٨) لمسلم والنسـائي.

# أكبادنا التى تمشي

**خبرات جديدة**

في كتـابي (تأملات في المرأة والمجتمع) وقد صدر قبل خمس عشرة سنة، فصل خاص بالطفل جعلت عنوانه (معلمنا الصغير) وفي حروف هذا العنوان القليلة ملخص واضح لرؤيتي إلى الطفل والأثر المتبادل بيننا وبينه، من حيث خصائصه المميزة، وعملنا في توجيهها الى المنظور الأعلى.

وعلى الرغم من تلك السنوات التى مرت على انشاء ذلك الفصل لا أزال متفقا مع تلك الأفكار التي أودعتها اياه.. وقد زودتني الحياة من الخبرات الأخرى بما يدفعني إلى تسجيلها في هذه الصفحات التي قد تمتد إلى أكثر مما أتصور.

منـذ خمس وثـلاثين سنة وقف الله حبل نسلنا نحن الجدين، فباتت علائقنا مقصورة على الكبار من الأبناء والأحفاد والأسباط، الذين تجاوزوا الستين عددا حتى الآن. ومع هذا التوقف وقفت خبرتنا مع الطفولة إلا قليلا، حتى قدر الله لنا أن نقضي اجازة هذا الصيف مع أسرة غسان ـ أكبر أبنائي الذكور ـ في هذه القرية التركية الجميلة الهادئة (أويزبينار) على مبعدة تسعة أكيال من مدينة (يالوا) المرفأ المائج بأصناف السواح من مختلف الأجناس والأرجاء.

لقد كانت هذه الأسابيع الثمانية بالنسبة إليَّ فرصة جديدة أطل من خلالها على عالم الصغار، فأنظر إليهم وأتابع تحركاتهم بمنظار آخر غير الذى كنت اتمتع به أيام كتبت ذلـك الفصـل، فأتعلم من هذا أو ذاك الكثير والجـديد من شئـون ذلـك العالم.. وفي ظني أن الجو الذى عايشته أثناء هذه الفترة جدير بأن يتخذ من مثله المـربـون ذوو التخصص مخبرا لتجارب من شأنها أن تعود عليهم وعلى غيرهم بالجديد المفيد، لو أتيح لهم أن يروا ويعاشروا مارأيت وعاشرت..

**لماذا يحب الموت !**

لكي أكون أكثر دقة في التعبير أعود فأقول: ان الذين تولينا رعايتهم من الأحفاد بعد توقف مهمتنا الإنتاجية كانوا قد تجاوزوا مرحلة الغرس إلى التشذيب، فقد شاء الله تبارك اسمه أن ينفصل غسان عن زوجه بالتفريق النهائي عن طريق المحكمة الشرعية باللاذقية قبل اثنتي عشرة سنة، عندما آثرت الوظيفة على الحياة الزوجية، فتخلت له عن أولادها الثلاثة، واكتفت بثمانية آلاف من الليرات، مقابل سائر حقوقها عليه، لتقصر وجودها على إدارة المدرسة التي أسندت إليها في اللاذقية، بعد حصولها على الشهادة الجامعية من كلية الآداب. . ولم يكن ذلك الفراق بالأمر المستغرب بعد أن بلغ الشقاق بين الزوجين أشده على مسمع ومرأى من الأيتام الثلاثة، الذين شحنت حياتهم بالقلق والاضطراب، حتى بلغ الأمر بأصغرهم إباء ولم يكن قد تعدى السابعة من سنيه، أن يقول لي ذات يوم، وهو مع أخويه في سيارتي أجوب بهم متنزهات اللاذقية: إذا أنا كبرت فسألقي بنفسي من شرفة منزلنا إلى الشارع !

وهالني ماذكره لأن منزلهم يقع في الدور الرابع، ومجرد التفكير بمثل هذه الحال كاف للتحقق من كراهية إباء للحياة. . ولما سألته عن مراده بذلك أجاب: لأني أحب أن أموت. . ومع أن إباء قد بلغ السن الموعودة دون أن ينفذ عزيمته القديمة، ولله الحمد، فما استطاع الا نفكاك عن موحيات تلك البيئة، ولا سيما بعد الفراق الذى أسلمه وأخويه إلى اليتم. . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

**● الحرث في الصخر**

لم يكن لهؤلاء الأيتام من مصير إلا في كنفنا، ومنذ ذلك اليوم احتضناهم في مساكننا بالمدينة المنورة. . ومع أن أكبرهم لم يتجاوز العاشرة بعد فلم يكن بالإمكان تعديل مسيرته النفسية بسهولة، لأن فترة التربية الصحيحة انما هي فترة الطفولة الأولى، إذ يكون الطفل مهيئا للانطباع بالنظرة والإشارة، وقد جاءنا هؤلاء المساكين مشحونين بالعوج، ولا أزال اتذكر أول لقاء جمعنا بإباء وأخته سمر بعد انقطاعنا عدة سنوات عن اللاذقية، وكنا على غاية الشوق لرؤية الثلاثة، إلا أنه لم

يكد يستقر قليلا بيننا حتى جعل يهاجم سمر، التي اغلقت عليها باب الغرفة، فراح يقفز ويدفعه بقدميه يريد فتحه أو كسره للايقاع بها ! ثم جاءت التجربة الثانية مع غسان وزوجه الجديدة، التي حاولت أن تقربهم إليها وتؤنسهم بقربها، فأقنعت أباهم باصطحابهم في رحلتهما الى أوروبة، ولكنها كانت محنة غرست في قلبيهما النفرة منهم، إذ لم ينقطع شجارهم وتضاربهم وتصايحهم في السيارة طوال الطريق، ثم شحنوا الفنادق التي نزلوا بها صخباً وضجيجاً. . ولما عادوا من رحلتهم (البصلية) كان تصميم الزوجة قاطعا على فراق زوجها، لو لم يقنعها أخيرا بتسليم الأيتام الينا حتى يتسنى لهما الهدوء الذي لا حياة للزوجين بدونه.

وهكذا كتب علينا أن نقضي السنين في الحرث بالصخر. . حتى بلغوا من السن والوعي، مايمكنهم من مساعدتنا على خدمتهم. . والله المسئول أن يقيهم كل مكروه وأن يقدر لهم حياة أكثر أمنا وتوفيقا.

**عزيف وصواريخ**

ولم يكن لدينا من علم عن صغار غسان الخمسة سوى القليل من خلال زيارتهم الأسبوعية، فلا نرى منهم إلا مايمكن احتماله دون تتبع لأحوالهم، التي تظل محصورة في بيئتهم الخاصة.

ولكن الأمر هنا ذو وجه آخر، لابد لنا من ترويض أنفسنا على مواجهته. .

وشاء الله أن نبدأ حياة المصيف بمطلع رمضان المبارك، وهو في تركية غيره فى المدينة الحبيبة، فلئن خففت برودة الجو من لأواء الصوم إن هناك مايقابلها من الامتداد الكبير في ساعات النهار، التي لم تقل عن السبع عشرة ساعة. . فلا يبقى من الليل سوى أقل من سبع يذهب نصفها في الطعام والعبادة فيكون الصائم أحوج الخلق إلى مزيد من النوم، الذى يرجو أن يساعده على متاعب الصوم. . ولكن أنى يكون ذلك في ظل خمسة تتراوح سنوهم بين الأثنتين والتاسعة، وقد نشئوا على تبكير اليقظة وتأخير النوم. . فكيف إذا علمت أن من ميزات هؤلاء الأحبة تلك الخاصية التي لم نجرب مثلها خلال تربيتنا عشرة أبناء وبنات، ولم أقرأ أو أسمع عن مثلها قط في كل ما قرأت وسمعت.

أسمعت ذات يوم ذلك الدوي الرهيب الذي ترسله صفارة الأنذار للتحذير من غارة عدو؟ وهل شهدت تجربة علمية تجر فيها قطعة حادة من الصلب على أخرى، فما إن تمسَّ سمع جرذ حتى ينتفض ويموت ! أو هل وقع في أذنك صراخ نسر يطلقه وراء طريدة ليحطم بالرعب قدرتها على الطيران !!

لك أن تتصور هذه الأصوات الجارحة كلها مجتمعة لتحيط علما بأصوات هؤلاء الأحبة الخمسة، وهي تنطلق في مطالع الصباح إثر معركة لاتبقي شيئاً في مكانه من القاعتين المخصصتين لهم.

ثم لك أن تتساءل بعد ذلك هل من سبيل إلى نوم مع هذا العزيف المخيف ! واذن فكيف يكون شأن صائم مع كل هذه الصواريخ ؟!

**فوضى وشجار وزعيق**

وهنا ولأول مرة أدركت لماذا يقضي والدهم المسكين معظم أشهر العام سائحا في أرض الله.. ولماذا يبقى هؤلاء الخمسة شبه أيتام في حرمانهم من ظلال أبيهم.. وهيهات للمال والمؤن ووسائل الترفيه الكثيرة أن تخفف عنهم أو عن أمهم ثقل هذا الحرمان الذى لايعوض.

وأُقبل على نفسي أتساءل: من أين جاء هذا البلاء ؟!!

وتذكرت هنا أن مثل هذا التساؤل جرى على لسان جدهم الآخر، رحمه الله، عندما كانوا يشخصون مع والدتهم الى بانياس ـ الساحل ـ لزيارة أهلها، فلا يمكنونه ولا أحدا معه من النوم، ولا يدعون لجدتهم زهرة، ولا في شجرهم ثمرة دون أن تنال نصيبها من التفتيت أو التحطيم، حتى لايجد المسكين سبيلا إلى الراحة الا بالهروب من المنزل إلى المسجد أو إلى أحد حقوله ! أجل.. فمن أين جاء هذا البلاء ؟!

ولم يكن المشكل من التعقيد بحيث يعوز إلى الكثير من التفكير.. إذ سرعان ما اهتديت إلى مصدر ذلك البلاء..

وأول ذلك تكاثر هؤلاء الأحبة وتتابعهم خلال فترة سبع سنوات، فلم يكن بين الواحد والآخر منهم مايتسع للعناية الكافية.. على خلاف ماقُدر لنا مع أبنائنا

العشرة الذين استغرق خروجهم الى الدنيا قرابة ربع القرن، فكان لنا بين الواحد والتالي مايكفي لضبط نشأته ضمن حدود الأمكان . .

ثم يأتي نوع العناية التي استقبل بها هؤلاء الوافدون الى عالمنا المملؤ بالمتناقضات مما لايصلح لمواجهته الا المزودون بوسائل الدفاع والهجوم والكر والفر، وأنواع الحيل الصالحة لتحقيق الأهداف العليا .

فهل كان لدى هذه الأم المتعبة كامل الامكانات للقيام بكل هذه المسئوليات ؟!

كانت معلمة في القسم الابتدائى تحمل من المؤهلات شهادة الثانوية العلمية وسنة في قسم الاعداد الخاص . . فلم يتح لها أن تتلقى شيئا من أصول التربية والعلم المتعلق بنفسيات الأطفال الا نتفا أقل من اليسير، وقد حالت سنو الدراسة الثلاث عشرة بينها وبين الممارسة لأعمال المنزل، فلا تكاد تعلم عنهما شيئا، وبخاصة في بيئة ترى أن على الطالبة أن تحبس نفسها ومواهبها في نطاق الدراسة وحدها، وعلى أمها أن توفر لها كل أسباب الحياة . . ثم قام في تصورها أن السبيل الوحيدة لاستكمال وسائل السعادة هى أن تكون أما لأكبر عدد من الأبناء !

وهكذا سرعان ما ألفت نفسها في المتاه الذى انتهت اليه . . فالأولاد غلبوها حتى على نفسها وعلى حق زوجها، وعجزت هي والخادم عن ترتيب أمرهم على الوجه الصحيح . . فاستسلمت للواقع، وتركت للخادم أن تقوم بحراسة الصغار في الحجرة المخصصة لهم لتؤمن لنفسها مايعوزها من الراحة عقيب كل غداء وحتى الضحى من أيام العطلة الأسبوعية، ولا عليها بعد ذلك أن تنهض من النوم فتجد الأثاث مبعثرا، والزجاج محطما، والزعيق يملأ الفضاء، وكل ذلك على أنغام التلفاز أو الفيديو . وتحت حراسة (نجوى) التي لاتملك وسيلة لضبطهم إلا القضيب تهوى به عليهم أو تخوفهم به ! ثم يأتى دور العقوبة يتلقونها من والديهم كلا بمفرده دونما رحمة أو تقدير . .

ولك أن تفكر بإزاء هذا الواقع المتكرر إلى أين يساق هؤلاء المساكين؟ وما الحصيلة التي تتوقعها لهم من وراء هذا السجن، الذى لامتنفس لهم فيه سوى الزعيق والتخريب !!

ومما يشترك في معرفته كل عاقل هو أن العمل المكرور يستحيل عادة، وتكرار العادة يشكل جزءا لايتجزأ من حياة الانسان. . ومن هنا كانت الفوضى والشجار والزعيق هي الأسس التي عليها نهض وجود هؤلاء المساكين !

بقي أن نسأل: إذا نحن أغفلنا أمرهم واستمررنا على تركهم لهذه الحال، فما المصير ؟!

ليس وراء ذلـك إلا أن نضيف بهم عددا جديدا الى مجتمـع الضـائعين. . ولوزودوا بكل ماتؤهلهم له مواهبهم من أنواع الدراسات والشهادات.

نعم. . سيكون هناك الأمر الذى لامندوحة عنه في الطريق إلى ذلك المصير، وهـو إعمال العصا لوقف هذا الضرب الشاذ من الانفلات. وهو علاج مؤقت لن يؤدي في النهاية إلا لمضاعفة العقد التي يعانونها، وتحويل نقمتهم من العصا إلى كل شيء، الأهل والأشياء والأقرباء والبعداء على السواء !

## تربية عجول وتربية فحول

ووضع كهذا من شأنه أن يشد بالمفكر الى البحث عن منطلقه النفسي، للوصول إلى مفهوم التربية في مثل هذه الأوساط التي هي الغالبة على مجتمعات المسلمين في هذه الأيام. .

أمّا أنا فأعترف بالعجز عن تصور هذا المفهوم، ولعل غيرى لايفضلني في هذا المضمار، ذلك لأن البيت الخائض هذه الغمار ليس لديه في الغالب أي فكرة عن مهمتـه التربوية. . فلن تزيد الحياة بنظر هذا النوع من البيئات عن أرحام تدفع وبطون تشبع وأرض تبلغ !

ولقد بات من المقررات الثابتة عندي أن للتربية المنزلية نوعيتين، احداهما أن تكـون تربية عجول، والثانية أن تكون تربية فحول. . ولا حاجة لسرد خصائص الأولى، لأنها هي العينة التي نشهدها في معظم الأوساط، غذاء مركز يزيد في وزن الطفل حتى يصبح كالكرة المنفوخة الى حد الأنفجار، ثم نظافة تجعل منه أنموذجا لمـا بلغه البيت من مدنية العصر، ثم حشو مستمر للذهن بالمعلومات المدرسية حتى يستحيل ببغاء مدهشة الحفظ. . ولابد لاستكمال ذلك من بعض الدروس

الانجليزية، التي تمكنه من تدريب لسانه على الرطانة، التي هي في تقدير موجهيه أبرز الدلائل على التفوق الاجتماعى !..

وقد اسميناها تربية عجول لأن غايتها القصوى تضخيم الجانب المادي من المخلوق، الذى أقام الله بنيانه على الأزدواجية فجعله جسدا وروحا، وجعل هناءته القصوى موقوفة على التوازن الدقيق بين كلا العنصرين.. وأيّما خلل في ذلك التوازن مؤد إلى سقوطه في امتحان الحياة، إذ ينتهي الى أن يكون عجلا بشريا، كحيوان السرك الذى قد يحقق من الحركات مايعجز عن مثله الانسان، أو يكون كرهبان البوذية والهندوسية، لايعدو أن يكون عالة في طعامه وشرابه وسائر مرافقه على الآخرين.

أما تربية الفحول فهى تلك التي تمثلها الأم التي تستشعر مسئوليتها نحو الأمانة التي أودعها الخالق يديها، فعليها أن تعدها للعظائم التي بوسعها إذا أحسنت الأداء أن تغير بها مسيرة التاريخ.

انها التربية التي صورتها في هذه الأبيات التي صنعتها بالأمس ليرقِّص بها حفيدى (أنس) ـ أصغر الخمسة الذين أتحدث عنهم :

| | |
|---|---|
| أزهَر يا أَنَسي أم عطر | أم حُلُمٌ منوّر وسحر ! |
| بل أنت في سمعي وقلبي شعر | مجنح خياله أغرّ |
| ياسلوتي حين يضيق الصدر | ونور عيني إذ يغيب البدر |
| عشت وأنت للمعالى ذخر | وفي قلوب المعتدين ذعر |
| عسى أراك في غد تجرُّ | كتائباً للحق لا تقر |
| حتى يتمَّ للهداةِ النصرُ | وينجلي بعد الظلام الفجرُ |

ولقد قدر لي أن أترجم ذات يوم بعيد مقطوعة من الشعر الفرنسي نشرت منذ خمس عشرة سنة في ديواني الثاني (همسات قلب) تحت عنوان لا أذكره الآن، وفي موضوع الطفل، تصور أما ساهرة بجوار ولدها وهي تناجيه بأمالها، فتتصوره واعظا يوجه قلوب الخلق إلى الله، أو قائدا يتقدم كتائبه لنصرة الوطن..

**التحرر من التبعية أولا**

ومعلوم عند المتضلعين بتاريخ الإسلام أن الأمهات من سلفنا الصالح لم يعرفن قط تربية العجول البشرية، بل كن المصدر الأول لكل بذور الإيمان والعزة والقوة، التي جعلت من المسلمين الأولين منائر الهدى، وقادة الأنقاذ العالمي، وبناة الحضارة التي ردت الانسانية الى نور ربها. . لقد كن على أتم الفهم لقول ربهن في شأن هذه الأمانة: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾**.

فالولد في يقينهن وديعة الله كُلفن رعايتها وحمايتهامن كيد الشيطان، وتوجيهها في الطريق الموصل إلى مرضاة الله، حتى يكون أهلا لحمل رسالته في الدنيا، والانتظام في سلك المصطفين من عباده في الآخرة.

وطبيعي أن امرأة هذا فهمها لمهمة الأمومة لاتملك أن تفرط بولدها لتجعله في زمرة التافهين الضائعين، الذين ختُم على قلوبهم فلا يعلمون من أين جاءوا ولا أين يقصدون، ولا هدف لهم من الدنيا إلا هذه اللعاعة من المتاع الذي لايتجاوز شهوة البطن والفرج. . وما إليها من الفانيات، التي أحالت الوجود ميدان صراع تستباح فيه الحرمات، وترخص الأنفس، وتدمر المواهب، وتخرب الحياة، حتى ليكون الموت*أعز امنية فيها للمظلومين والمحرومين!

وما أحسب أحدا ينازعني القول بأن استئناف هذا المسلك في حياة الأم المسلمة يكاد أن يكون من المستحيلات في هذه الظروف، التي سيطرت الأفكار الدخيلة على كل شيء فيها، البيت والمدرسة وسائر وسائل الاعلام، حتى حصرت الرؤية الإسلامية فى أضيق الحدود، فلا يكاد يتصل بها إلا الذين استطاعوا التحرر من قيود التبعية الضريرة، وقليل ماهم. . ومع ذلك فعلى هؤلاء وحدهم يتوقف الأمل باستعادة الذاتية المسلمة، وبخاصة شخصية المرأة التي اصبحت أهم أهداف الغزوة الدخيلة، حتى ليعتبرها (زويمر) كبير المنصرين في مؤتمرهم المنعقد في فلسطين عقيب الحرب العالمية الأولى، مرتكز الأمل للنشاط التبشيرى، فبها ينبغي ان يبدؤا، وعلى مدى اجتذابها إلى أفكارهم يتوقف مدى

نجاحهم، لأنها الأساس الرئيس في الكيان المسلم، فكل تأثير في عقليتها وأخلاقها صائر الى الانعكاس على المجتمع كله !

وانها لحقيقة نحن أحق بالانتباه اليها من زويمر وعصائبه، ولامناص من التركيز عليها في محاولة التغيير، للتخلص من هذا الواقع الذى نعانيه في حياتنا المنزلية . .

### على ضوء الوحي

وفي تصوري أن أقصر الطرق الى ذلك هو البدء باختيار الزوجة الصالحة لهذا الاتجاه، وهي موجودة ولله الحمد في بيوت القلة الصالحة، من الطائفة التي بشر رسول الله ﷺ باستمرارها في الكيان الإسلامي، ومن هنا يكون المنطلق، وبالتعاون مع هذه الرفيقة العزيزة توضع الخطط لتكوين الجيل الذى به سيتم التغيير المنشود ان شاء الله . .

ويومئذ سيوجد البيت المسلم المتحرر من تقليد المسوخ، الذين انسلخوا من فطرتهم الآدمية التي كرمها الله، ليتمرغوا في أوحال الرذيلة باسم الحرية. وكما يطارد النور ولو ضئيلا أسداف الظلام. هكذا ستشرع بالتواري من المجتمع المسلم تلك البيوت التي تخصصت في تربية العجول، ليحل مكانها البيت الواعي، الذى سيكون المعهد الرباني لتخريج الأشبال والفحول، على ضوء المعايير المستمدة من الوحي الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وليس ذلك على الله بعزيز. .



# رمضان الذي أنزل فيه القرآن

كثيرون سيتحدثون عن فضائل رمضان، صيامه وقيامه، انتصاراته وكراماته، ليلته التي هي خير من ألف شهر. . أما أنا فأحب أن أقف حديثى القصير هذا على النبأ العظيم الذي به كان لرمضان كل هذه الفضائل. .

أحب أن أتحدث عن القرآن الذي شرف الله به هذا الشهر المبارك، وكرم به النوع الانساني حين أطلق أنواره الخالدة على دنياه، فغيرت معالمها وبددت ظلماتها وأوضحت له المنهج الذي يؤمِّن مسيرته في الطريق الأمثل والأهدى والأقوم.

أعظم أحداث التاريخ البشرى قاطبة هو نزول القرآن. . لذلك ميز الله الشهر الذي خص بهذه المناسبة بأن جعله غرة الزمن كله، وجعل الليلة التي احتوت كل هذا الحدث الكوني خيرا من ألف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، وجعلها سلاماً كلها على أهل الأرض والسماء، فلا مكان فيها لشر، ولا عمل فيها لشيطان، حتى مطلع الفجر.

من أجل ذلك أتاح الله للمؤمنين في هذا الشهر من تجليه الاعلى، ما لم يتح لهم في سنة. ففرض عليهم صيامه، وحبب إليهم قيامه، وغلَّ عنهم أيدى عدوهم الألد وذريته، ففسح لهم بذلك فرصا للتسامي والتطهر، يستردون بها حقيقتهم التي كادوا يفقدونها في غمرات الصراع مع الأهواء والشهوات، ويعيدون اثناءها لفطرهم الاصيلة صفاءها الذي كدرته المفسدات، حتى إذا أطلوا على نهايته شعروا أنهم مولودون من جديد، فلا ذنب يبهظ كواهلهم، ولا إثم يثقل أعناقهم، وانما هي حياة خفَّتْ وشفَّت فكانت كالحلم الشهي يغمرها الجمال، ويحفها الجلال.

فرمضان إذن فرصة أهل الأرض لمشاركة الملأ الأعلى بذكرى ذلك التفضل الأسمى، الذي تجلى فيه بارىء الوجود على الجنس البشري بأعظم نعمه التي لا يسعه الوفاء لشكرها.

إنه الفرقان الذي أنقذ به الله العرب من دياجير الضياع، فأحلهم منزلة القيادة العالمية، وأعطاهم مقاليد النفوس، تقبس منهم أنوار السماء، فترد لهم الجميل حبا ونصرة ومودة لا تزول، ما داموا وافين بعهد الله، حافظين أمانته، ومبلغين رسالته، مصدقين قوله لنبيه ولهم: (وإنه لذكر لك ولقومك، وسوف تسألون).

إنه القرآن الذي أعلن لأول مرة في التاريخ حقوق الانسان، بتكريم الله إياه، وتفضيله على كثير ممن خلق تفضيلا، فأدرك أهل الطغيان أن هذا المخلوق الذي يذلونه ويسخرونه ويقتلونه، قد خلقه الله على صورته ونفخ فيه من روحه، فلا سبيل لأحد عليه الا بحق الله، ولأول مرة يسمع الناس في كل حدب وصوب أحد تلاميذ القرآن يهتف بهم من عاصمة الدولة الربانية الجديدة (متى استعبدتم الناس وقد وولدتهم أمهاتهم أحرارا..).

إنه الخارقة الذي يقول فيه رب العالمين (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله..).

إنه الدستور الذي يقيم حجة الله على عباده ولا تقوم أمامه حجة أبد الدهر، وكلما جاء جيل بتنظيم يظنه المحكَمَ القيِّم جوُبه بالحقيقة التي لا يستطيع لها رداً، وهي (إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم). الاسراء ـ ٩.

وأي معجزة، بل أي تكرمة للإنسان، أعجب وأغرب من أن يجد بين يديه كلام ربه مسطورا في كتاب، أو مقروأ بلسان، وقد حمل إليه من الحكمة والأنظمة ما يعجز عن بعضه الثقلان، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.. (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم. إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) .العنكبوت٥١ .

وقد ضمن الله للتالين هذا الكتاب حق تلاوته إمامة الدنيا، وقيادة العالم، وإقامة الحضارة المثلى، التي لا تحيف فيها المادة على الروح، ولا الروح على المادة، بل يكون كل شيء فيها مسخرا لخدمة الانسان، ولتوفير العدالة والسلام.. فكان تمام الأعجوبة أن حقق لهم ما ضمنه، فوضع في أيديهم أزمة الخلق، ومكن لهم في الأرض، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..

على أن المحير المدهش في أمر الأمة التي حملت أمانة هذه الرسالة أن يعقب سلفها الصالح خَلْف تَعِبَ من أعباء المجد والعزة، فتخفف من صلته بهذا الكتاب، وأصغى بسمعه الى المضللين يزينون له غير سبيل المؤمنين الأولين، فلا يلبث أن يؤخذ بمغرياتهم، ويستجيب لترهاتهم، وإذا هو بين يوم ويوم مجرد من أسباب القوة والعزة لا يملك لها ردا، ويجرب كل شيء غير العودة الى القرآن، فلا يزداد من النصر والعزة إلا بعدا.

لقد بدأ هذا الخلف انصرافه عن وحي ربه بتعطيل أحكامه المعصومة من النقص والضعف إذ استبدل بها تجارب المعاصرين الخابطين في المهامِهِ بغير نور من الله ولا اثارة من كتاب مبين.

بل قد غالوا في هجر ذلك الينبوع الحي، فأعرضوا حتى عن تلاوته، وكادوا أن ينقطعوا عن كل صلة بهدايته.

ثم جاءت الطامة الكبرى حين أهملوا لغته، فعطلوا في أنفسهم الاحساس بجمال البيان، حتى لم يعودوا قادرين على تذوق أساليبه، التي طالما فجرت المواهب، ومهدت لفرسان البلاغة سبيل الابداع والامتاع..

وهكذا حق في هؤلاء الضائعين انذار رب العالمين على لسان نبيه الأمين: (وقال الرسول رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا).

أجل.. ذلك هو حديث النبأ العظيم، الذي به شَرُف رمضان، ففاق الشهور والدهور، أصلح به الله سلف هذه الأمة، فجعل منهم منائر الهدى والعلم والحضارة، وأهمله خلفهم. فضلوا طريقهم، وطمع بهم حتى من لا يدفع عن نفسه.

ولكن هل بلغ هذا الجيل الضائع حدود اليأس من كل اصلاح؟..

أليس ثمة من أمل بعودته الى كتاب ربه، يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويحصِّن به وجوده من عوامل الانحلال التي شرعت تهاجمه من كل مكان؟..

لقد أعطانا الله جواب هذا التساؤل صريحا في هذا الكتاب الذي أنزله (تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين..). النحل ـ ٨٩.

فلنتلُ بانعام قوله تعالى في تحذير المؤمنين من سلوك طريق الزائغين السابقين: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون..). الحديد - ١٦.

ثم لنتل قوله سبحانه، في وصف العلاج الناجع، لمثل هذه الأمراض الروحية حين يبتلى بها المسلمون (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها.. قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون..). ١٧.

أجل.. إن القلوب إذا أظلمت بالبعد عن أنوار الحق، كان عليها أن تتعرض لنفحات القرآن، الذي يعمل في الأرواح عمل الغيث في الأرض، فكما يرد الله بالغيث حياة الأرض الميتة فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، كذلك شأن القرآن في إصلاح القلوب القاسية، لا تكاد تنصرف اليه حتى يرد اليها البلال بعد الجفاف والحياة بعد الموت.

ذلك وعد الله الحق، ودواؤه الحتم، فهل للمسلمين أن يجربوه مرة أخرى!.

إن رمضان شهر القرآن، فهو أحق بأن يذكِّر المسلمين بالعودة إلى القرآن، والتعرض لنفحات القرآن.

والحمد لله رب العالمين.

## حقائق جليلة
## في كلمات قليلة

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بُنِي الإسلام على خمس شهادة ألّا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان) رواه الشيخان.

في هذا العرض المحكم تصوير بليغ يوضح للمفكر المؤمن شخصية هذا الدين من مختلف أبعاده، أنه بناء رفع على قواعد خمس، فالإسلام إذن كلٌّ مؤلف من عنصرين أساسيين:

أحـدهما القواعد الخمس التى تحمل جزءه الثاني، الذي هو الصرح المعد لاحتواء سائر عناصره الأخرى.

ولننـظر الآن الى كل من العناصر الثلاثة، لنرى مدى الترابط بينها مجتمعة، وأهمية كل واحد منها على حدة.

فالقواعد هي الأساس الذي به يبدأ البناء، وعلى مدى قوتها وعظمتها يتوقف وضعه ومصيره كله.

أما أولى هذه القواعد فهي إعلان هوية المسلم عن طريق الايمان بالله واحداً لا شريك له في خلقه، وفي حقوقه على خلقه، على أساس التصديق برسالة محمد ﷺ والتصميم القاطع على متابعته فى كل أمر ونهى، بوصفه العبد الخالص العبودية لله، والرسول المصطفى لإبلاغ تعاليمه الى البشر جميعاً، لإخراجهم من الظلمات الى النور، فليس لأحد منهم أي حق في مخالفته بشيء قل أو كثر لأن طاعته طاعة لمرسله، وهي السبيل الوحيدة لسعادة الناس في الدنيا والآخرة، وكل مخالفة عن أمره مجلبة للفتن والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

ثم يأتي الركن الثاني المتمثل في الصلاة، وقد عين وصفها بالإقامة دون غيرها من الألفاظ، لتوجيه ذهن المؤمن الى انها عمل متكامل، يشترك في أدائه الإنسان كله روحاً وجسداً، قلباً وجوارح، وفي حضور عميق، وجهد عملي يساعد على اعطاء هذه القاعدة حقها من (الاقامة) التي يتطلبها ركن في بناء ضخم، وأبرز مواصفات مثل هذا الركن أن يكون قائماً لا اعوجاج فيه، قوياً على الاحتمال، فلا تفريط في تكوينه ولا إفراط..

ويلي ذلك الركن الثالث: وهو إيتاء الزكاة. وقد خُص هذا الركن كذلك باللفظ المصور للحركة والجهد (الإيتاء) الذي يتجاوز القائم به الى غيره، لأنه وسيلة التعبير عن الانتماء الى الجماعة المشاركة له في هُوية الإيمان.

وعند الركن الرابع (حج البيت) نقف أمام تحرك من نوع آخر يمتد مجاله الى بقعة معينة من الأرض، جعلها الخالق الحكيم مثابة للمؤمنين، فلا مندوحة لكل فرد منهم عن الشخوص اليه، متى استطاع الى ذلك سبيلاً ولو لمرة واحدة في العمر، ليعيش أياماً معدودات في جو الرسالة الأول، وليستشرف واقع الأمة التي ينتمي إليها، تهوي الى تلك المواطن من مختلف أنحاء العالم، وقد زالت من بينها فوارق اللون واللغة والمكانة والزي، على الهيئة التى تذكره بمصيره يوم يقدم على الله لأداء الحساب عما أسلف في الحياة الدنيا.

وتُختم القواعد هنا بركنها الخامس (صوم رمضان) الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، ليكون للصائم دورة سنوية للتدريب على العزائم التى تؤهله للترقي نحو الدرجات العلى من بنيان الإسلام..

ولنرجع البصر الى القواعد الخمس، وقد استقر فوقها البناء الضخم الصاعد فى السماء..

ثم لنتصور هذه القواعد وقد أخذت أولاها مركزها فى وسط مربع قامت في كل من زواياه إحدى الأربع المتممة.

فها هنا إذن مجسم تام، يمثل للذهن خطوط الصرح الأعظم الذي صور به رسول الله ﷺ كيان الإسلام، وللمفكر أن يتأمل في عمقِ محتوياتِ ذلك الصرح،

التي لابد أن تكون متناسبة مع جلال البنيان ذي الأركان، إذ يستحيل أن يقوم لمجرد العرض، ولقد علم أولو العلم أن داخل هذا المبنى روائع لا نهاية لها من متع النظر والفكر، هي التي تؤلف بمجموعها ثمار الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها في السماء..

هذا الصرح العظيم وزع منظمُه جلَّتْ حكمته مراكز الثقل فيه على مجموع أركانه بحسبان لا يعزب عنه شيء، فلكل من الخمسة نصيبه الموزون من الاحتمال، غير أن لأوسطها مزية المركز الذي يربط بين الدعائم ويشد بعضها الى بعض بحيث لو أزيل واحد أو اثنين أو ثلاثة أو الأربعة جميعاً في آن واحد، أو في ظروف متباعدة، لأمكن للصرحِ أن يظل قائماً على ذلك المركز العظيم، ولظلت له الصفة التى عُرف بها، وإن بات، بسبب وحدة القاعدة وفقدانِها المساعد، معرَّضاً للأحداث..

من خلال هذا المجسَّم يمكن لذي البصيرة أن يرسم الأبعاد التي تحدد علاقة المسلم بدين الله، وما قد يعرض لهذه العلاقة من ضعف أو قوة أثناء تعامله معه.

إنه في الطريق الى القمة من ذلك الصرح، ما دام ملتزماً دائرة النور المنطلق من تلك الأركان، فهو كل يوم، بل كل لحظة، في جديد من تلك الروائع، وقد زادته التجربة يقيناً أن ارتقاءه موقوف على نشاطه، فكلما بذل مجهوداً من الطاعة وجد لها مردوداً من السعادة..

ولكن ثمة متخلفين شغلتهم عن مواصلة الطريق زوائف المغريات، ففاتهم الركب، وزاغوا عن السبيل، فكان ان انحرفوا عن ساحة الضوء، ومضوا يخبطون على غير هدى..

لقد فقدوا صلتهم ببعض هذه الدعائم واحدة بعد الأخرى، وكلما انصرفوا عن واحدة تهيئوا لفراق التالية، وقل إحساسهم بقيمة النور، حتى ألفوا الضياع كما يألف الأعشى تكاثف العتمة.

ومع ذلك كله فإن هويتهم الإسلامية لا تزول ما بقي في قلوبهم مكان لشهادة الحق، وما داموا يستشعرون الأسى لبعدهم عن بقية الروافد..

فمثل هؤلاء لا ينقطع الأمل من عودتهم الى الجادّة ولو بعد حين، إذ لا يبرحون على اتصـال بعمود التوحيد، وإن كانوا كالشجرة التي عرتها العواصف من نضرة الحياة، فباتت مهددة بالاجتياح بين عشية وضحاها . .

إنهم مسلمون في حدود الهوية، ولكنهم مشاركون للملحدين بتعطيلهم أركان الإسلام . .

إنهم بحرمانهم أنفسهم من العواصم الأربعة، قد جردوها من الحصانة، وتركوها مكشوفة للعدو، يقتحمها ساعة يشاء، ولا سبيل لتفادي الخطر المحقق إلا بالتوبة النصوح، والعودة المخلصة الى كنف العزيز الرحيم، الذي يفرح بأوبة عبده الآبق، فَرَحَ الضارب فى الصحراء، قد فقد راحلته وعليها مرافق حياته، ثم فوجىء بها بين يديه من حيث لا يحتسب.

أما إذا غلبت الشقوة على العصاة، فاستخفوا بما عظمه الله من تلك القواعد، حتى عالنوها أو بعضها بالجفاء أو الرد، فقد انخلعوا من ربقة الإسلام بالكلية، وفقدوا كل ما تبقى لهم من حق بتلك الهوية.

لقد وصف رسول الله ﷺ الصلاة بأنها عمود الدين . .

وقاتل خليفته الأول رضي الله عنه ما نعي الزكاة على أنهم مرتدون عن الإسلام.

وقرر الله في كتابه الحكيم دخول المستنكف عن الحج فى زمرة الكافرين.

وأخبْر نبيه ﷺ أن فوات يوم من رمضان دونما عذر لا يقضيه صوم الدهر.

فأي حظ بعد ذلك في الإسلام لتارك الصلاة، ومانع الزكاة، ورافض الحج، والحارم نفسه من نفحات رمضان؟ . .

ثم ماذا يبقى لمثـل هذا في آداب الإسـلام، وخصـائص الإيمان، المحققة لسعادة الإنسان، بعد أن حطم الجسور القائمة بينه وبين هاتيك الأركان؟! . .

## من وحي الواقع المحزن
## حول مطالع الهلال لأول رمضان وشوال

كنت أتوقع وقوع العيد يوم الثلاثاء، وعلى الرغم من مضيٍّ معظم الليل السابق دون أن نسمع إشارة من الاذاعات عن الموضوع، لم أفارق توقعي، ذلك أن ابتداء رمضان بيوم الاثنين، وهو موعد صيام المملكة، قد ثبت من إطلالة القمر، فإذا استتم الشهر بالتاسع والعشرين فالعيد هو الثلثاء حتماً. . وهذا ما عجل في يقظتي قبل السابعة لأبدأ يومي بالاستماع الى الاذاعات العالمية، وشاء الله أن تورد محطة لنـدن خبر الثبوت في أواسط نشرتها الأولى، فوقغت عمل الصوم وأبلغت أهلي ذلك. ومن هنا كان عيدنا هو الثلاثاء، على ما ثبت في المملكة والكويت ودولة الامـارات وغيرها. . ولكن كان علينا أن نراعي مشاعر الجيران فلا نظهر إفطارنا أمامهم لأنهم مستمرون في صيامهم يومين آخرين، حسب (الأوامر الرسمية) التي ألغت موضوع الرؤية من حسابها واكتفت بالتوقيت الفلكي!. .

ويذكرني هذا الموضوع بذلك اليوم الذي دعينا فيه لمناقشة موضوع العيد في أواسط الاسبوع الأخير من رمضان، أثناء وجودنا في مدينة ما راوي سيتى بالفلبين قبل عدة أعوام، وكان الاجتماع في مدرسة (ماراوي) التي يشرف عليها أحد بقايا سلاطين المسلمين في تلك المنطقة. . وحضره كل المعنيين بهذه القضية من طلبة العلم. .

وكانت فرصة تعرفنا خلالها لأنواع من الاختلاف لم نعهد مثلها من قبل، ولم أتصور حصولها قط، ذلك أن الفجوة بين هؤلاء المجتمعين قد تجاوزت المعقول حتى بلغ الفرق بين أولها وآخرها عدة أيام في البلد الواحد، علاوة عن المناطق الأخـرى التي لا منـدوحة عن تعرضها لمثل هذه البلبلة. . وكانت حجة كل من

المختلفين منطلقة من الخبر المشهور المعروف باسم حديث (قُرَيب) . .

وملخص هذا الخبر كما هو في كتب السنة أن قريباً هذا قد وفد من الشام الى المـدينـة، وسأله ابن عباس رضى الله عنهم أجمعين عن اليوم الذي كان موعد فطرهم فذكر له يوماً غير الذي أفطر فيه أهل الحرمين، فأقر ما سمع ولم يخطِّيء الشاميين في اجتهادهم، إذ كان مفهوم الناس أثناء ئذٍ قائماً على الظن باختلاف المطالع بين الأقطار، فلكل واحد مطلعه، ولكل رؤيته . .

وطبيعي أن ظروف الصدر الأول تلزم المسلمين الأخذ بهذا المنهج لاستحالة اجتمـاعهم على القرار الواحد، وبخاصة إذا كان الأمر متعلقاً بمثل هذه الأرجاء المتباعدة وليس بينها من وسيلة للاتصال سوى ظهور المطايا، التي لا يقطع أسرعها المسافة بين الشام والحجاز إلا بعد أيام أو أسابيع .

بيد أن ظروف الأمس البعيد قد تغيرت، ومساحة الأرض قد تقلصت، حتى بات سكانها يعيشون في مثل المنزل الكبير، فكل منهم على صلة يومية بجاره، يكاد يرى ويسمـع كل ما يعمله ويقـولـه، عن طريق البرق والاذاعة والهاتف والتلفاز والعواكس الفضائية . . وفي مثل هذه الحال لابد أن تتغير النظرة إلى موضوع الثبوت في الصوم والإفطار، وبالأخص عندما يكون القطران في نطاق الخط الواحد الذي يتحـد فيه المـطلع أو يتقـارب . . فكيف إذا أخـذنا بعين الاعتبار ما توصل إليه المختصون من أن واقع العالم الإسلامي كله لا يتعدى نطاق المطلع الواحد على اختلاف أقطاره وتباعدها ! . .

وأشير بهذه المناسبة الى ذلك البحث الرائع الذي طالعته ذات يوم في إحدى المجلات الإسلامية، ولعلها (دعوة الحق) الصادرة في المغرب، بقلم واحد من ذوي العلاقة بعلوم الفلك، وقد افترض خطاً تقديرياً بين طنجة في أقصى المغرب، وجاكرتا في أقصى الجنوب الشرقي من آسية، ثـم بعد التدقيق في مواقع الأقطار المسـامتـة له يتبين أن حركـة الهلال بينها جميعا لا تتجاوز حدود اليوم الواحد، وبذلك يكون الحكم في بدء رمضان ونهايتهة واحداً في كل منها . . وهو بحث كان حقيقـاً بالنظر والمناقشة على أساس علمي شرعي حتى يتضح خطؤه أو صوابه،

ولعله أن يكون سبباً في إزالة الفرقة بين المسلمين، فلا يتعدد مطلع الصوم ونهايته على هذا الوجه الذي لابد من معالجته في ضوء الانجازات الفلكية، التي وصلت من الدقة الى حد أن يقع نزول الإنسان على سطح القمر في نفس الموعد المقرر له دون خلاف الا عدداً محدداً من الدقائق أو الثواني.

وبديهي القول، إذا صح ما ذهب إليه ذلك الباحث، بأن هذا الحكم بوحدة الأقطار الإسلامية لا يشمل واقع المسلمين الذين ينتشرون خارج نطاقه، حيث يعدو الهلال منزله الأول الى حدود اليوم الآخر.. وبذلك يتأخر موعد صومهم وإفطارهم الى اليوم التالي دونما خلاف..

ولقد أثار تفكيري في هذا الموضوع حديث سمعت بعضه من إذاعة الكويت مساء الاثنين ١٤٠٥/٩/٢٩هـ. وفيه عرض المحدث العالم لقضية الخلاف حول الرؤية، فذكر من آثاره اختلاف مواعيد الصوم بين أقطار المسلمين، حتى كان منهم من بدأ صومه يوم الأحد، ومنهم البادىء يوم الاثنين، فالثلاثاء فالأربعاء، وبذلك سيتعدد موقع العيد بعدد هذه الأيام!..

ووقفت ملياً أتأمل في هذا الاختلاف وأتساءل عن مسوغاته فلا أجد جواباً حاسماً، اللهم إلا أن نرد ذلك الى الخطأ في الاجتهاد أو الجهل بنظام الفلك، وهو الجهل الذي لم يعد مقبولاً بعد كل ما عرفه أهل الاختصاص عن ضبطه ودقته.

ويقودني التأمل إلى إعادة النظر في موضوع الرؤية وحدّها الشرعي، فمن المسلمات البدائية أن مراد الشارع بالرؤية انما هو الرؤية العامة لا الخاصة، ونقصد بالعامة تلك التي يقوم بها أفراد عن الأمة بأسرها، فمتى ثبتت الرؤية بشهادة العدل وجب على الكافة الأخذ بها صوماً وفطراً، وهذا ما جرى عليه المسلمون طوال القرون، كشأنهم في أوقات الصلاة والفطر اليومية، فحسبهم أن يسمعوا أذان الفجر مثلاً حتى ينهضوا لأدائه، دون أن يكلّفوا التحقق من طلوعه، وكذلك ما إن يسمعون صوت المؤذن للمغرب حتى يسرعوا الى الافطار، دون أن يتبينوا شأن هذا المؤذن ما دام هو المسئول عن ملاحظة الوقت.

ثم إن الرؤية إنما تكون عن طريق البصر المجرد عن المشوشات والموهمات، وللرائي أن يستعين بالنظارة أو المنظار إذا كان ذلك أضمن لصحة الرؤية، وليس التلسكوب الكاشف للأبعاد السحيقة الا نوعاً من المنظار المساعد على الرؤية الحق، بل هو أحراها بالقبول لأنه يعرض المرئيات مكبرة آلاف أو ملايين المرات، وهو موضع الثقة بإجماع العالم، فلا يتعرض للاحتمالات التي تعرض للناظر ولو من أهل الرؤية المجربة. ولقد حدثني فضيلة الشيخ عبدالحميد عباس - المدني - وهو من الثقات المعنيين بأمور التوقيت وأحوال الفصول - أنه سمع ذات يوم من يزعم أنه رأى هلال رمضان، فسأله عن الجهة المدّعاة فأشار إليها، فحكم للتوّ بكذب الخبر، لأن الجهة التي توهمها ليست مَظِنة الرؤية الصحيحة.. ومثل ذلك رجل آخر شهد برؤية الهلال في مكانه المنتظر، فجاءه من يصحح له وضع حاجبه، فإذا هلاله يختفي، إذ لم يكن سوى شعرة من ذلك الحاجب!.

ومن خلال هذه التجارب غير القليلة في تاريخ الرؤية يتضح لنا أنه قد آن للمسئولين عن شئون التوقيت أن يعمدوا الى التركيز النهائي على أحدث أجهزة الرؤية التي لا تخطيء.

ولو نحن رجعنا النظر في موقف الاسلاف من هذا الأمر لرأينا أنهم كانوا من أسبق الخلق الى الانتفاع بالوسائل المتطورة لرصد الكواكب، وملاحظة مطالع هلال رمضان وشوال، حتى لا تكاد واحدة من حواضر العالم الاسلامي تخلو من مرصد أو أكثر لتحقق هذه الغاية..

ومما يسرّ كل مسلم تلك الخطوة المباركة التي سجلتها رابطة العالم الإسلامي بعقدها العزم على إحياء سنة الاسلاف باقامة المرصد المنشود في مكة المكرمة، وإن كنا لا ندري على التحقيق الى أين وصل أمره، وهل استكمل وجوده؟! واذا كان الجواب بالايحاب فَلِم لا ينهض هذا الجهاز المرموق في الرصد والتحقيق على وجه الاستقلال، بحيث لا يبقى مسوغ لاعتماد الأعين المجردة لهذه الغاية!..

ومما لا ينبغي إغفال ذكره هنا هو كون المتوقع عند نجاح مشروع المرصد المكي أن تعين له لجنة من كبار العلماء يشاركون خبراءه في تحقق الرؤية! . .

وشيء آخر لابد منه لاستكمال فائدة هذا المرصد على مستوى البسيطة، هو أن تعتبر مكة المكرمة عاصمة العالم الإسلامي كله في قضية المواقيت الشرعية، وبخاصة ما يتعلق منها بالصوم والفطر والحج.

وهل أجدر من مهبط الوحي بتحقيق هذه المهمة، وهي الملتقى العالمي السنوي لشعوب الاسلام، وهي التي ثبت أخيراً انها مركز القلب وسط الكرة الأرضية جميعا!.

ويا لها من مناسبة تمكن لوحدة العالم الإسلامي، التي بدأت مرحلة التخلق الجديد، أن تشق طريقها لاسترداد مكانها من القيادة العالمية التي أعدّها لها الله.

على أن الكلام في قضية الرؤية لن تُستكمل عناصره ما لم يتسع لذكر النبأ الأخير الذي أعلنته إذاعة لندن عقيب اطلاق المركبة التي شارك في رحلتها الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز.

وخلاصة الخبر أن الأمير سيجعل من عمله استطلاع خبر هلال شوال من خلال ذلك البعد الذي سيتيح له مجالاً جديداً للرؤية لا يتوافر لمستقصيه على وجه الأرض. .

ولعل كثيرين غيري قد قدح هذا الخبر في أذهانهم السؤال الجديد التالي:

هذه المراكب قد تصبح من وسائل الانتقال الدائمة في المستقبل، فهل يصح اعتمادها لمراقبة الهلال وبناء الحكم الشرعي على أساسها، إذا كان مراقبوها من المسلمين المشهود لهم بالعدالة؟!. .

أما أنا فأسرع الى القول بأنني عاجز عن الإحاطة بهذا الموقف الطارىء، ولابد لمن يتعرض للحديث عنه من إلمام واسع بحركة الأفلاك وتغير مواقع الرؤية، وهو ما ليس لي فيه من نصيب. وعسى أن يكون بين أهل العلم، من الجامعيين ذوي التخصصين الديني والطبيعي، من يتصدى للأمر فيفي ويشفي ويكفي. . ولا سيما أني لا أعرض في هذا البحث القصير تقريراً حاسماً بل مجرد تأملات أضعها بين

يدي أصحاب الفضيلة علماء الأمة ليروا فيها رأيهم، سائلا الله الذي وسعت رحمته كل شيء أن يغفر لي خطأها ويرزقني ثواب صوابها.

ثم إياه أسأل المزيد من الكرامة للإمام أبي حنيفة النعمان كفاء جهوده المبرورة في خدمة الفقه الاسلامي، إذ وجد من الأدلة والمسوّغات الشرعية ما جعله يقرر أن ثبوت الشهر والفطر في أي مكان من عالم الإسلام كافٍ للأخذ به في سائر ديار المسلمين.

والحمد لله رب العالمين

# حقائق وأباطيل

لعلي تحدثت في فصل سابق عن ذلك المبشر البروتستانتي الذي يدعي صقر يوسف، وهو واحد من نصيرية الجبل المعروف في الجغرافية السورية قديماً باسم جبال النصيرية، فصار بعد الاحتلال الفرنسي يدعى (جبل العلويين) وذلك بعد أن أصدر محمد غالب الطويل ـ أحد مهاجري لواء الاسكندرون من النصيرية ـ كتابه الذي جعل عنوانه (تاريخ العلويين).

كان صقر هذا باكورة الجهود التبشرية في ذلك الجبل، إذ تولت بعض الارساليات التنصيرية تربيته وتعليمه وإعداده للهجوم على الدين الإسلامي، فكانت رسائله المطبوعة في هذا الموضوع أولى التحرشات بدين الله، حشوها بالدس على الإسلام ورسوله الأعظم، ظنا منه وممن وراءه من المنصرين والمستعمرين أن أحداً من المسلمين لن يجرؤ فيتصدى للرد عليهم، ولكن خاب فألهم إذ لم يكد يصدر أولى هذه الرسائل حتى تلقى الصفعات المخرسة بقلم الشيخ عثمان العسيلي عالم جزيرة أرواد . . ولا أرى حاجة للتوسع في تعريفه، ففي ترجمتي للشيخ المنشورة في كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم) ج ١ ما يغني عن ذلك. وإنما أشير هنا إلى بعض المناوشات التي حدثت بيني وبين صقر هذا في تلك الأحايين من أوائل الثلاثينات، إذ كتبتُ أول مطبوعة في الرد عليه تحت عنوان: (فضائح المبشرين) ويؤسفني ألا أملك نسخة منها تتيح لي أن أقدر قيمتها العلمية والانشائية، وقد تناولها في رده على الشيخ عثمان إذ سماني هناك، إذا صدقت الذاكرة، (صاحب الرد الخيالي) . .

وكان في طرطوس آنذاك بقية من تعصب صليبي يصفق لكل تعرض يقوم به أي الناس للإسلام، وعلى رأس هؤلاء المصفقين فتى خياط يدعى (ادوار سابا) وهو على مستوى لا بأس به من الذكاء، ولكنه لا يحسن الجولان في هذا المضمار، فاكتفى بالتشجيع له والهتاف للقائمين به. . ومن هنا كانت صلته بصقر يوسف، على الرغم مما بين أرثوذكسية هذا وبروتستانية ذاك من التنافر التقيلدي. . وقد بلغ من نشاطه في خدمة التنصير أن استطاع انتزاع غلام أروادي كان اسمه (خليل زيادة) من هويته المسلمة، وأدخله ديانته حتى صار اسمه الجديد بعد التعميد (طوني خليل) أو شبيهاً بذلك. . وصَدَقَه منصِّره الوعد، إذ أسلمه لبعض القسس في طرابلس فتولى تزويده بما أهله للحياة النصرانية، ثم مدّوا له أسباب المعيشة التي ما كان ليحلم بها من قبل، فزوجوه، وافتتحوا له محطة لبيع النفط على اختلاف مستخرجاته. . وما هي إلا سنوات قليلة حتى صار من أهل اليسار. . وكان هذا الغلام يودُّني، إذ كنت أؤمن له من العمل ما يتعيش به، فلقيته ذات يوم فسألته عن سبب تنصره فأجاب بصراحة مؤسفة: (أنا لم انتقل من الإسلام الى النصرانية، لأني نشأت في بيئة لا شيء فيها من الإسلام، فلما تنصرت وجدتني على دين لا أعلم حتى الآن ماذا فيه من الحق والباطل. . )

والغريب في أمر هذه البيئة التي يشير إليها ذلك المتنصر انها أعطت النصرانية عدة أشخاص من النساء والرجال، وبينهم واحد قد التحق بالأزهر، ولكن رفاق السوء صرفوه عن المنهج الصحيح، وأحس بعض المنصرين قلقه الفكري والنفسي فاستطاعوا اجتذابه إليهم، وسرعان ما جعلوا منه واحداً من أبواقهم المغالين في الهجوم على الإسلام. .

وذات صباح جاءني أدوار هذا يخبرني بأن صقر يوسف عنده، ويود لقائي عل ذلك يتيح لنا فرصة التهادن أو الاتفاق، فلم أرفض العرض، وقلت له: بشرط أن يكون اللقاء مشهوداً من قبل اناس من الجانبين. . ووافق الوسيط وعاد الى صاحبه ليأتي به وبشهوده.

وإنما أردت بذلك الشرط سد الطريق على أدوار وصاحبه اللذين لا استبعد أن يستغلا هذه المناسبة لإذاعة الأعاضيه التي تساعدهما على التغرير بالآخرين . .

وتم الاجتمـاع، وحضره عدد من الأشخاص الذين طلبنا اليهم أن يقفوا عند حدود الاستماع دون المشاركة في النقاش.

وتركنا لصقر أن يعرض بضاعته، ثم شرعنا في بيان تزويرها جزءاً فجزءاً حتى أتينا عليها بما قطع لسانه ولم يجد مجالاً للتحرك خلاله . . وهنا انصرف عن الحوار الى أنواع من المخارق المألوفة عند أهل الكتاب، فإذا هو يقول إن في قرآنكم سوراً تبـدأ بحروف مقطعة، وحتى الآن لا نعرف مفسراً من علماء المسلمين استطاع الكشف عن أسرارها، وعندنا نحن المفتاح الذي يساعد على تعرف هذه الأسرار.

وقلت لصقر: إذن فأنتم ترون أن في القرآن أسراراً وأن لديكم مفاتيحها؟

فأجاب: نعم وأنا على استعداد لفتحها أمامكم . . .

قلت: قبل أن تقوم بهذه التجربة أحب أن أذكرك بأن حصيلة هذا الادعاء هو إقرار كم أولاً بأن القرآن حق من عند الله، إلا أن من معانيه ما وُفقتم إليه وعجز عنه أهل العلم من المسلمين؟! . .

وأطرق صقر ملياً ثم قال: هناك بعض الحق الذي لا شك فيه . . قلت إذن فأنتم كما قال الله في إخوانكم: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض. فما جزاء من يفعـل ذلـك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا، ويومَ القيامةِ تِردون إلى أشد العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون﴾**. والآن فهات ما عندك من المفاتيح . .

ومضى يقول: بدأت سورة مريم في القرآن بهذه الحروف الخمسة (ك. هـ. ياء. ع. ص) وهي في حساب الجمل خمسة وتسعون ومئة، ومعناها (مسيح هو الله) . . لأن مجموع الحروف الملفوظة في هذه الجملة هو عشرة، وهو نفس الرقم الذي تنتهي اليه الحروف الخمسة.

ويشاء الله أن أكون من المعنيين أيامئذٍ بهذا النوع من التلاعيب الرياضية، التي يسمونها حسابَ الجمَّل[1] فقلت:

---

(١) في هذا الحساب تُحوَّل حروف (أبجد . .) إلى أرقام فيعادل حرف (أ) رقم (١) ثم تكون الباء (٢) وهكذا يزاد كل حرف يليه رقما واحدا على ما سبقه إلى نهاية العشرة الأولى، ثم يأخذ الكاف وهو أول العشرة الثانية رقم عشرين =

يا صقر أحب أن يكون الحوار بيننا منطقياً يخاطب فيه العقل العقل، لا الهوى ولا الخيال، فهل أنت مستعد لذلك؟..

قال: كل الاستعداد.

قلت: ولو كلفك التحرر من أوهامك السابقة؟..

قال: وأي أوهام!.. إنها حقائق لا مجال لردها..

قلت: حسناً.. فلننظر الآن في هذا الذي تسميه حقائق.. إن أول ما يفترض في الدليل البرهاني ألا يتقبل ما يناقضه.. أليس كذلك!.

قال: أوضح ما تريد.

قلت: المفروض في دليلك ألا يتسع للخلاف، فإذا استطعنا أن نجد في هذه الحروف عبارة مضادة للمعنى الذي استخرجته أنت منها وتنطبق في الوقت نفسه على نفس الرقم.. أيظل برهاناً مقبولاً؟!.

وتوقف كأنه لم يفهم ما أريد، فقلت: لقد تعسفت في محاولتك حتى اقتصرت من العبارة على الحروف التي توافق الأرقام، وها نحن أولاء نأتيك بعبارة تامة لم نحذف من أصولها حرفاً، ومع ذلك فهي منطبقة أتم الانطباق على المئة والخمسة والتسعين دون حاجة الى أي تعسف. هذا فضلا عما فيها من الهدم لكل ما بنته أحلامك.. إنها الكلمة الطيبة كالشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.. انها كلمة التوحيد.. انها (لا إله إلا الله).. فأحسب حروفها المنطوقة دون أن تحذف منها غير الألفين اللذين لا يلفظان ـ وهما ألف (الا) وألف الوصل من اسم الجلالة ـ ثم أخبرنا هل بقي لزعمك من فائدة تأنس بها بعد؟!.. ومع ذلك فإليك مثلا آخر أرجو ألا يغضبك وهو قول القائل: صقر يوسف (حيوان يجهِّل الله) فما عليك إلا أن تعمل حسابك في حروف الجملة التي بعد اسمك لترى أنها تؤلف الرقم نفسه (١٩٥) أفبعد هذا من مستمسك لكم أو لإخوانكم من يهود في هذه المزاعم التي يقيمون عليها معظم أوهامهم!!!

---

من ثم يكون لكل حرف تال زيادة عشرة عما سبقه حتى تكون الراء مائتين، وبعدها يرفع رقم الشين الى ثلاثمئة ويزيد كل حرف تال مئة عن رقم سابقه حتى تكون الغين في (ضغظغ) ألفاً وأكثر المعنيين بهذا الحساب هم أحبار يهود.

ولو نحن مضينا في تطبيق هذه الطريقة على كل كلام لالفيناه يستجيب لأي تأويل يحاوله المتلاعبون!.. وتنزه كلام ربنا عن مثل ذلك الهذر.

فما رأيك!.. أفبمثل هذه المخارق تقام الحجج وتؤلف البراهين؟!..

واستمر في صمته.. ثم لم يلبث أن لملم نفسه ثم ودع وأشياعه منصرفين..

وتشدني هذه الفكرة الى واحدة أخرى كان حدوثها في نفس العهد من الثلاثينات، وكان ذلك قبيل وقت صلاة المغرب، وكنت في الطريق الى المسجد عندما دعاني بعض الشباب ممن يحسنون بي الظن، ولما جئتهم وجدتهم يتحلقون حول أحد موزعي النشرات التبشيرية ومعهم أحد النصارى من موظفي البريد..

فقالوا: هذا الرجل يجادلنا في أمور الدين ولا نحسن الخوض فيها، فلو أمكن أن تجيبه على بعض أسئلته. فالتفت الى المبشر قائلا: قل وأوجز فالوقت لا يتسع للاسهاب.. والا فلنتواعد على فرصة أخرى.

قال: أنتم تقولون بأن الله على كل شيء قدير، فلم تنكرون عليه أن يكون أبا لِلمسيح؟.. أليس هو بقادر على ذلك؟!..

فقلت: اسمع يا هذا.. ان لسؤالك تتمة لا ينبغي أن تفوتك، ومنها: لو أنك رأيت انساناً يزني ويسرق ويقتل ويظلم، ثم رحت تلومه على ذلك، فقال لك: هذا ما أمر به الله.. فهل يرضيك جوابه؟!

قال: طبعا لا.. لأن أوامر الله منزهة عن هذه المفاسد..

قلت: وبهذا أجبت أنت على سؤالك.. لأن قدرة الله لا تتعلق بالمستحيلات التي لا تليق بكماله سبحانه..

وسألته: أكفاك هذا أم نزيدك؟!

قال: بل كفاني.. وأعدك بأن لا أعود لمثل هذا السؤال الا بعد أن أتزود له بالمعرفة الكافية.

وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون﴾** الحجر ١٤و١٥.

# إلى الاسلام أيها التائهون

على الرغم من الإرهاق الذي يثقلني منذ عدة أيام لا أجدني قادراً على كبت رغبتي في تأليف هذا البحث، لا بل في تسجيل هذه الخاطرة، فما أراني صالحاً لكتابة بحث كامل تحت هذا الارهاق. . الا إنها خاطرة اذا صحبها التوفيق كانت جديرة بأن تقرأ إن شاء الله. .

**في قبضة مجنون. .**

ولكي نتذكر أهمية الموضوع يحسن بنا أن نستحضر أولاً صورة الواقع الذي تعيشه البشرية على سطح هذه الكرة، التي لم يعد ينقصها إلا القذيفة الهيدروجينية أو الكوبالتية، أو التي لم يتقرر اسمها بعد في عالم المخابر، التي تتنافس في مجال التحضير للاداة الصالحة لتدمير الحياة الإنسانية بأسرها.

هذه طائرة وعليها مئات الركاب من أطفال ونساء وشيوخ ومرضى. . تفاجأ وهي في عرض الفضاء بمسدسات تسدد، فيضطر السائق لتغيير وجهة سيرها الى حيث لا يعلم، ولا يعلم حتى المختطفون. .

وهذه مركبة أخرى تتفجر في جو الأطلسي فتتناثر مع حطامها مئات الجثث الى جوف المحيط. . دون أن يُرفع فيها مسدس، أو يعرف لها مفجر!. .

وهذه سيارة توقف عند مسجد وقد وقتت لساعة ازدحامه بالمصلين يوم الجمعة، فما إن تحين ساعة الصفر حتى تهتز الأرض بالمسجد ومن فيه وما حوله، فتأتي في لحظة على عشرات الأبرياء وسقوط المسجد والمنازل المحيطة به. .

وهناك سيارة أخرى ركزت بعناية عند مدخل معرض للحلوى يتقاطر إليه أفواج المرتادين لشراء حاجات أهليهم وأطفالهم بمناسبة العيد القادم بأفراحه في صبيحة الغد، فما إن تحل لحظة انفجارها حتى تترنح الأرض، وتتطاير السيارات القريبة، وينهار المعرض بمن فيه وما فيه، ليسفر التدبير النبيل عن خمس وسبعين ضحية، بل ربما سبعمائة وخمسين شريحة من الأشلاء التي لا تعرف هويتها ويتعذر التأليف بين أجزائها.

وهناك مخيمات لجأ إلى ظلها منكوبون شردهم الطغيان وظلم الإنسان عن ديارهم، ليزرع مكانهم شذاذاً جمعهم من آفاق الدنيا، ووضع في أيديهم أحدث ما ابتدع المجرمون من وسائل الدمار، ليطاردوهنم على كل أرض، ويحولوا بينهم وبين كل استقرار، ثم يغروا بهم الاشقياء من قراصنة التعصب الأعمى، فيلاحقوا بقاياهم بالتقتيل والتدمير على مرأى ومسمع من الأقرباء الألداء، والأعداء الأشداء، والقتلة المحترفين ينثرون جثثهم على كل صعيد..

وهناك آلاف الفواجع يفجرها موتى الضمائر من الطواغيت وعملائهم في كل رقعة من الأرض، وفي كل ساعة من ليل أو نهار.. حتى لكأن البسيطة كلها في قبضة مجنون اتخذ من الترويع هوايته فلا راحة له إلا على نشيج الحزانى وأنين المصَّرعين!..

**عبيد الشياطين:**

"وأسأل نفسي، وحق لكل ذي ضمير أن يسأل نفسه.. لم كل هذه الرزايا؟.. وأي مصلحة لهؤلاء الساديين في إيقاد كل هذه الفتن، ونشر كل هذا الرعب في حياة عباد الله!..

وما أدرى كيف وافتني هذه الكلمة (عباد الله)!.. وكأنما هي الجواب الحاسم لكل هذه التساؤلات!..

فليت شعري، لو أن المسئولين عن هذه الفواجع - من محرضين وعملاء - كانوا من الذين يشملهم مضمون هذه الكلمة.. أكانوا يسمحون لأنفسهم بالإقدام على

شيء منها!..

مستحيل.. مستحيل.. لأن مجرد إيمان الإنسان بشرف الانتساب الى هذه العبودية الخالصة لله كافٍ لتحويله من صفوف الهدامين الفجار الى جماعة الأصفياء الأبرار، الذين يوقنون أنهم ملاقو ربهم في يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيشفقون أن يؤذوا حشرة بغير الحق، الذي سيسألون عنه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

لكن هؤلاء الضائعين قد مُسِخت آدميتهم، وفرغت أدمغتهم وقلوبهم من كل أثر للإيمان بخالقهم، فهم مسوقون بشهواتهم الى العبودية الخالصة لمستعبديهم من شياطين الجن والإنس، الذين يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً..

ولقد بلغت المحنة قمتها بغلبة هؤلاء الفجرة على مرافق الأرض، فيوشكون ألا يدعوا فيها منفذاً للأمل بالخير، ولا فرجة لمن يبحث عن نفحة من الاطمئنان.

وصدق الله العظيم الذي يصف واقع الإنسانية في مراحل ضياعها وانحرافها عن سبيله القويم بقوله في هذا النذير المبين: **﴿ظهر الفسادُ في البر والبحرِ بما كَسَبَتْ أيدي الناس، لِيذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**. الروم ٤١.

ويا له فساداً لم يكتف مفجرو براكينه بالقضاء على أمن الإنسان في كل مكان، بل تجاوزوا ذلك بجنايتهم على اللغة فأفسدوا معانيها، وضللوا بمفترياتهم دلالاتها، حتى ليسمون أكابر مجرميها بالبنائين الأحرار، ويزوّرون على الناس حقيقة واقعهم فيسبغون على استعبادهم للمنكوبين بهم شعار الحرية والاشتراكية والديمقراطية والمساواة. ويتباكون على المظلومين في جانب من الأرض، وأيديهم وأفواههم مخضبة بدماء ضحاياهم من الشعوب المقهورة في كل جانب!..

## المسوخ الكبار:

فهل أنت موافقي أيها القارىء على أن أساس المحنة التي تجتاح الأرض في هذه المرحلة الرهيبة من حياة الإنسان انما ينحصر في انصرافها عن ربها، وانسياقها وراء أهوائها، وتخبطها في تجاربها التي لا تقيم وزناً للحق، وليس فيها للإيمان بالله

أي اعتبار!!..

هذه المؤتمرات التي لا تحصى عدداً..

وتلك المؤسسات الدولية التي تحمل لافتات الإنقاذ.. وقبلها وبعدها هاتيك الهيئة الضخمة التى يسمونها الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، وما يمتد من تفرعاتها في كل اتجاه، هل استطاعت قط أن ترفع سكين الجزار عن ضحيته؟!

وهل ارتفع في أروقتها العالمية صوت مخلص للحق يذكر أعضاءها الدوليين بأنهم عباد الله، وأن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط، لا ميزة لأحد على أحد ولا دولة على غيرها الا بصالح العمل لصالح الجميع!.

وهذا مجلس الأمن الذي وضعت في كفه أزمة الدنيا.. هل استطاع قط أن ينفذ قراراً أجمع عليه اعضاؤه لرد عادية طاغ، أو لتوبيخ باغ!..

وأنى لهذا المجلس أن ينصر مظلوماً أو يلوم ظالماً ما دام تحت سلطان الخمسة الدائمين وما دام لكل فرد منهم حق النقض لكل قرار لا يتفق مع منفعته العابرة، ولو جنى موقفه الغاشم على أمن الإنسانية بأسرها!..

فكيف وبأي حق يفرض هؤلاء الأطفال الكبار ألوهيتهم على أهل الأرض، فيتصرفوا بهم حسب أهوائهم، ويسوقوهم راضين أو كارهين الى حماية نفوذهم، دون أي اهتمام بصالح السلام العام، ودون أي تقدير لما يهيئون له العالم من انفجار يذهب بهم وبأتباعهم، بل بالأرض كلها وما عليها!.. وهل أتيح لهؤلاء المسوخ من كبار الشياطين من يسألهم دون أن يتوقع منهم جواباً: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!!..

**مصلحة اللصوص في بقاء الفساد:**

قبل زمن يسير انعقد في إحدى عواصم أوروبة التائهة ذلك التجمع الذي أطلقوا عليه اسم (مؤتمر الدول الغنية) وهي التي جعل القدر إليها أمر التصرف بمصير المجاميع البشرية المتخلفة.. وبعد شياط ومياط تفرقوا دون أن ينتهوا الى قرار.. إلا واحداً أجمع عليه كل مفكري العالم، وهو أن نظام العالم الاقتصادي القائم لا

مندوحة عن تغييره إذا أريد للبشرية بعض الاستقرار . .

ولكن تغيير هذا النظام الفاسد من شأنه أن يسد بوجه هؤلاء، القابضين على أزمة التكنلوجية والمصارف الربوية، منافذ الاستنزاف لدماء العالم الثالث، التي عليها يتجمعون ومن شرايينها يتغذون . . ومن أجل ذلك يجب أن يبقى الفساد هو الغالب على الأرض، لكي يبقى هؤلاء الطواغيت على قمة السلطان في عالم الإنسان . . وعلى الإنسانية كلها بعد ذلك العناء والفناء! . . ومهما يختلف اللصوص في ما بينهم فلا ينبغي أن ينسوا أن قوتهم في استبقاء الأوضاع الفاسدة لمصلحتهم المشتركة، ومن هذا المنطلق ينظرون الى ملايين المساكين تحصدهم المجاعة في أفريقية، فيأخذهم المخاض طويلا، ثم يمدون إليهم أيديهم ببعض الفتات الذي لا يسد حاجة، ولا يدفع جائحة، ومع ذلك لا يكتمون أفكارهم الشيطانية، إذ لا يرون من علاج للمحنة الجارفة الا تقييد النسل في أوساط المحرومين، لا في افريقية وحدها، بل على مستوى الشرق المتخلف كله! . . ولعل إذاعة صوت امريكا لم تتجاوز حدود التعبير عن هذه الأفكار حين ذكرت في بعض برامجها ـ العلمية ـ أن بين مفكرى الغرب من يرى أن أفضل سبيل لتعديل معيار التوازن السكاني في تلك الشعوب هو القضاء على الأعداد الكثيرة من مواليدهم، للتوفيق بين الانتاج الغذائي والواقع البشري . . على أساس القاعدة الذهبية البرغماتيزية: (ليمت النصف من أجل حياة أفضل للنصف الآخر)! .

**هذا الصراع الأبدي :**

ونعود للسؤال نفسه: لو كان هؤلاء القساة الغلاظ على شيء من الإيمان بالله أكان لهم مثل هذه النظرة الى أولئك المساكين؟! . .

ولكن الإجابة الصحيحة على هذا السؤال لن تستوفي حقها ما لم نعد النظر في مفهوم الإيمان بالله، وأثر هذا الإيمان في سلوك الإنسان مع الحياة والناس والوجود كله . .

وأول ما يواجهنا من مفهوم الإيمان ذلك الشعور الحيّ الذي يستغرق قلب

المؤمن بأن له خالقاً حكيماً قد أبدعه على خير مثال، وزوده بالطاقات الصالحة لعمران الكون، وقد سخر له كل محتوياته من العلويات والسفليات، وأخذ عليه العهد الذي غرسه في أعماقه ألا يتصرف بشيء من ذلك إلا وفق التوجيه الأعلى، الذي أكرمه به على لسان من يصطفيهم لهدايته وتذكيره من أبناء جنسه المميزين بأكمل الصفات.. ليحقق الحكمة من وجوده على هذه الأرض بانشاء المجتمع الصالح، الذي يكون كل حركة فيه من نوع العبادة الخالصة لذلك الخالق الرحيم الحكيم.. وكما أحاطه بكل الوسائل المساعدة على تحقيق تلك الغاية أعلمه بالبينات القاطعة أن وراء هذا الوجود المحدود وجوداً آخر لا نهاية له، أعد فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت من ألوان النعيم لمن يحسن أداء هذه الأمانة، ومن ألوان العذاب للناكثين بعهده، الظالمين لعباده..

ومن هنا بدأ انطلاق الجنس الآدمي الى الضرب في أكناف هذا الكون، فكان منهم السعيد الملتزم بالتوجيهات العاصمة، الذي أدى ما عليه بالتعاون مع اخوانه، فكان المجتمع النموذجي الذي توافر له كل أسباب الأمن، فهو كالجسم السليم المتكامل، كل عضو فيه عون للآخر، وإذا اشتكى أي جزء منه تداعى له الجميع بالسهر والحمَّى.. ثم كان منهم الشقي الذي غلبه الهوى فاتبع سبيل المفسدين من شياطين الجن والإنس، فإذا هو النموذج الرهيب للبغي والتعادي.. وافتعال كل الأسباب المضاعفة للشقاء..

وهكذا كان على المجتمع البشرى أن يخوض غمرات الصراع، يتغلب الحق على الباطل الى حين، فتسعد الحياة، ويتوارى الباطل مترقباً غفلة أهل الحق، حتى إذا سنحت فرصته انطلق يتبر ويدمر حتى تضيق الحياة بأهلها، ويصبح بطن الأرض خيراً من ظهرها..

وهل نحن في حاجة الى توكيد هذه الحقيقة حقيقة انتصار الشر والشقاء الغامر الذي تتعرض له الإنسانية، وهي التي لا تزال تعاني مرائر ظلماته منذ بدأت حضارة المادة انفجارها الجهنمي في عالم الغرب، الذي ما برح يتحلل من آثار الوحي السماوي حتى انسلخ من انسانيته، واستحالت جماهيره قطعاناً من الذئاب لا تفهم

للحياة معنى إلا من زاوية الشهوتين، شهوة الجنس وشهوة البطن..

أجل.. إن الإنسانية لتعيش هذه الأيام في غمرات الضلال الشرير الذي أفرزه انتصار الفريق الذي قطع صلته بخالقه، فهو يتصرف بعباده كما يتصرف المخمور بنفسه حين يغيب وعيه فيغرق بقيئه وبوله وروثه..

إنه السكران الذي يتمثل في الانشودة الحمقاء التي تقول:

( أنا أعمى ما بشوف. أنا ضراب السيوف )

**عندما يفسد الملح :**

فما السبيل الى وقف هذا السكران المنزوف، وما الوسيلة لانتزاع السيف الذي يهدد به المارة من يده التي لا تحسُّ مسئولية ما تفعل؟!..

الشيوعية؟.. وهي التي تفرض الانفصال عن الخالق بقوة الحديد والنار، وآلاف الصور من أشكال الإرهاب العالمي؟!..

أم الديمقراطية.. وهي التي كشفتها الوقائع اليومية مجموعة من الفضائح التي أثبتت أنها لا تبالي سوى الحصول على المنفعة من أي سبيل؟!..

أم الوثنية الشرقية، وهي اما بوذية لا تشير الى مبدع هذا الكون من قريب أو بعيد.. وأما هندوسية تعتبر التمييز العنصري قضاء محتوماً من مجمع الآلهة، الذين قرروا أن الخلق من أصلهم طبقات، فمن خلق من رأس الإله لا مكان له إلا فوق، ومن خلق من قدمه فليس له مطمع في مفارقة موضعه الأسفل؟!..

أم هو ما تبقى من الديانة السماوية في الغرب، وليست سوى اليهودية الكوهينية. والنصرانية البولسية؟!..

أما الأولى فهي حتى بنظر أصحابها لا تعترف بغير الشعب المختار، وعلى البشر جميعاً ان يكونوا لهم أرقاء أو مطايا، لا حق لهم لا في الحياة ولا في المال، لأن كل شيء في هذه الأرض إنما خلق لمتعة الشعب المختار!.. وقد أثبتت فلسفة هذا الجنس في فلسطين ولبنان والعالم كله، إنهم أخطر على الإنسانية من الوحوش والأفاعي، ومن الحروب التي هم مصدرها دائماً وأبداً وموقدوها في العالمين!!!

والنصرانية مسكينة.. ماذا بقي لها في الغرب كله سوى الاسم الذي لا دليل على مسمـاه!.. وهـذه كنـائسها التي هجرها المصلون فسلمت الى الوثنيين أو المسلمين.. وهي في بريطانية المعروفة بأنها أكثر الشعوب النصرانية محافظة، لا تجـد سبيلًا لاجتـذاب الشباب الى الكنائس الا بإقامة المراقص وحانات الخمر بجوار كل منها، لاقناعهم بأنها لا تحول دون شهوتهم، بل إنها لتوفرها لهم على مدى الأيام، مقابل ساعة واحدة يمنحونها للكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع!..

وماذا بقي من هذه النصرانية في أرقى الشعوب الأوروبية: الدانيمارك والنروج وإسوج، بعد أن أباحت قوانينها زواج الأخت والأقارب، وتحرير المرأة فيها من كل سلطة للكنيسة!.. وها هي ذي ايطالية وهي حاضنة الفاتيكان ترفع أخيراً يده عن التعليم في مدارس الـدولـة، حتى لا يبقى للنصـرانية من سلطان على الأجيال الايطالية فيما بعد!.. وقبلها بريطانية التي أصدر مجلسها الكنائسي الأعلى قراره الشهير بشرعية اللواط!..

وهكذا.. تفقد الديانتان السماويتا الأصل كل سلطان على نفوس أصحابهما، بعد أن فقدتا صلاحيتهما للحياة، كما يفقد الملح صلاحيته لحفظ الطعام.

ولا ننسى أن إسرائيل نفسها، وهي التي قامت باسم النبي اسرائيل، ويحاول مؤسسوها تعميق انتمائها الديني، يعلن السواد الأعظم فيها أنهم لا يقيمون شعائر اليهودية، ويصرح سواد هذا السواد أنه لا علاقة له باسرائيل الا من حيث التابعية القومية، وعلى رأس هؤلاء شارون الذي أدلى باعترافه هذا للصحفية التي نشرته مع حديثه الصريح في أكبر صحف العالم عقيب مجزرة صبرا وشاتيلا..

### الاسـلام هو الملاذ

وإذن فقـد انقطع كل أمل بالانقاذ عن طريق هاتين الديانتين اللتين استنفذتا أغراضهما.. فلم يبق للإنسانية من ملاذ سوى الدين الخاتم، الذي صانه الله من كل تحـريف، وأودعـه الأسس التي عليهـا يمكن أن ينهض الكيان الأمثل لهذه الانسانية، وقد أدرك هذه الحقيقة الكبيرة أكابر فلاسفة الغرب نفسه، وفي مقدمة

المتـأخـرين منهم برنـاردشو الذي يقول قبل نصف قرن ما خلاصته: (إن الحل الصحيح لمشكلات العالم إنما يكمن في شريعة محمد ﷺ تلك الشريعة التي يصفها الاستاذ شبرل عميد كلية الحقوق في حاضرة النمسا بقوله (إن من الفخر للإنسانية أن ينتسب اليها رجل كمحمد ﷺ وسنكون نحن الأوروبيين أسعد الخلق إذا بلغنا مستوى شريعته ولو بعد ألفى سنة).

ولا غرابة أن يعترف كبار مفكرو الغرب الضال بهذه الحقيقة، إذ تبينوا بتحقيقهم العلمي الفـرق بين قانـون يضعـه الإنسان مستمداً إياه من تجاربه القاصرة على الماضي وحده، فيضطر الى تعديله وتغييره كلما جد حدث، دون أن ينتهي الى القرار المحقق للعدالة، وبين شريعة أنزلها اللطيف الخبير الذي لا يعزب عن عمله مثقـال ذرة في السمـاء ولا في الأرض. . فهـو الـذي يرى المـاضى والحـاضـر والمستقبل في الوقت الواحد، فإذا قضى أمراً كان هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، وكما خلق الإنسان من جسد وروح خصه بالشريعة التى ترعى مصالح روحه وجسده جميعاً، وبدافع من إيمان المسلم بربه وكمال شريعته يستقبل أحكامها بالرضى والاطمئنـان، فلا يخـالفهـا ولو في سره، لأنه موقن أن عين الله تراقبه، وأن في أحكامها سعادته في الدنيا والآخرة. . وكيف لا يكون المسلم كذلك وهو الذي ينشأ في حضن أمه على هذه الحقيقة، فلا يتصور البعد عنها لحظة واحدة، وإذا أكرهه الـطغيان على قبول حكم غيرها، كما هو الحال في معظم بلاد المسلمين هذه الأيام، شعر بالقلق يغمر وجوده، حتى يعود إليها، أو يجرفه الضياع الذي يذهله حتى عن نفسه! . .

فمتى يعي حكام المسلمين هذه الحقائق فيستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم؟ . . ومتى يرفعـون كوابيس الأنـظمة الكافرة عن أمة محمد ﷺ لتستعيد أنفاسها في جو القرآن، ثم لتسترد صبغتها الربانية التي بها كانت خير أمة أخرجت للناس، ومن ثم تنطلق لتبني المجتمع الأمثل الذي يشد أبصار أمم العالم التائهة الى أن الإسلام الحق هو السبيل الوحيدة لعودة الإنسانية الى نور ربها، الذي لا مجال سواه لتحريرها من الخوف والضياع والهوان. .

وبعـد. . فمـا أحـوج هؤلاء الحكام وكل الحكام الى التأمل في هذا التذكير الإلّهي الخطير: **﴿يا أيها الناس، إنما بغيكم على أنفسكم. .﴾** يونس ٢٣ .

# من أجل القرآن والعربية

كلما واجهت هذه الحواجز الصفيقة التي أقامها أعداء الإسلام بيني وبين هؤلاء الإخوة الأتراك، ارتفعت حرارة ألمي، إذ يردني ذلك الى تصور الهدف الذي قصد إليه أولئك المخططون الشيطانيون من الغاء الحرف العربي وإحلال اللاتيني مكانه، كالذي أحدثه التسلط الصليبي في أندونيسية وبعض الأقطار الأفريقية.

لا أشك لحظة بأن غائية هذا التغيير تصب على الوشائج الرابطة بين أهل الإسلام.. فمجرد الغاء الحرف العربي سيقطع الصلة بين شعوب تجمعهم أخوة الدين النابع من الكتاب الذي أنزله الله بلسان عربي مبين.. ثم تأتي الأخرى الرادفة لهذا التوجيه الخبيث، من إشاعة الحياة الغربية وتعميم الثقافة الدخيلة، وربط مستقبل الأفراد بمدى نجاحهم في اساغتها والتخلف بموجباتها، حتي تأتي الضربة القاضية بالعزل الصارم بين هؤلاء وبين اخوانهم في العقيدة والمنهج، فيكون لكل من الفريقين أو الفرقاء طريقه الخاص وأسلوب حياته الشاذ.. وهكذا يسهل على الطامعين في قهر المسلمين واستنزاف طاقاتهم التغلب على سائر العقبات، التي كانت تصدهم من قبل وتحفظ للمسلمين قدرتهم على المقاومة والتماسك..

هذا إذا كان المتسلطون الكافرون ممن يحتفظون ببعض الحياء، فيتركون لضحاياهم من المسلمين أن يتدبروا أمر دينهم بتلقينه أولادهم عن طريق الكتاب أو المدارس الخاصة، فيقرئوهم القرآن ويعلموهم من العربية ما يثبِّت صلتهم به جهد الامكان..

أمـا إذا كان المتسلط من الضـرب المغـرق في الـوحشية كالذي في الاتحاد السوفيتي وبلغارية وألبانية وفي ظلمات العلمانية الأتاتوركية، فالمحنة أكبر من كل تصور، لأن مجرد اقتناء نسخة من القرآن مستوجب أقصى العقوبات، فإذا جرؤ الفرد على تعليم ولده أي شيء عن دينه كان السجن والاذلال أقل ما يواجهه من الوحش المتسلط.

وقد حدثني الاستاذ اسماعيل حقي ـ من اسلامبول ـ أن والده كان يتولى تلقينه القرآن والعربية، فيؤخذ الى السجن ليقضي فيه المدة الكافية ـ بنظر الطاغوت ـ لردعه عن إعادة التجربة، ولكنـه لا يلبث أن يعـود إليـها فيعاد إلـى السـجن مـرة بعـد مـرة . .

وطبيعي أن ليس كل الآباء على مستوى ذلك الوالد المصر على تحمل كل بلاء في سبيل دينه، فالنتيجة إذن هي انشاء جيل لا يعلم عن إسلامه شيئاً، وبذلك يحقق المـلاحـدة بغيتهم في تجـريد هذه الشعـوب المقهـورة من عزة المسلم واستعلائه على كل عبودية لغير الله . . ومن هنا تتدفق عليها سيول الفساد الذي ينتهي الى هذا الاستهـار بحرمة رمضان، والاستهانة بكل مقومات الفضيلة التي تسمو بالانسان عن مرتبة الحيوان.

○ ولقد بدأ ذلك التدهور في تركية على يد العصابة التي ترعرعت في محاضن المنصِّرين والمستشرقين في أوروبة، حيث غسلت أدمغتها من كل أثر للإسلام، ثم شُحِنت بكل أنواع الكراهية لهذا الدين، الذي تكاتفت شعوب أوروبة بأجمعها لاقتلاع جذوره ولاستعادة حاضرته ـ اسلامبول ـ الى سلطان الصليبية، وهي التي طالمـا شنت منها الغارات على أرضه، وطالما حاكت المؤامرات الدولية للقضاء على أمنه، فارتدت كل غاراتها ومؤامراتها خاسئة مدحورة أمام عزائم حماته، حتى اهتدت الى الوسيلة الناجعة لتنفيذ مآربها الجهنمية، فاتخذت من تلك العصابة الضالة مطيتها الذلول إلى تدمير وطنها وتقويض أمجادها . .

وكـانت أولى خطوات هذه الفئـة البـاغية في طريق التخريب، إيقادها الفتنة العنصـرية بمحـاولـة تتريك كل العناصر المنضوية تحت راية الخلافة، وبذلك

أيقظت الفتنة النائمة، وبعثت الجاهلية المنتنة من مدفنها، حتى راح كل من هذه العناصر يتجمع في منظمات منفصلة، ليدفع عن نفسه أخطار الهجمة الشرسة التي قادتها القوى الخفية تحت ستار (الاتحاد والترقي). !

ثم كانت الخطوة التالية التي أطاحت بدوحة الخلافة من جذورها، وبذلك مُهِّدت السبل لإزالة كل العوائق التي تعرقل مخططات تلك القوى الهدامة للقضاء على كل تحرك إسلامي.

○ ومن هنا انطلقت اليهودية العالمية لاستكمال المرحلة التالية التي تمثلت في تقطيع بقية الوشائج التي تربط تركية بالعالم الإسلامي، وكان طبيعيا ان تبدأ هذه المرحلة بالغاء الحرف العربي، ثم بضرب الحصار على كتاب الله، فيعتبر مجرد اقتنائه وتداوله والإقبال علي تلقينه من المحظورات التي تعدل الخيانة الوطنية!..

ولم يعد ثمة من حاجة لمواصلة التخفي في تنفيذ المخطط الماسوني من وراء الستور، فإذا مسئولية هذا التنفيذ تُسند مباشرة الى العنصر اليهودي، وبخاصة في ملاحقة المتلبسين بجريمة تعليم القرآن والعربية!..

ويحدثني أحد الشيوخ من المخضرمين الذين قدر لهم أن يشاركوا بنصيبهم في أهوال ذلك العهد، إذ قبض عليه أكثر من مرة، وعانى من السجن فترات متزايدة. فيؤكد لي أن الذين تولوا معاقبته أيامئذٍ كان معظمهم من العنصر اليهودي الصريح، إلا رئيسهم الذي اختلطت جنسية والديه، إذ كان أبوه تركياً وأمه يهودية!.. على أن العجيب في أمر هذه الطغمة التي رضيت أن تكون مطية ذلولا للصليبية المتهودة، فتسلم اليها زمام وطنها وأمتها، تعيث كما يوحي اليها الحقد الموروث على الإسلام وأهله، فتهدم بيدها صرح الخلافة، التي جمعت حول الدول العثمانية قلوب مئات الملايين من مسلمي العالم، فكانت بذلك أعز وأهيب دول العالم قاطبة، ولم تكتف بذلك حتى حاولت نجريد تركية كلها من عزة الإسلام، بالغائها الحرف العربي واستبعاد أنوار القرآن عن الأمة التي به أصبحت - في عالم زمنها - خير أمة أخرجت للناس.

○ أجل.. إن العجيب في أمر هذه الطغمة أن تقدم على كل هذا التخريب وهي

تزعم أنها بذلك تجدد حياة أمتها، وتنشىء لها تاريخاً من المجد جديداً، باعادتها الى جاهليتها (الطوطمية) أيام كان أكبر مفاخرها هو الانتساب الى الذئب!.. وغلابها ـ وبمن خلفها ـ الخبل حتى حاولت تخليص لهجاتها البدوية القاصرة من كل أثر لِلغة القرآن، والاستعاضة عن كل كلمة عربية بما يغني عنها من اللغات الأوروبية.. ولكنها سرعان ما استسلمت للعجز عن فك التلاحم الاخوى بين اللسانين، فبقيت التركية المسلمة خير شاهد على خلود تلك الأخوّة، لأن حكمة الله شاءت ألاَّ تتراجع حركة التاريخ بهذا اللسان الموشى بجمال العربية الى عهد البداوة التي سبقت مدَّها الحضارى، الذي أخرج منها طائفة من كبار الخالدين في العلم والفن والبطولات بعد أن كانت، قبل إهتدائها الى اسِلام، شيئاً مجهولا، لايعرف لسانُه الحرف المكتوب، ولا يملك من التراث أكثر مما تملكه أي قبيلة من الجاهليات الأولى!..

وهكذا كانت سنواتها العجاف ـ بعد الخلافة ـ سلسلة من النكبات الطبيعية والسياسية والاقتصادية، وحسبها من ذلك انهيار نقدها المتتابع، واستغراقها في الديون الدولية، التي سلبته كل قدرة على التماسك، على الرغم من كل ما حباها الله من الخيرات السابغة والخامات التي لا حدود لها.. دون أن تستطيع هذه الظغمة تحقيق شيء قط من مميزات الغرب الذي بهرها بأضوائه، اللهم الا سلخها المرأة من فضائلها الإسلامية، لتلقي بها في الشارع لحماً على وضم، قد نفضت وجودها من خلال الماضي، إلا من رحم الله من فضليات النساء اللواتي صمدن للعاصفة، فهن يشاركن فضلاء الرجال في اقتحام المهالك حفاظاً على أمانة الله.. وها نحن اولاء نشهد آثار نجاح الطائشين في تهديم حصانة الخلق الإسلامي، بذلك الاختلاط الشائن الذي بلغ بالرجل الاجنبي أن يلج أي باب أراده على أهله دون إيذان ولا استئذان، وأن يحتضن كل سفيه صاحبته على أعين المارة دون أن يتذكر شيئا اسمه الخجل أو الحياء.. وصدق الله العظيم القائل في أمثال هؤلاء الضائعين **﴿قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً.. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾** الكهف.

○ وأرجـع الى نفسي لأتـذكر ذلك الجيل الذى قُدر له أن يخرج من ظلمات الأتاتوركية الى نور الله، وأتذكر تناميه المستمر، وانتشاره هذه الأيام في كل مكان من هذا القطر التركي العزيز.

وأتذكر كذلك هاتيك الأعداد الهائلة من مؤسسات التعليم الإسلامي تحتضن عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من المقبلين على دراسة الإسلام، فيردني هذا الواقع السعيد الى ذكر أولئك الأفواج التي لاتحصى من الشهداء، الذين سقطوا في معـركـة الدفاع عن دين الله في قونية وسائر التراب التركي، ثم أولئك الآباء والأمهات الذين تحملوا فنون الاضطهاد في سبيل استبقاء هذا الدين حياً في قلوب أبنائهم . .

وهـل لأحد أن ينسى فضل الشهيد العظيم عدنان مندريس الذي بدأ الخطوة الأولى في طريق العودة الى نور الله على مستوى الدولة، فكان جزاؤه حبل المشنقة الـذي شاء الله أن يكـرمـه به، لينتقـل من دار البلاء الى جنة عرضها السموات والأرض، أعدها الله لأمثاله من أنصار الحق وسادة الشهداء ـ إن شاء الله ـ.

ألا ان شعبـاً يبلغ هذا المدى الخارق من الصمود في وجه الطواغيت لجدير بإعجـاب العـالم الإسلامي كله، وحقيق بأن يقتفي أثره سائر المظلومين، حتى يستردوا حقهم كما استرد هو حقه في استبقاء هويته الاسلامية، في تصميم حاسم على استئناف المسيرة التي خلدت مأثر أسلافه المجاهدين لاعلاء كلمة الله في العالمين.



# تأملات في بعض أمثال القرآن

يقول ربنا تبارك اسمه ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ محمد ٢٤ . فها هنا تحريض على تدبر ما نقرأ من كتابه الحكيم، وتحذير من الدخول في صفة أولئك الذين يمرون بآياته في السماوات والأرض وهم عنها معرضون، فلا ينتفعون بأبصارهم واسماعهم وقلوبهم، فكأنما سُكِّرت تلك القلوب بالأقفال فحيل بينها وبين نور العلم، وبذلك مُسِخت أنسانيتهم حتى هبطوا الى مستوى الأنعام، بل تعدى هبوطهم مرتبة الانعام، التي لم تفسد فطرتها فهي صالحة للإفادة من التوجيه، بحيث تفهم الإشارة وتستجيب لصفير الراعي والحادي، على حين عطل هؤلاء المسوخ مواهبهم فختم على قلوبهم وأسماعهم وغشيت أبصارهم، حتى لم يعد لهم من صفة الإنسان سوى هيكله المنظور. .

ومما يؤسف المؤمن أن تمر به أحياناً لحظات التلاوة فيسرد الآيات سرداً لا يكاد يعي معه شيئاً مما يقرأ، كراكب الطائرة تمخر به الفضاء فلا يكاد يبصر مما تحتها شيئاً . ولكن من فضل الله عليه أن يدركه ببعض اللحظات الحية التي يتفتح فيها عقله وقلبه، فيقف على الآية من كتاب ربه وكأنه يواجهها لأول مرة، فإذا هو يطل من خلال كلماتها على آفاق من الروائع التي تُعجز وصف البليغ.

وفي مصحفي الذي أقرأ به حصصي اليومية إشارات على الهوامش اكتبها الى جانب بعض الآيات لأتخذ منها مذكرات تساعدني على تصوير انطباعاتي حولها عندما أجد الفرصة المواتية للكتابة. وقد وفقني الله بفضله الى جمع الكثير من هذه الانطباعات في كتاب (دروس من الوحي) التي تعددت طباعته وجاءتني بشأنه بعض الرسائل التي يعبر كاتبوها من مختلف الانحاء عن تقديرهم لما انطوى عليه،

وهي نعمة من الله أسأله سبحانه أن يوزعني شكرها وان يوفقني الى أمثالها بفضله ومنّه.

والآن وفي اثناء مطالعتي لكتاب ربي خلال هذه الأيام المباركة من رمضان الكريم، وفي هذا الجو الممتع من مصيف (أويزبينار) القريب من ترمال، والبعيد مئتي كيلومتر من إسلامبول، أجد بعض هاتيك النفحات السعيدة تهبُّ علي من خلال بعض الآيات فأقيِّد في هامشها بعض الخواطر. . وأنتهز الآن فرصة بعض النشاط لأصور جهد الإمكان ما تبعثه في نفسي من جديد المعاني، مستمداً من الله العون وسائله أن يعلمني ما لم أعلم، فإن وُفِّقت إلى ما أحب من السَّداد فبفضل ربي، وإن أخطأت المحجة فبقصور الإنسان الذي هو - مهما يبلغ من الاجتهاد - اعجز من أن يحيط بآياته علماً.

○ في الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سورة الفرقان يقول الله تعالى **﴿ألم تَر إلى ربك كيف مدَّ الظلَّ ولو شاء لجعله ساكناً، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا﴾**

لقد وقفت أمام هاتين الفقرتين متأملاً أعيد النظر والفكر في مضمونهما. . وفي الاستفهام الذي بدأتا به تشويق الى ملاحظة هذا الظل الذي لا تنفك تراه يرافق كل جسم معرض للضوء حيثما اتجهنا أو خطرنا، ولعله من أقل الأشياء اجتذاباً لأنظارنا وتفكيرنا مما يحيط بنا من محتويات هذا الكون. . فلا بد أن يكون في ذكره هنا سِرٌّ يستحق الاهتمام. . فلننظر في تركيب الآيتين لعلنا نوفق الى استكشاف بعض هذا السر، فهاهنا ظل ممدود دون تعيين للجسم الذي يعكسه، وما كان له أن يظهر لولا الضوء المنسكب عليه من الشمس، وهو ظل متحرك مع حركة الشمس لا يستقر على قياس، يبدأ طويلاً مع الإشراق ثم لا يزال يتقلص حتى يتجمع في قاعدة الجسم ثم يستأنف الامتداد حتى إذا غربت الشمس لم يبق للظل من أثر. .

إنها واحدة من المرئيات اليومية المألوفة لا تسترعى انتباهاً ولا تستدعي سؤالاً، ولكن من حقها على المتأمل أن يتساءل وهو يلاحظ حركتها وزوالها: أين ذهب هذا الظل؟!. .

وليست بعيدة عن ذلـك تلك الصـورة الأخرى التي نستطيع ملاحظتها ونحن نتسـامر في ضوء الكهرباء فنرى هناك أنفسنا واشياءنا وظلالنا، ثم نفاجأ بانقطاع التيار فيطبق الـظلام وتغيب المرئيات، ويختل توازننا إذا حاولنا التحرك . . فأين ذهب ذلك الضوء الذي كنا نستمتع به؟! أبتلعته الأرض أم امتصَّه الفضاء . . أم تراه كان وهماً كالحلم الذي تمحوه اليقظة!.

لا شك أن لكلتا الظاهرتين تعليلاً علمياً يعرفه ذوو التخصص ولكن الشيء الذي يهمنا منهما هو غير الذي يهمهم. إن ثمة سبيلاً للاستدلال غير المادي هو الذي يدعونا القرآن العظيم الى استنباطه من مشهد الظل . .

○ ولكي يتضح هذا السبيل أكثر علينا أن نرجع البصر في مضمون السياق الذي يتقدم الآيتين ويمكن الاكتفاء فيه بالآيتين ٤٣ و ٤٤ وذلك قول ربنا تبارك اسمه: ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه . . أفأنت تكون عليه وكيلاً! . . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . . إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا . .**﴾

ففي هاتين الآيتين العظيمتين صورة مركزة لعمل الوهم الذي يريد أن يتخذ مظهر الواقع، فيخدع الناظرين بأنه موجود وذو كيان، وإنما هو الباطل الذي لا يكاد يواجه الحق حتى يزهق فلا يخلف من أثر، وهذا الوهم متمثل هنا في ذلك النموذج الضال من أناس قطعوا صلتهم بالحقيقة، وأسلموا قيادهم للشهوات، حتى ملكت عليهم وجودهم، ووقفوا عليها حياتهم، فأصبحت لهم بمثابة المعبود، وصاروا لها بمثابة العبيد، الذين لايقدرون على خلافها. . فهم أبعد ما يكونون عن الانتفاع بدعوة الله التي يحملها إليهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

لقد تعطلت قدرة التمييز في نفوس أكثرهم فلا يفتحون أسماعهم لكلمة الخير، ولا يسمحون لعقولهم بالتفكير في ما يسمعون، فهم أحط منزلة من الحيوان الذي لا يعقل مما حوله غيرما يتصل ببطنه وشهوته . .

ولعل في تقييد هذه الضلالة بأكثرهم دون جميعهم إشارة الى ان هذه الكثرة تشكل السواد الذي أضلته القلة الخبيثة، التي لا يزال لديها بقية من القدرة على التفكير، ولكنها بدافع من شهوة التسلط جحدت الحق ظلماً واستكباراً مع استيقانها

التام له. . وبذلك جنت على نفسها بانسلاخها من المميزات الانسانية، لتنحط الي أدنى دركـات البهائم، وجنت على أتباعها بما زيَّنت لهم من مزالق الضلال بمكرها المستمر ليلَ نهارَ. . وهو الواقع الذي عاناه كل نبي من قومه منذ أول رسول الى خاتمهم، صلوات الله وسلامه عليهم، قد أوجزه نوح عليه السلام في شكواه الى ربه كلا الفريقين المضللين من قومه إذ يقول: **﴿ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا﴾** نوح ٢١.

وهنا وبعد أن استُوفيت هيئة هؤلاء الذين اتخذوا إلههم هواهم جاءت الآيتان التاليتان بالصورة المكملة لواقعهم، فأرتنا ان الباطل الذي آثروه لأنفسهم وزينوه لأتبـاعهم، لا يعـدو واقع الظل، الذي يبدو للناظر بكل هاتيك المواصفات من الحركة والصورة والشكل ثم ينتهي الى غير شيء يمجرد زوال السبب. . الذي وراءه.

ويبقى أن ننعم النظر في قوله تعالى ـ عقيب ذكر الظل الممدود ـ **﴿ولو شاء الله لجعله ساكناً. .﴾**

أجل. . لو شاء الله لثبَّت خيال الظل لكل جسم بأن ينطبع على محله فلا يزول، ولكن قضت حكمته بأن يقيم هذا الكون على نواميس وقوانين يعقلها أولو العلم **﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خَلقِ السموات والأرض. . ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾** آل عمران ١٩١.

# تأملات في بعض عجائب الكون

وأتوقف عند هذه الآية الثامنة والثمانين من سورة النمل:

**﴿وترى الجبالَ تَحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مر السحابِ صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء إنه خبيرٌ بما تعملون﴾** وقد سبق أن تركت في هامشها إشارة تذكرني بأن هنا مضموناً لا ينبغي ان يفوتني تأمله ومحاولة استنباط مدلولاته. ووجدت الفرصة مواتية لذلك في هذه العزلة الماتعة من مصيفي الهادىء المثير في قرية (ويزبينار).. فأسأل الله أن يُمدني بالتوفيق، ويلهمني السداد لاستكشاف البعيد من أسرار هذه الآية الكريمة..

هنا مشهد يستوقف الفكر إذ تلتقي فيه ألوان من العجائب.. فجبال ذاهبة في الأعالي، تمر بها الأعاصير والأمطار والأزمنة فلا تحرك فيها ساكناً، إلا ما تفتت من سطوحها فتجرفه الى المنخفضات، فهي جامدة هامدة لا يشك بصر في ذلك.. ولكن هذه الجوامد الهوامد في الوقت نفسه دائبةُ الحركة، إلا أنها حركة لا يبلغها التصور من سرعتها الهائلة..

ومن هنا جاء الظن بجمودها، فهو جمود وهمي يقوم على الحسبان لا على الواقع.. أما كيف حدث هذا التوافق الغريب، بين الجمود الظاهر والحركة الباطنة، فمرده إلى صنع الله الذي أتقن كل شيء والمحيط علماً وخبرة بكل حركة وسكنة من أفعال خلقه وخواطرهم..

ومعلوم أن هذا الإخبار الإلهي بحركة الجبال المستمرة دون انقطاع، والتي يسجلها الفعل المضارع الموضوع أصلاً لتوكيد التجدد، قد سبق كل ما توصل إليه العقل البشري من علم بهذه الحقيقة الكونية، ولم يُهتد اليه إلا في عصر الذرة،

مما أصبح إدراكه في متناول الجهد الإنساني. وقد لمسته بنفسي في القسم الالكتروني من معرض دمشق قبل ربع قرن، حيث جعلت سماعة متصلة بقطعة من الأورانيوم على أُذني، فإذا هما مملوءتان بدوي خشن صادر عن تلك القطعة.. فتبارك الله أحسن الخالقين!..

وطبيعي أن أزيز هذه الذرات إنما يعبر عن تخلخل بين أفرادها يثبت وجود فراغ تتحرك في جوه.. ووراء ذلك الحكمةُ الخارقةُ التي جعلت لكل جُزَيءٍ من هذا الكون مهمته ووضعه المساعد للإنسان على إحداث التطورات المدنية وبناء الحضارات، ولو قُدر لهذه المادة أن تخلو من ذلك التخلخل لاستحال على الإنسان ان يخضعها لمحاولاته، التي إليها يرجع إزدهار الصنائع والروائع.. هذا فضلاً على ما عُرف حتى الآن من الأسرار المدهشة عن بناء المادة، وكونها عائدة كلها إلى التيارات الكهرطيسية، التي لا بقاء لها لحظة إلا بأمر الحي القيوم، الذي خلق كل شيء بقدر، والذي جعل لكل شيء وزنه المقرر، والذي يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه..

ونحن عندما نُعمل الفكر في هذه البدائع ندرك جلال ذلك التعبير الإلهي في قول الحق سبحانه ﴿**صنع الله الذي أتقن كل شيء**﴾.

○ ونعود الآن إلى السياق الذي أحاط بهذه الآية الكريمة.

أكثر المفسرين ذهبوا إلى القطع بأنها من خصائص أيام القيامة، فقبلها حديث عن البعث وموقف المنكرين منه واستبطائهم موعوده، وبعض الارهاصات السابقة للساعة، ثم بعض صور الحشر ومحاكمات هؤلاء المنكرين له، وما إلى ذلك من خبر النفخة الموقظة للأموات.. ثم ما أعقب الآية ـ موضوع البحث ـ من نتائج تلك المحاكمات الرهيبة، حتى يلقى كل من المحسن والمسيء جزاءه العادل..

ومن هنا جاء تصورهم للموضوع على اعتبار أن مشاهد الآية مقصورة على يوم الحشر، وهو تصور مقصِّر عن استيعاب مضمونها، وملاحظة ما يتعلق به في آيات أُخر من الكتاب الحكيم.. فأين الجبال في ذلك الموقف، وقد أخبر سبحانه بزوالها نهائياً. كقوله في سورة طه:

**﴿ويسألونك عن الجبال فقلْ ينسفُها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عِوجاً ولا أمتا﴾** وفي سورة الواقعة: **﴿إذا رُجت الأرض رجا. وبُست الجبال بساً. فكانت هباءٍ منبثاً﴾**.

ثم أين الإنسان يومئذٍ من ملاحظة صنع الله وإتقانه، وقد أحدق به الهول من كل مكان حيث **﴿تَذهل كلُّ مُرضعةٍ عما أرضعت، وتضعُ كلُّ ذات حملٍ حملها وترى النّاسَ سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾**.

إن تذكر هذا وحده كافٍ ليبعثنا على تقصي المطلوب في غير هذا الاتجاه.. وليس معنى ذلك أن ننسى علاقة الآية بمناسبة الحشر، بل توسيع النظر في مدلولاتها حتى يشمل التناسبُ بينها وبين ذلك السياق..

ونظرة واعية مدققة الى موقف المنكرين واستبطائهم تحقيق موعود الله بالبعث والحساب، ثم عرضه تعالى لسننه في الكون والأمم.. إن نظرة كهذه تضيء أمامنا مجال الرؤية اكثر، فنعلم إن إبراز صورة الجبال وما تنطوي عليه من معجزات الخالق إنما جاء برهاناً آخر من أدلة قدرته سبحانه على تحقيق هاتيك الأحداث، التي عجزت عقول المنكرين عن إدراكها.. مع أن كل ما يحيط بهم من مخلوقاته شاهد له بالقدرة المطلقة. وهذه الجبال التي تواجههم أينما اتجهوا أحد الأمثلة على أنهم لا يعلمون من حقائق الوجود إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.. فالناظر اليها يقطع بجمودها وقد غابت عن بصره حركتها التي تشبه مرَّ السحاب، ولو أن الإنسان أحسن التأمل في ما حوله من معروضات هذا الكون لشاهد الكثير مما يؤكد له قصور حسه عن الإحاطة بأقل الأشياء..

○ هذا البرعم الذي يواجه بصري من حديقة المنزل.. أعلم من التجربة اليومية أنه في طريقه الى النمو المتلاحق، حتى يأخذ شكله النهائي زهرة منبسطة الأوراق تمتع البصر بألوانها السماوية، وتُسهم في تضميخ النسيم بأطيب الشذى.. ولكن هل أتيح لي قط أن ألحظ حركة هذا النمو اثناء سريانه في خلايا ذلك البرعم؟.. مستحيل.. ومع ذلك فهي مستمرة الحركة بصورة تفوت مداركي الإنسانية، فلا أحيط بها ولا استطيع رصدها إلا عن طريق الأجهزة الفائقة الحساسية..

هذه واحدة من البهديهيات التي نعايشها وقلما تسترعي انتباهنا . . فلننتقل من هذا الكائن الصغير الى العالم الأكبر . .

هذه النجوم التي طالما اجتذبت أبصارنا في عهود الطفولة فلا نتصورها أكثر من نقاط مضيئة تتناثر فى أعماق الفضاء، وتوشك أن تتلاصق لشدة تقاربها، فما إن تجاوزنا أيام الطفولة حتى بتنا ندرك أن الواحد من هذا النجم يفوق حجم كوكبنا الأرضي ملايين المرات، وأن ما بين الواحد والآخر منه ما لا ندرك بعده الا بالأرقام الضوئية! . .

وهذه الأرض التي نسرح على سطحها . . كم من علمائنا من لا يزال حتى الآن ينكر دورانها وكرويتها، مع أننا نستطيع التحقق من كلا الأمرين عن طريق الاذاعة التى تحدد لنا الفروق بين الأقطار، وهو ما لا يمكن تفسيره الا على أساس اليقين بالشكل الكروي لهذه الأرض . . وأما الدوران فقد أثبته القرآن العظيم في كل آية ذُيلت بقول الله تبارك اسمه ﴿وكلٌ في فلك يسبحون﴾ إذ لم يرد هذا التقرير الرباني في مكان من كتابه الخالد إلا وهو مسبوق بذكر الأرض، وقد شاء الله جلت حكمته ان نشهد مؤخراً كروية الأرض ودورانها معا عن طريق الصور، التي عكستها مراكب الفضاء على بلورات التلفاز، فإذا هي كرة ملقاة في الفضاء الكوني، لا تفتأ تدور فتتغير مع دورانهـا مواقع اليابسة والمحيطات، فيخرج جزء منها من نطاق الضوء ليدخلْ في ظلمة الليل، ليحل مكانه الجزء الآخر خارجاً من النهار داخلاً في نطاق الظلمة.

وحسبك من هذه الأمثلة التي يشترك في دلالتها أصغر الأجسام وأعظمها، والتي تذكـرك بقول خالقها الحكيم الرحيم: ﴿ما ترى في خَلقِ الرحمنِ من تفاوت﴾ حسبك بها مقنعاً بأن الإنسان، حتى الذين يسر لهم ربهم الكشف عن بعض أسرار خلقـه، فوصلوا بمركباتهم الى نطاق الأفلاك، ولا يبرحون يتطلعون الى الجديد البعيد من مخلوقاته المستغلقة، لم يبلغوا من علم ذلك البارىء العظيم أكثر مما يبلغ منقار العصفور إذا غمسه في المحيط! . .

والإنسان الذي يوفق الى معرفة هذه الأوليات من حقائق الأشياء لا يجد مسوّغا لانكار ما لم يحط به علماً، إذا جاءه خبره عن الثقات الصادقين، فكيف إذا نطق به كتاب الله المبين، وبلّغه المصطفون الأطهار من النبيين المعصومين! . .

وأخيراً هل وُفِّقت الى بيان جمال التناسق بين الآية الكريمة والسياق الذي أحاط بها من كتاب الله؟ . . وهل يوافقني القارىء على أن حركة الجبال وجلال الصنعة الإلهية في اتقان كل شيء ليسا داخلين في أحداث يوم القيامة؟! . .

أرجو أن يكون التوفيق قد حالفنى في توكيد ذلك، وإلا فعفو الله ومغفرته غاية ما أتطلع إليه . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . .



# تعابير ذات أبعاد

١ـ يقول ربنا تبارك اسمه عن رحلة موسى وصاحبه ـ عليهما السلام ـ **﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما. . ﴾**

لقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد المراد بكل من الأهلَيْنِ، أهما بمعنى واحد أم أن لكل منهما معناه الخاص. وعلى الرغم من مراجعتي للعديد من التفاسير لم يزل في النفس شيء منهما، حتى شاء الله، وكنت قبيل الفجر أتلو سورة الحجر، فإذ أنا واقع على البيان الحاسم للفرق بينهما، وذلك في الآية ٦٧ من قوله تعالى **﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون. . . ﴾** وأنعمت النظر في السياق فهو يصور المأزق الذي وجد فيه نبيُّ الله لوط نفسه عندما أقبل عليه فَسَقَةُ قومه يريدون السطو على ضيوفه من الملائكة، فجعل يدافعهم بالحكمة والموعظة **﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تُخزون. قالوا أولم ننهك عن العالمين! . . ﴾**

فمن هؤلاء الذين يجرؤون على مثل هذه المغامرة الوقحة دون أن يخشوا رداً أو يستشعروا مسئولية؟ . . أتراهم من عامة الناس وضعفائهم وغوغائهم، وليس لهؤلاء من وزن ولا قوة في تلك العهود! . . وأنَّى لمثل هؤلاء أن يأمروا وينهوا حتى ليُحذِّرون نبي الله من حماية الغرباء الوافدين على سدوم! . .

كلا. . إن هذه الوقاحة لا يمكن أن تصدر الا عن أولى القوة والنفوذ في المجتمع، ممن لا يتوقعون معارضة ولا مقاومة. . وإذن فأهل المدينة الذين جاءوا يستبشرون، بما يتصورونه غنيمة سائبة لشهواتهم، إنما هم فئة من أعيان البلد وذوي الكلمة النافذة فيه. . وعلى هذا يتضح الفرق بين (الأهلين) في قصة موسى

والخضر، فيكون الأهل الأولون هم عامة سكان القرية الذين واجهاهم أول دخولهما اليها، ويكون الآخرون هم الأعيان من ذوي اليسار الذين هم مَظِنَّةُ الفضل والقدرة على الضيافة . . والله أعلم . .

٢- وفى سورة الفـاتحة التى هي أم القرآن والسبع المثاني، نوع من الأشكال الذي اتسع ويتسع لعديد من التأويلات. فالله سبحانه يُعلِّمنا أن نسأله الهداية الى الصراط المستقيم الذي هدى إليه المصطفين من عباده . . فهل المؤمنون حائدون عن ذلك الصراط، زائغون عنه ليسألوه ردهم إليه؟ . . وإذا كانوا على هدى من ربهم وراء الصفوة من خلقه فكيف يسألونه ما هو عندهم؟ .

والذي يطمئن إليه عقلي في تفسير هذا الدعاء هو أن المصلي، وهو في موقف المناجاة الخالصة لربه، إنما يسأله استمرار الهداية التي هي العاصم الأكبر من الانحراف عن الطريق السوي الموصل الى سعادة الدارين، ومَثَلُه في ذلك كمثل ذلك الإنسان الذي يجد نفسه أمام كريم اعطاه الكثير من الخير، ولكنه لا يزال يتطلع الى المزيد منه، فهو يسأله مُلِحاً : أعطني . . أعطني . . وليس في ذلك دليل على أنه خالي الوطاب من ذلك الخير . .

ثم هنـاك خاطرة أخرى، سبق أن سجلتها في بعض كتبي، وهي أن المؤمن معرض دائماً للمشكلات التي يتعذر عليه الوصول بها الى الحل الأهدى، والأسدِّ، فهـو يلتمس بهذا الدعاء من ربه العون والتوفيق الى أفضل المسالك التي تبلغه الوجهة التي هي أقوم . .

٣- في ما يقارب الساعة الثالثة قبيل فجر اليوم وجدتني بين النوم واليقظة أجيل الفكر في موضوع لم أُعانِه من قبلُ . . هو موضوع (العين والعائِن) فقد صح فيه عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله، أحاديث منها قوله (العين حق . . ) ثم وصفه علاج أثرها في سهل بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، ثم شيوع ذلك في الواقع المشهود الذي يستعصي على الإحصاء . .

ويخطر في بالي الآن ذكرى ذلك الخبر العجيب الذي قرأته قبل ثلث قرن في جريدة (النصر) الدمشقية، وخلاصته أن زائراً لمصنع الزجاج بدمشق قد وقف أمام

الأجهزة التي تصنع الأكواب، فإذا هو يتوقف، ولدى الفحص شوهدت صورة عيني الزائر مطبوعة على صفحة الكوب الذي لم يتم!.

وقد حدثنا الشيخ عبدالله السنيور ـ من الجامعة الإسلامية بالمدينة ـ أن رجلاً معروفاً في بلده ـ أملج ـ اشتهر بالعين حتى لقد رآه ينظر الى كوب فلا يرفع عنه بصره حتى ينكسر!..

وطبيعي أن كثيرين من أصحاب الثقافة المادية يهزؤون من هذه الأخبار، كما ينكرون وجود الجن لأنهم لا يجدون تعليلاً لهذا أو ذاك، على الرغم من استيقانهم التام وجود الميكروب والفيروس والذرة والأشعة الكونية، وهم لا يرون شيئاً منها غير آثارها..

ووجدتني أتساءل: هذا الإنسان الأعجوبة.. هل اكتشف من خواصِه إلا النزر اليسير؟.. أليس هو الطِّلَّسم الذي لا يزال منغلقاً بوجه الفكر الذي تجاوز القمر إلى أبعد من المريخ؟..

هل فكرت قط أن تلاحظ أنواع نظراته وموحياتها وهو يحدق في وجهك، أو تحدق في عينيه!..

إن بين هذه النظرات من النفاذ والشدة ما لاتطيق مواجهته، وبينها ما يطل عليك بالأمن والبشر، وبينها مئات الأشكال والصور من أنواع النظر. فما الطاقة الكامنة خلفها؟.. وما مدى تأثيرها!..

يُخَيَّل إليَّ أن لهذه الأعين خواصَّ من شأنها إرسال أشعة خفية ذات آثار متباينة تباين الطاقة الدافعة..

٤ـ ومجرد ذكر الأشعة يفتح للمفكر نافذة الى أحد الأسرار التي لم يعالجها بعدُ..

إن الإنسان بسيطرته على الأشعة الكونية بات يعمل الأعاجيب التي لم تخطر من قبل على بال، فبها يحرك الأجهزة الطائرة على مسافة مئات الملايين من الأميال، وبها يستشف ما وراء الحواجز، وبها يبصر الأشياء المحجوبة بأطباق الظلمات..

ويتـراءى لي أن في بعض الأعين من هذه الأشعـة ما يقتـل ويعطّل ويحدث الأعـاجيب. وحينما أذكر الحديث الشريف الذي يشير الى أثر الدعاء ومناسباته والأحوال المحققة للإجابة، كساعة يوم الجمعة التي لا يرفع فيها المؤمن دعاء الا استجيب، وكلحظة التلاقي بين تأمين الداعي وتأمين الملائكة.. فأتساءل: الا يمكن أن يكون ثمة خاصية تمكن بعض الأعين أن تقذف أشعتها فتحدث من الأثر ما تحار في تعليله الأخيلة والفكر؟...

وليرحم الله القائل: أيها الإنسـان..

أتزعـم أنك جرم صغير  وفيك انطوى العالم الأكبرُ!

# الذين بدلوا نعمة الله كفرا
# وأحلوا قـومهم دار البـوار

كنت أتابع في شوق روحي تلك الآيات البينات من سورة إبراهيم عليه السلام يرتلهـا بصوته النديِّ إمام مسجد قباء في جماعة المغرب، فأستشف من خلالها الوقائع المغيَّبة كأني أشهدها بعيني رأسي، حتى انتهى الى قوله تعالى: ﴿**ألم تر الى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار، جهنمَ يصلونها، وبئس القرار. وجعلوا لله أنداداً لِيُضلِوا عن سبيله.. قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار**﴾.

وسرعان ما تركزت أفكاري في إطار الصور العجيبة التي تتراءى لي من خلال هاتين الآيتين، حتى لَيُخيِّلُ إلي أني أعرف أشخاصها، وألمح أحداثهم، وأرقب تصرفاتهم، وأكاد ألمس نتائجها الرهيبة.

إن الخطاب الإلهي هنا موجه الى رسول الله، عليه صلوات الله وسلامه، يثير تأملاته في هذا الأنموذج الذي يواجهه من ذوي السلطان والنفوذ، وهم يجهدون لصد عباده عن دعوته التي تستهدف تحريرهم من حبائل الأوهام، وإخراجهم من ظلمـات الشـرك الى نور التـوحيد.. فلا يزالون بهم حتى يركسوهم في غيابات الضياع، ثم ينتهوا بهم وبأنفسهم الى جهنم.. وبئس المصير.

لقد أوغل أولئك الطواغيت في إغواء أتباعهم هؤلاء حتى أقنعوهم بأن لهم حق التصرف في وجودهم وفي مرافق حَيَواتهم، يفعلون بهم وبها ما يشاؤون على الوجه الذي يطيب لهم. وبذلك أعطوا أنفسهم صلاحية التصرف المطلق دون وازع ولا نكير.. وكل ما يتطلعون إليه من وراء ذلك هو استشعار المتعة بالعلو في الأرض، ولـو على أشلاء المستضعفين من الأعوان المضلَّلِين.. فما أحق الحمقى بأن يذكروا أن وراء هذه المتعة العابرة ناراً وقودها الناس والحجارة. في وجود متجدد لا

نهاية له ولا نفاد!..

إن للمفسرين الحق في ما ذهبوا إليه من اعتبار المراد بالنعمة، في أولى الآيتين الكريمتين، هو رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهي أجل النعم التي منّ الله بها على الجنس البشري، إذ هي النور الذي لا يضل السالك في ضوئه. والناظم الذي يضبط مسيرة الإنسان فرداً وجماعاتٍ في نطاق الحق الذي هو أقوم.. وكذلك القول في (دار البوار) إذ أوّلوها بمستقر الطغاة الذين بدلوا نعمة الله كفراً..

ولكنّ لألفاظ الآيتين ظلالاً تشد أذهان المفكرين الى أشياء أخرى لا تبعد عن تقدير المفسرين، وتساعد على تصورها الايحاءات اللغوية الماثلة من خلال حروفها وتراكيبها..

هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله.. مَن هم؟.. ومن أي عصر؟!.. وهل مضوا فانقضوا أو لا يزال لهم وجود يتبينه البصر؟!!..

أليسوا هم نفسهم أصحاب مراكز النفوذ الذين يتحكمون في توجيه مجتمعاتهم الى الخراب والضلال، عن طريق التأثير المباشر. أو غير المباشر؟!..

أليسوا هم أرباب السلطة الذين رفضوا شريعة الله، وفرضوا على رعاياهم أحكام المفسدين فى الأرض، وهم يزعمون أن هذه الأحكام خير لهم وأحكم وأضمن للنجاح من نظام الله، الذي خلق كل شيء فقدّره تقديراً؟!..

أليسوا هم حملة الأقلام وقادة الإعلام، الذين آتاهم الله نعمة المواهب لهداية عباده فأبوا الا أن يسخروها لتضليلهم، وتخريب فِطرتهم وإفساد حياتهم؟!..

أليسوا.. أليسوا.. أليسوا.. أوليس هؤلاء جميعاً متعاونين على تبديل نعمة الله كفراً؟!

ثم.. ألا توحي إليك صورة (دار البوار) بالواقع الرهيب، الذي سِيقَ إليه معظم شعوب العالم الإسلامي تحت كابوس الفقر والحرمان والتخلف، وهي التي تمشي على الذهب، وتتحرك فوق الكنوز التي لا تحصى من نعم الله، الذي أعطاها من المعادن والخامات الجامدة والسائلة، ما لم يعط أحداً من العالمين، ومع ذلك فهي لا تنفك رازحةً تحت أعباء الديون والقروض، التي تنوء بفوائدها الربوية أعناقُ

الجبال. . ويراد منها فوق ذلك أن تُسَبِّح بحمد الجاثمين على أعناقها، الذين تولوا سوقها الى كل هذه المهالك، ثم لا يكتفوا بمصيرها المهين حتى تُكرَه على اليقين بأنهم أُساتُها المخلصون، وجرّاحوها المصلحون، وأنهم العباقرة الذين من حقهم أن يُلغوا من وجودها كل مقومات حياتها حتى شريعة خالِقها!. . وهكذا يجعلون من أنفسهم أنداداً لله، الذي من حقه وحده سبحانه ألا يُسأل عما يَفعل!!.

○ والآن تعالَ نُنعم الفكر في هذا التعبير الإلهي القصير الكبير، الذي يعقب به تبارك اسمه على حماقات هؤلاء المفتونين: (تمتعوا). . وبماذا يتمتعون؟!. .

بهذه النشوة الخادعة من خمرة الغرور، التي طمست على مداركهم حتى أنستهم عواقبها، وهي التي مهما تأخرت فلن تعدو اللحظة العابرة في مقياس الزمن الكوني، الذي يتراوح فيه اليوم الواحد ما بين ألف وخمسين ألفاً من سني الحياة الدنيا، الى ما لا يعلمه الا الخالق العظيم!. .

وأي غباء هذا الذي يستحوذ على هؤلاء المساكين فيحملهم على إذلال شعوبهم، وتفجير دمائهم، وتدمير مدنهم على رؤوسهم، لغير شيء سوى تلك المتعة العارضة بمشاهدة جماهير المظلومين يجتاحهم الرعب، وسماع هتاف المنافقين يشحنون الفضاء بمدائحهم التي أُلقِيت على ألسنتهم. . وقد أذهلتهم المتعة الزائفة عن المصير الذي ينتظرهم، والذي طالما شاهدوه في مسيرتهم الدامية وهم يغتالون رفاقهم، أو في تقلبات الأحداث التي تجتاح أمثالهم من قتلة الشعوب، وهم يجهزون على بقية شركائهم!. .

أليس لهم عقول تفكر، وقلوب تفقه، وعيون تبصر، فيراقبوا زحوف الجبارين وهم في طريقهم الى مصايرهم القريبة والبعيدة؟!. .

أين جينكيز وهولاكو وتيمور، وطغاة أزمنتهم من مصاصي الدماء ومدمري الحضارات وأعداء الإنسانية؟!. .

أين قرمطِ وأبوطاهر وبابك وأشياعهم من الذين حاولوا نسف الإسلام والقضاء على أهله!!. .

بل أين أيمتهم المعاصرون من سكارى الغرور: أتاتورك وبهلوى وطاهر وزوغو وشيخو وإسماعيل. . ومتابعوهم في حلبات النكال، سوكارنو وناصر وهيلاسلاسي ونميري، ثم دوفاليه جزار هايتي، الذي ضاقت به الأرض بما رحُبت، فلم يجد حتى الساعة مكاناً يؤويه أو دولة تقبل لجوءه!!. .

وأخيراً لا آخرا. . أين بقية الجلادين من الذين سبقوهم في اضطهاد الأحرار، وأغتيال الأبرار، الذين أحالوا الأمن ذعراً، والخصب جدباً، والديار العامرة خراباً يباباً؟!. .

ألا يرون أن هؤلاء الجزارين قد ذهبوا جميعاً فلم يبق لهم من أثر سوى أشباح الذكريات الدامية تَتجدد كلما ذُكِروا، وكلما تنبهت الشعوب المظلومة الى واقعها الأسود الذي ساقوهم إليه!!. .

ألم يأنِ لهؤلاء السكارى أن يعلموا أن البشر الذين يتحكمون في مصايرهم انما هم أمانة الله، قدَّر لهم ولايتها ليبلوهم فيما آتاهم. ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون!. .

قد يكون بين هؤلاء الغافلين من حَبَسَ بصره في نطاق التراب فلا يسمح لعينيه أن تتطلعا نحو الأعلى، ليتذكر الحقيقة الكبرى الماثلة في كل منظور، والصارخة في أعماق فِطَرهم: أن وراء هذا الوجود المحدود وجوداً غير محدود، فيه ﴿**يَصدُر الناسُ أشتاتاً لِيرَوا أعمالهم، فَمَن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرَه، ومَنْ يعملْ مِثقالَ ذرةٍ شراً يره**﴾. .

هؤلاء السادرون الذين عَميت بصائرهم عن رؤية الحق، سيفاجئون بما كانوا يتجاهلون، حين يقال لكل منهم ﴿**لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فَكَشَفنا عنك غِطاءَك فبصرُك اليوم حديد. .**﴾ وحسبهم ذلك مآلا وخساراً. .

ولكنَّ أولئك الآخرين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما نُزِّل على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم يرفضون شريعته، ويؤثرون عليها التحاكم الى الطاغوت. . كيف يستطيعون التوفيق بين الإيمان والكفر، وهم يعلمون أن مجرد الإقرار برسالة الإسلام إنما هو تجديد للميثاق الذي أُخِذ عليهم، بأن لا يتخذوا من

دون الله وكيلاً، ولا يستبدلوا بصراطه المستقيم سبيلاً . .

إن شأن هؤلاء لا عَجب الشَّانِين . . إذ يقولون بأفواههم مالا أثر له في أعمالهم، وهم يقرؤون في كتاب ربهم ﴿**يا أيها الذين آمنوا . . لِمَ تقولون ما لا تفعلون! . كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون**﴾ الصف. ولو هم قد تحرروا من سلطان الهوى لأدركوا بيقين أنهم بتناقضهم يُبَدِلون لله نعمة الله كفراً، ويحلون قومهم دار البوار. . وذلك لعمر الحق هو الشقاء المبين. . وإنما سعادتُهم الحقة بالوقوف عند أمر الله، الذي يُذَكِّرهم أبداً بقوله الخالد ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يُصلِحْ لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يُطع الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾ الأحزاب.

ويا ليت هؤلاء المساكين يتدبرون هذه التوجيهات الإلّهية الحكيمة، فيتذكروا ما فاتهم في غمرات الأهواء. ثم يعملوا بما تهديهم اليه من المنهج السديد الذي يعصمهم من الزيغ، ويرد إليهم وإلى أمتهم ما فقدوه في تخبطهم من أسباب النصر والمجد الحق، إذ يعلمون أن العزة لن تكون باتباع المشرِّقين والمستغربين، ولكنها لله ولرسوله وللمؤمنين.



## ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

الاستاذ (ر. س) صديق قديم، أول ما عرفته في طرطوس إذ جاءها مدرساً للأدب العربي في مدرسة (اللاييك) التي سبق أن أنشأها الفرنسيون أيام الانتداب لتسهم في إعداد الجيل الصالح لخدمة أغراضهم، وبخروجهم من البلاد انتقلت إدارتها الى مواطنين تولوا إدارتها ومواصلة سبيلها المرسوم . .

وكان للهواية الأدبية أثرها العميق في توثيق الروابط مع هذا الرجل والعديد غيره من ذوي النزعة الأدبية بطرطوس وما حولها، وسرعان ما تحولت هذه الرابطة الى تعاون ثقافي جعل منها شبه جمعية أدبية تحمل عنوان (إخوان الصفا) الذين لم نكن لنعلم عنهم كل حقيقتهم، فكل مقال أو قصيدة يكتبها أحد هؤلاء يذيلها عند النشر باسمه مقترناً بذلك الرمز. . حتى انتشر ذكرها، ولمعت بعض الأسماء في إطار هذا الشعار، ثم جاء من يكتب عنها أخيراً فيضيف اليها من لا تعرفه وان كان هو قد عرفها . .

وبعد سنوات في ظل ذلك التعاون جاءت الفرقة التي لا مندوحة عنها، فوقف هذا النشاط واحتجب الرمز، وتباعدت منازل منسوبيها، وكان مصير ذلك الصديق أن عاد الى بلده ببيروت، حيث بدأ محاولته في الصحافة فأنشأ جريدة يومية، واتخذ لها مكتباً في شارع المعرض رفع على واجهته لافتة كبيرة أنيقة تحمل اسم (بريد اليوم) إلا أنها سرعان ما توقفت عن الصدور، كما انقطع ما بيننا وبينه من تلاق، حتى شاء الله ان أتعرف عنوانه الهاتفي في أول زيارة قمت بها الى بيروت بعد تعاقدي مع الجامعة الإسلامية بالمدينة . .

○ وعلى دأب صاحبنا في الاهتمام بأصدقائه ما إن علم بوجودي في تلك

الحاضرة حتى دعاني لزيارته في مصيفه من الجبل اللبناني، وفي بحمدون جددنا اللقاء، وكان ثمة بعض أبنائه وفيهم بنت له عرفتها صغيرة في سنيها الأولى بطرطوس، وقد أصبحت اليوم أمّاً وموظفة في تلفاز لبنان، تشارك في إعداد برامجه الفنية والترفيهية، بعد أن أنهت دراستها الجامعية في الفلسفة، وتزوجت من ذلك الرجل الذي واجهته مع الأسرة لأول مرة، ووجدت فيه الكثير من سمات الطيبة وملامح الخير، وقد عرَّفه حموه بأنه أحد المسئولين في المنظمة العالمية للتوجيه الزراعي في منطقة الشرق الأوسط..

وكان عليَّ أن أعود الى بيروت أصيل ذلك اليوم لأكون على صلة بالدار العربية التى تتولى نشر بعض كتبي، وأصر الرجل الطيب على أن يحملني بسيارته التي هو عائد بها الى بيروت، ولم يكن معه سوى قرينته، فتخلت لي عن المقعد المجاور له وانفردت هي بالمقعد الخلفي..

○ والظاهر أن حديثنا في منزل الصديق والد الزوجة، وكان في نطاق الأفكار الاسلامية، قد حرَّك رغبة الزوجين في مواصلته، فسأل كل منها عما إذا كان ذلك مما لا يزعجني، فقلت: لا بد للمسافرين من وسيلة للتخفيف من متاعب السفر، وفي الكلام ما يوفر المتعة والفائدة..

وقال الرجل الطيب: إني وقرينتي في خلاف لم ننته به الى نتيجة مقنعة على الرغم من طول معالجتنا له..

وبادرت المرأة الى الكلام لتوضح أسس الخلاف ووجهة النظر لكل من الطرفين..

قالت: ان رفيقي يريد أن يفرض مفهومه الديني في كل جوانب الحياة، والذي أراه أن الدين للقلب، وللحياة اليومية أحكامها المستمدة من التجارب البشرية.. ومن هنا جاء اختلافنا، فهو متشبث بالمواريث القديمة التي تقيد حرية الإنسان، فالسباحة المختلطة بنظره حرام، والعروض الترفيهية التي أقدمها للمشاهدين يجب في رأيه أن تخلو من كل المغريات المنافية للالتزامات الدينية.. وقد نسي أن مثل هذه التصورات أصبحت بعيدة عن عقليات الناس، فضلا عما تقيمه من العقبات

في طريق الحرية الشخصية، التي هي غاية الحياة العصرية . .

وانتظرت من الرجل الطيب ان يعقب على تقرير زوجه بما يزيد الموضوع جلاء، فلم يجد ما يقوله سوى أنه يريد الوقوف على مرئياتي في ما سمعته، ليعلم كل منهما مكانه من الصواب والخطأ . .

ولاحظت من عبارة الرجل مدى حيرته بازاء هذه الأفكار، فهو انما برفض وجهة نظر المرأة بدافع من رواسب التربية الإسلامية، دون أن يكون لديه ما يواجهها به من حجة ولا بينة . . وهي انما تجابه ضعفه هذا بما تلقته من توجيهات تحمل طابع العلم، وبما تطالعه من مقررات رجال يسيطرون بأفكارهم على مراكز التعليم والإعلام فى سائر أنحاء العالم الذي تعاصره وتعايشه . .

○ وكان عليَّ بعد أن أحطت بعناصر الموضوع أن أحسن اختيار المدخل المناسب لعرض مرئياتي التي ينتظرانها . . فالوقت محدود، والقضية شديدة الحساسية بحيث لا يصلح معها الا الأناة والحكمة ورب كلمة خارجة عن نطاق هذا الاسلوب صائرة بالقضية الى مضاعفة التعقيد . .

وبدأت حديثي بالثناء على الزوجين لما لمسته من تقدير كل منهما للآخر حتى لم يؤثر الخلاف البعيد في روح المودة بينهما . .

ووجهت كلامي الى المرأة قائلا: قبل النظر في قيمة هذه الأفكار التي تفضلت بعرضها لابد من تحديد ذاتيتنا، وتعيين موقع كل منا بالنسبة الى الانتماء، الذي من شأنه ان يحدد علاقتنا بأنواع السلوك والأفكار.

فالذي أعلمه يقيناً أنك نشأت في بيت مسلم وذي اهتمام بشعائر الإسلام، وبين أهله أفراد مَعْنيّون بالقضايا الإسلامية، وهذا يعنى أن الإسلام هو دينك، فهل حدث ما اضعف هذا الانتماء؟!

وأجابت المرأة بكل تصميم: أبداً . . فأنا مسلمة . . ولكني غير متعصبة . .

حسنا . . وأنا لا أدعوك الى التعصب، ولكني أذكرك بحقوق هذا الانتماء . .

ألا توافقين أن للانتماء حقوقاً على صاحبه؟

حقوقاً!! . .

طبعاً. . وبأي شيء نفرق بين منتم لليهودية ومنتم للنصرانية ومنتم للإسلام. . إذا لم يكن لكل من هؤلاء الثلاثة الخصائص التي تميزه فتحدد معالم انتمائه؟

هذه أحاجٍ لم أفكر بها من قبل، فلو ألقيت عليها بعض الضوء. .

وهذا ما سأفعله. . وأول ما أذكرك به من ذلك هو أن للإسلام أركاناً لا مندوحة عن توافرها في كل منتسب لهذا الدين، أولها شهادة ألَّا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. .

ـ وأنا أشهد بذلك. .

ـ ثم إقام الصلاة، وأيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأداء فريضة الحج على المستطيع. .

ـ أما أنا فأرى أن الشهادة كافية لتثبيت الانتماء، أما بقية الأركان التي تسردها فيغني عنها حسن السلوك، وعمل الخير، وإسداء المعروف لكل محتاج من عباد الله. .

ـ اسمحي لي إذن أن استوضحك عن المراد بعباد الله. . فمن هم عباد الله؟. .

ـ أنت وأنا وهو وكل إنسان، بل وكل مخلوق. .

ـ حسناً فأنت تقرين بعبودية نفسك لله!

ـ لا خلاف على هذا. .

ـ بلى هناك خلاف كبير. . لا يصح إغفاله ولا مناص من بيان الحق فيه. .

ـ وكيـف ؟!. .

ـ إن مجرد إقرار المخلوق بهذه العبودية لربه ينطوي على إقراره بفضله في إيجاده ورعايته وتأمين حاجاته وإحاطته بكل مقومات الحياة. .

ـ لا شـك في ذلك. .

ـ ولا شك أيضاً في أن ربّاً هذه صفاته لا بدَّ أنه مستوفٍ لكل نعوت الكمال، ولا سيما الحكمة التي تتجلى في اتقانه كل شيء، ومن ذلك إرساله الرسل وتزويدهم بالتعاليم الهادية لضبط مسيرة البشر في الاتجاه الأمثل والأقـوم.

ـ وهل ثمة من ينكر ذلك؟!

ـ كثيرون. . وفي مقدمتهم أولئك الذين يعترفون بهذه الحقيقة قولاً ثم يتنكرون لها عملاً. .

ـ لو زدتنا إيضاحاً. .

ـ إن شهادة المسلم بألاَّ إله إلا الله. . التزام منه بإفراده تعالى بالألوهية فلا يعبد سواه، ولا يشرك به شيئاً، ولا يطيع في معصيته أحداً. . أما شهادته بأن محمداً رسول الله فإقرار جازم بأنه مبلِّغ عن ربه ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة، ومقتضاه الالتزام بأن يُخضِع كلَّ تصرفاته لأمر هذا الرسول، فلا يفارق طاعته في كبيرة ولا صغيرة، يقيناً منه بالخبر الإلّهي الذي يقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وثقة منه كذلك بأن طاعته لله ورسوله هي السبيل الوحيدة الموصلة الى سعادته في الدنيا والآخرة. . كما شهد الله بذلك في قوله الحكيم ﴿**ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما**﴾ الاحزاب ٧١.

ـ ولكـن. .

ـ نعم. . إنهـا التـزامـات ثقيلة تكلف المسلم الحق أن يتميز عن سائر ملل العالم، بما يمثله من خصائص الرسالة، التي عليها يتوقف خلاص الانسانية من الضياع، الذي انتهت اليه بمفارقتها سبيل الله الحق. .

ـ ومع ذلك فما نزال ننتظر رأيك في هذا الخلاف الذي يشغلني وقريني دون أن ننتهي به إلى قرار. . وها نحن أُولاء قد أشرفنا على مشارف بيروت، فهل لك أن تسمعنا كلمتك الأخيرة في الموضوع؟

ـ قليل من التفكير فيما أسلفنا من الحوار يضع يدك على هذه الكلمة الأخيرة. .

ـ ولكنك أقدر على تلخيصها لو أردت. .

ـ فتـذكـرى إذن أن الإسـلام إنما هو الاستسلام المطلق لقيادة الله ورسوله، والمسلم الحق هو الذي يعرض كل شيء على موازين الإسلام، وعندما يفعل ذلك لن يقبل أن يكون ذيلاً يجرُّه كل ناعق، بل يكون الرائد الذي يهدى الله به التائهين، وينقذ به الضالين، ويصحح به مسيرة الزائغين. .

وكانت السيارة قد بلغت بنا المبنى الذي فيه مكتب الدار العربية، فتوقفت أمام مدخله، وترجل السائق الطيب منها ليودعني بالعناق وهو يقول: جزاك الله عنا كل خير..

وقالت امرأته: لقد أثار حوارك في نفسي مشكلات جديدة لم تتح لي مواجهتها من قبل.. وسأحاول أن أعيرها الكثير من تفكيري..

ومضيت الى مراجعة تجارب كتبي وأنا أقول: أسأل الله أن يجعل لي ولكما نوراً نمشي به في الناس..

**﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور...﴾**

# مواقف ومشاهد
# بمناسبة المؤتمر العالمي لتاريخ الملك عبدالعزيز

رحم الله صاحب (المنار) السيد محمد رشيد رضا، حامل لواء النهضة الاسلامية الحديثة، التي فجّرتها مدرسة الاصلاح، والناشر لعلوم الإمامين الكبيرين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وإخوانهما، السابقين الى تحريك العالم الإسلامي لاسترداد مكانته السليبة..

على الرغم من كل المشوشات التى تحاك هذه الأيام حول سمعة ذلك الرعيل المبارك، يظل ذكر جهاد المدرسة الاصلاحية متشبثا في الاعماق من قلوب الجيل، الذي نشأ على أفكارها ومطبوعاتها، ويظل أثر صاحب المناور مدوِّن هذه الأفكار أكثر مؤثرات المصلحين رسوخاً على صفحات قلبي وعقلي، إذ عن طريق مجلته العالمية، ومؤلفاته الموسوعية، تعرفت حقيقة الاسلام، الذي كان شيئاً تقليدياً محضاً في أذهان أمثالي، من الذين تلقوا دينهم بالتسليم الموروث الذي لا يفرق بين الأصيل والدخيل.. وعلى ضوء هذه الحقيقة عرفتُ طريقي الى الهدف الأسمى الذي عليه تجتمع رسالات النبيين ما توالى الجديدان، وحتى يرث الله الأرض وما عليها.

كان من فضل السيد محمد رشيد رضا عليّ وعلى إخواني من الشباب المسلم في طرطوس[1] أواخر العشرينات من هذا القرن، أن اجتذب أنظارنا الى شخصية الملك عبدالعزيز آل سعود، وذلك من خلال مقالاته الكثيرة عن جهاده وتفانيه في نصرة دين الله.. ولم نكن لنعلم عن تلك الشخصية الجديدة قبل ذلك سوى ما تحمله الصحف القومية في سورية ولبنان من أخبار تصوره ممثلاً للوهابية، التى

(١) مدينة سورية فيها أكبر مرفأ في الشرق الأوسط.

على زعمها لا تزيد عن كونها مذهباً خامساً يريد تخريب الإسلام، بما يحمله من الكراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولدينه الحق!. يؤيد ذلك ما يتناقله أكثر الحجاج العائدين من أرض الحرمين، الذين لا يتورعون أن يحملوا للناس كل المفتريات التي كانت تغذي أفكارهم عن حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بعد أن يضيفوا اليها كل ما تصوره أخيلتهم من توليدات لا أصل لها، حتى ليحدثوننا عن خيول الوهابيين تُربط في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن تنكر القوم لصاحب الرسالة حتى ليؤثرون عليه العصا التي يهشون بها على غنمهم!..

فإذا رحت تناقشهم فى مرئياتهم ومسموعاتهم لم تجد لها مصدراً سوى أقاويل تهاوت على أسماعهم من هنا وهناك!..

وكان لأسلوب السيد محمد رشيد رضا الموضوعي في عرضه لحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولجهاد ابن سعود، أثره الفعال في تصحيح أفكارنا عنهما وتخليصها من نفثات المضلِّلين.. وهكذا تحولنا من زاوية الظلمة الى ساحة النور، واتخذنا من شخصية الملك عبدالعزيز إمام حق ندعو له، ونعلق على جهوده ـ بعد الله ـ كبار الآمال لنصرة الحركات الإسلامية.. ولو روجعتْ سجلات تلك الأيام في ديوان الملك عبدالعزيز لرأى المراجعون بينها غير قليل من البرقيات التي كنا نوجهها اليه باسم طرطوس، لِشدٍّ أزر المناضلين في سبيل وحدة سورية والاستنكار لعدوان الفرنسيين، اللهم إلا إذا كانت تدابير المستعمرين قد حالت أيامئذٍ دون انطلاق تلك البرقيات الى غايتها المنشودة.

وكان تمرد المرحوم فيصل الدويش قد بلغ أشدَّه في تلك الأيام، وقد أثار ذلك مخاوفنا على النهضة السعودية، وضاعف من قلقنا وقوف الصحف الكبرى كلها في سورية ولبنان في صف المتمردين، تدافع عنهم، وتمجد حركتهم، وتعرضهم في صورة المنافحين عن التقدم والحرية.. حتى جريدة (النداء) البيروتية، وهى كبرى الصحف الوطنية آنذاك، شرعت أقلامها في تأييد المتمردين، والتهجم على السعوديين.. وكنت إذ ذاك أحد كتابها بالمراسلة، أهاجم من على منبرها الفرنسيين وأعوانهم، فلم أتمالك أن أسافر الى بيروت لأناقش صاحبها الأستاذ

كاظم الصلح في موقف جريدته من ذلك المأزق، وما زلت به حتى أقنعته بتعديل نظرته . . ثم لم أفارق مكتب الجريدة حتى سمعته يعرض عليّ أن أسافر الى ميدان المعركة بين السعوديين والدويش، لأبعث إليه بانبائها على الطبيعة . . ولكن شاء الله أن تنتهي المعركة قبل أن أتحرك للسفر إليها .

على أن معركتنا في الدفاع عن سياسة الملك عبدالعزيز لم تقف قط، إذ كان قلمي أحد أثنين ينهضان بهذا العبء على امتداد الدولتين سورية ولبنان . . ولعل من طرائف تلك الأحداث أن أحداً من السعوديين لم يوجه الينا كلمة شكر على ذلك، لسبب بسيط هو أننا لم نحاول الاتصال بأحد منهم، ولم يكن لنا من أرب في عملنا ذاك سوى ابتغاء مرضاة الله، يقيناً منا بأنه الواجب الذي لا مندوحة عنه يومئذ .

○ وفي تلك الاثناء أخرجت ثاني كتبي الخمسين وكان مسرحية تاريخية بعنوان (من تراث الأبـوّة) قبستُ مضمـونهـا من حياة البطل الإسلامي العظيم نورالدين الشهيد بن العماد الزنكى، واستاذ الفاتح الكبير صلاح الدين الأيوبي، وقدمت لها بأبيات وجهتها الى الملك السعودي إذ كنت المح بينه وبين ذلك المجاهد المثالي ملامـح مشتـركـة تجمعهمـا على خدمة الإسـلام، وتجـديد بنيانـه السياسي والاجْتمـاعي، بعـد الاضطراب الطويل الذي اعتور حياة المسلمين قبيل العهد الذي أظلَّ كلا منهما .

وهكذا كان حبنا للملك يزدادة لازدياد مآثره في خدمة الإسلام، وبخاصة بعد الـذي نعمت به مملكتـه من ذلـك الأمن الذي أصبح مضرب الأمثال في أنحاء العالم، والذي بات حديث الحجيج الذين يروون العجائب من أخباره، بعد أن كان الحاج الذي يغامر بالسفر الى الحرمين عرضة للخطف والقتل بأيدي مغيرين لا يرعون في مسلم إلاًّ ولا ذمة . .

ولمـا سكتت مدافـع الحرب العالمية الثانية في ميادين القتال، وأعقبها توزع الغنائم بين المنتصرين، بدأت مشكلات الشرق الأوسط في التفجر، وكانت قضية فلسـطين قمـة المـأساة في هذه الظروف العصيبة، وكان موقف الملك منها هو

الموقف الحق الذي ثلج صدور المؤمنين، وصدم قادة الغرب المنتصر بما لم يتوقعوه، إذ وجدوا في الملك المؤمن السد الذي تتحطم دونه الأعاصير. . وسمعوا من حججه البالغة ما أخرس دعاوى الظالمين من شذاذ الآفاق في فلسطين، التي يراد اقتلاعها من صدور المسلمين. . فكان رده الحاسم تجديداً لموقف أمير المؤمنين السلطان عبدالحميد، يوم ردًّوفد الصهاينة على أعقابهم ينفضون أيديهم من كل أمل بموافقته على هجرة اليهود الى الأرض المقدسة.

وتتابع هذه المآثر الجليلة مستقطبة أنظار العالم الإسلامي الى الرجل الذي أخرجته العناية الإلهية على فترة من الرجال، ليوقظ الراقدين، ويُذِّكر الغافلين، ويجدد آمال اليائسين. . وكان من تمام نعمته أن يخرجه في قلب الجزيرة العربية التي منها انطلقت اشعة الوحي تنشر نور الله في ارجاء الدنيا، ثم يلقي إليه بمهمة الرعاية لشئون الحرمين، اللذين جعلهما مهوى أفئدة المسلمين، ليرد اليهما قيادتهم الروحية، فيكونا مصدر المدد الدافق لتجديد المسيرة الإسلامية. . ثم لا يزيده ذلك التوفيق الرباني الا شكرا لله وامعاناً في الاخلاص للإسلام والمسلمين. .

○ في المؤتمر العالمى الذي عقد للبحث في شئون التعليم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٣٩٧ كان بين المحاضرين طبيب مصري هو الدكتور عبدالمنعم. . وقد أحسن وأفاد حين قدم لمحاضرته بحديث شيق عن الملك عبدالعزيز آل سعود.

ومما قاله يومئذٍ: انه حضر واحداً من مجالسه العامرة بالعلماء والأعيان، وكأن ذلك المجلس قد لامس في نفس الملك مكامن الذكريات فاذا بالدموع تغلبه، واذا لسانه يتمتم بهذه الكلمات:

أي عبدالعزيز. . ماذا تقول لربك غداً عندما يقول لك ألم تكن ضعيفاً فقويتك، وفقيراً فأغنيتك، وطريداً فآويتك. . وجعلت لك حكم هؤلاء المسلمين. . فماذا فعلت بهم؟. . وكيف تصرفت في شئونهم؟. . .

يقول ذلك الدكتور: وهكذا مضى الملك في مناجاته الباكية التي لم تلبث أن استولت على مشاعرنا فأبكتنا.».

وإني لأنقل هذا المشهد وفي خيالي صور العشرات من حكام العالم الإسلامي على امتداد أقطاره فأتساءل: كم بينهم من يشارك هذا الملك المؤمن في خشيته لله. واستعداده للعرض على الله، ومحاسبته نفسه على ما أسلف في معاملته لعباد الله؟!..

ومشهد آخر يحدثنا به الشيخ ابراهيم بن مسفر البشر، من رجال الملك عبدالعزيز الذين رافقوه وعملوا تحت رايته، ويحفظ من أخباره ما لاغنى عنه للعاملين في تسطير سيرته:

يقول هذا الأخ الصدوق: ذات يوم وقف رجل يخطب بين يدي الملك، فجعل يطري أعماله ويشيد بمآثره، حتى قرنه بالفاروق عمر رضي الله عنه، فكبر على الملك ذلك، ولم يتمالك أن قال له: كذبت.. كذبت والله.. أين أنا من الفاروق؟!

ودعنا نتساءل الآن: أكان الخطيب مبالغاً في اطرائه إلى حد الكذب؟!..

أما أنا فأجد للرجل عذره في ذلك الاطراء، لأن الملك عبدالعزيز انما كان من السالكين منهج الفاروق، المتخذين منه ومن اخوانه الراشدين، بعد رسول الله، قدوتهم المثلى، فلا غرو أن يَذكره الخطيب مع الفاروق.. وهو الذي لا يكاد ينقطع عن متابعة حديث رسول الله ﷺ، وسنة الراشدين من بعده، الذين أُمر المسلمون بَلْهَ حكامهم بمتابعتهم في كل ما سنوه للأمة من الفضائل.

وإنما يُكذِّب الخطيب في ذكره مع الفاروق امعانا منه في التواضع لله، وخشية الاغترار بالمدح، الذي قد يصرف الممدوح عن مواصلة سبيل السابقين من الذين أنعم الله عليهم من الصالحين والصديقين..

○ والآن هلم نختم ذكرياتنا بذلك الموقف الذي شهدته مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في مطالع العهد الجديد، الذي أتم الله به نعمته على المسلمين بتوحيد هذه المملكة الغالية.. فهو واحد من الأمثلة المضيئة، التي لا يحسن ان تغيب عن قلم ينبري لكتابة تاريخ ذلك الملك، وما أحسب أحدا من الذين يسجلون اليوم سيرته قد اشار اليه من قريب أو بعيد، مع أنه من الأحداث التي تقع في الصميم

من تلك السيرة المجيدة.

يقول محدثي الثقة، وهو من معاصري طلائع عهد الوحدة:

كان المجاورون من الأفارقة يعانون الأمرين من غارات بعض الأعراب على أبنائهم خلال السنين التي سبقت ذلك العهد، فما إن ينفرد أولئك القساة بواحد من هؤلاء الأحداث حتى يصبح غنيمة لهم لا يستطيع من أسرهم فكاكاً!..

ولم يجد المظلومون بدّاً من اللجوء الى الجهة الحاكمة، رجاء أن يجدوا عندها الحماية التى تدفع عنهم شر هذه الغارات. وهكذا تقدم أول وفد منهم برئاسة العالم المدرس في المسجد النبوي الشيخ الفا هاشم الي ديوان الحاكم التركي، يعرضون عليه مظلمتهم ويلتمسون عطفه، ولكن الحاكم لم يزد على القول بأنه لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فعليهم أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم فيتخدوا من الأسباب المشروعة ما يقيهم ذلك العدوان..

وما هو سوى زمن يسير حتى انطوى عهد العثمانيين ليحل مكانه عهد آخر.

وفي الديوان نفسه يتقدم الوفد نفسه ليجدد عرض ظلامته على الحاكم الجديد، على أمل أن يجدوا لديه ما افتقدوه عند سواه، الا أنه كان أكثر صراحة في الاعتذار اذ قال للوفد: انني إذا اعتزمت السفر الى جهة ما وريَّت بذكر الجهة المباعدة لها خشية المحذور من هؤلاء، فكيف تريدون أن أدفع عنكم كيدهم!..

ثم شاء الله أن تتغير الأحوال كلياً، ويقدم الملك عبدالعزيز لزيارة المدينة المنورة وفي الديوان نفسه قدم الوفد نفسه لمقابلته، فاستقبلهم بغاية الإكرام، ولما رأى ابطائهم في الخروج سألهم عما إذا كان لديهم من حاجة؟.. وهنا يتكلم الشيخ الفا هاشم فيذكر للملك انهم انما هاجروا من بلادهم فراراً من ظلم المستعمرين الكافرين، بعد أن استفرغ المسلمون وسعهم في مقاومتهم فلم تُجدهم الحراب في مقاومة المدافع والبنادق.. غير أنهم ما كادوا يستقرون في هذا البلد المبارك حتى فاجأهم الخطافون بما لم يحتسبوا.. إذ فقد الكثير من ابنائهم حريتهم، وسيقوا الى حيث لا يعلم الا الله!..

وكـان حديث الشيخ مفـاجأة مثيرة لم يتمالك الملك العادل بازائها، فإذا هو ينتصب بهيكله الفارع ليقول للقوم، وهو قابض على قائم سيفه: أيحدث هذا في بلد ولأني الله أمره!!.. إن هذا لن يكون أبداً.

وأشار الملك الى الوفد بالبقاء.. وبعث بطلب شيوخ العشائر، الذين كانوا قد خرجوا من مجلسه بعد السلام عليه، وما ان استقر بالجميع المقام حتى طلب من الشيخ الفا ان يعيد كلامه عليهم..

والتفت الملك الى القوم ليقول لهم: ليعلم الحاضر الغائب أننى سأحمي هؤلاء الاخوة من كل ما أحمي منه أهل بيتي.. والويل لكل من يمد إليهم يداً بسوء..

ثم وجه الخطاب الى رجال الوفد قائلا: ابلغوا إخواننا من سائر المجاورين اننا معهم بكل ما آتانا الله من قوة.

وهكذا انتهت مآسي الخطف والظلم والاسترقاق في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأول مرة يلقى المظلومون بعد عشرات السنين من المعاناة من يسكِّن رُوعهم، ويرد اليهم أمنهم، فيغادرون ذلك الديوان وهم يجأرون بالدعاء الى الله أن يؤيد الملك بنصره، وأن يظله بأمنه يوم لا ظل الا ظله..

○ والآن وقد كرتَّ على ذلك الموقف الرائع عشرات أخرى من السنين، تبدلت خلالها دول وتوالدت أنظمة، وعصفت تيارات ومذاهب في الشرق والغرب، وفي كل جانب من الأرض، نتوقف قليلا لنستشرف واقع المسيرة، ولنتبين مدى التزامها بالخط الأصيل.. ولن يطول توقفنـا لندرك أن الموكب لا يزال بعناية الله مستمر التحرك على النهج الأمثل الذى شقه السلف للخلف.

وما أحرانا ونحن في غمرة الذكرى لمآثر ذلك الملك، أن نتأمل في انعام رسالته الـراشـدة ناطقةً على لسان خليفته الفهد، وهو يخاطب العالم بمناسبة الاسبوع السنوى التاسع للعناية بشؤون المساجد قائلا:

(ونحن هنـا فى المملكة العربية السعودية نعلن للملأ أن القائمين على أمور الـدولـة قد وضعـوا نصب أعينهم هدفـا سامياً لا يحيدون عنه، هو حمل رسالة

الإسلام، واعلاء كلمة الله، والالتزام الكامل بالسير على سنن الشريعة المطهرة، والسعي الى خدمة الإسلام ورفع لوائه عالياً. . .).

ويا لروعته من إعلان يؤكد للملأ أن المسيرة متصلة، وأن التصميم راسخ على مواصلة الطريق الصاعد، وأن العزائم مجمعة على تحقيق المبدأ الذي يردده الجميع:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

# رحلة في عالم الأحلام

كانت مزعجة هذه الرؤيا.. وعلى الرغم من مرور ساعات وساعات على حدوثها لا يزال أثرها في نفسي وكأني اشاهدها الآن..

رأيتني أدخل أحد مكاتب الشرطة لانجاز معاملة ذات علاقة به، فيستقبلني هناك رجل مسترسل الشعر متين البنية لم أعد أذكر بقية أوصافه الجسمية، وما إن وقع بصره عليّ حتى شرع في إزعاجي.. هَمْزاً ولمزاً وغمزاً حتى أثار أعصابي، ولكني تمالكت وجعلت اوجه اليه بعض التقريع، فلا يزداد الا إمعاناً في تلك الحركات الساخرة..

وما إن فرغت من هذا المخلوق حتى وجدتني تلقاء اثنين من شيعته.. وقد بدأ كل منهم يعرض مساخره بشكل مثير، وحاولت التملص منهم، ولكنهم احاطوا بي ولم يَدعوا لي سبيلاً للخلاص، وشعرت كأني اقترب من حالة التفجر، ومع ذلك ظللت متحكما في مشاعري، والتفت إليهم قائلاً: من أنتم أيها القوم؟.. لابد أنكم مسلمون أو نصارى أو يهود أو ملحدون.. فما أنتم؟.. ولا أذكر أني تلقيت منهم جواباً، فقلت: إن كنتم من المؤمنين بالله فبه أسألكم أن تفكوا إساري وتفرجوا عني..

وأغلظت عليهم الحلفة وخوفتهم عذاب الله..

وما أذكر ماذا حدث بعد ذلك.. سوى أني أُعدِت الى اليقظة، وجعلت أتفل عن يساري تالياً الدعاء النبوي (اللهم إني أسألك خير هذه الرؤيا وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها..).

○ وتقفز الى مخيلتي الآن ذكرى رؤيا قريبة من هذه عانيتها قبل أشهر من هذا

العام، ولقيت فيها ألواناً من هذه المزعجات. .

لقد كان الساحر في هذه الرؤيا واحدا فقط. . كان يرتدى قميصاً وسراويل من الخـاكي، ليس من الـطراز الغـربي المجسم لمـا تحتـه، بل كان أقـرب الى السـروايلات اليونانية القديمة التي تتميز باسترخاء خلفيَّتها واستدارتها. . فما إن صار على مقربة مني حتى أخذ يرقص في دوران شبه مستمر، وكلما قابلني بوجهه الشرير جعل يحرك يديه وعضلات وجهه نحوي في تهكم مثير، فأوجه الى فكه لكمة شديدة، لكن سرعان ما يفلت منها كما يتفلت الزئبق من الأنامل. . ويتكرر الدوران فأكرر اللكمات المخفقة، وبستأنف بهلوانياته وحركات يديه ووجهه، حتى نهكنى التعب دون أن أناله بأي إصابة. .

ولعل أغرب شيء في هذه الأحداث هو يقيني التام بأن هذا الخبيث هو القرين الشيطاني الموكَّل بي من ذرية إبليس، وكأنه يئس من تضليلي اثناء اليقظة فجاء ينتقم مني في المنام. . وهو أمر لا يصدقه المتحذلقون الغارقون في مستنقعات المـادية. . وربما استقبلوا إشارتي هذه اليه بالقهقهة الصارخة، إذ لا يستطيعون التصور أن في هذا الوجود شيئاً خارج نطاق المادة التي يلابسونها، مع أنهم في الـوقت نفسـه مقـرون بأن ماديتهم عاجزة عن تفسير الكثير من الاشكالات التي تعتـورهم، ويلمسـون آثـارهـا في حياتهم دون أن يستـطيعوا لها تفسيراً. . ومن المسلَّمات لديهم أنهم كثيراً ما يواجهون مثل هذه الوقائع في رؤاهم الكثيرة، فلا يعيرونها التفاتاً. ويكتفون في تعليلها بما تلقفوه من مزاعم (سيجموند فرويد) الذي يرد كل مشكلة من هذا النوع الى المواريث النفسية والغرائز الجنسية، مؤيدا مزاعمه بأن أيا من هذه الأحلام لا يتجاوز حدود الماضي، وما ترسَّب من ذلك الماضي في تلافيف المخيلات الباطنية. . ويتجاهلون الى حد النسيان الكثير من رؤاهم التي جربوها ثم لم يجدوا لها تفسيراً الا في وقائع المستقبل، التي ليس من النادر أن تأتي صورة مكررة لمرئياتهم التي ينكرون!. .

○ وهنا أجد مخيلتي تتفتق عن مشاهد من رؤىً قديمة يتعذر عليّ نسيانها، وقد تجسمت حتى لتشدني الى عرض نماذج منها في هذا الفصل من مذكراتي، رغبة

في صيانتها من التواري وراء ضباب الشيخوخة، التي أصبحتُ أحس عملها في إضعاف الذاكرة. .

بعض هذه الرؤى كان من النوع المغلَّف بالرمز، وهو الغالب على مرئيات الإنسان، لأنه مؤلف في عالم الغيب. . فلا ينفذ الى دلالته إلا الخِرِّيتُ المتمرس بفك مغلقاته، وها أنذا أسوق بعض أمثلته دون قصد الى ترتيبها الزمني، إذ لم اعد بقادر على تعيين مواقيتها.

١ـ كنت في السابعة عشرة يوم رزقني الله أول مولود أطلقت عليه اسم والدي ـ مصطفى ـ وقد بلغ الأربعين من أيامه عندما قدر الله أن نفقده بسبب جهلنا، إذ غلبني وأمه النوم فلم نتنبه اليه الا بعد أن استهلك طاقته في البكاء والنحيب، ولكن أنفاسه لم تكن قد خمدت بعد، وغرَّني ما رأيته من إقباله على الرضاع، فتركته لأمه وجدّتِه وسافرت الى بلد قريب. . الا أنى لم أكد أستقر حتى تلقيت برقية من عمى يستعجل عودتي، ثم لم أنته الى البيت إلا بعد أن واره الثرى. . رحمنا الله وإياه. .

وفي اليوم نفسه لقيني صديق فسألني: كيف حال مصطفاك؟. . فقلت: لقد لقي وجه ربه ودفن دون أن أراه. .

وهنا جاءت المفاجأة العجيبة، إذ راح صديقي هذا يذكرني بالرؤيا التي قصصتها عليه قبل أشهر، وخلاصتها: أني رأيتني في ذلك البلد القريب، وقد سلكت شارعاً منه مظلماً ومخُوفاً وبيدي سكين شهرتها لدفع ما أتوهمه من المفاجآت، حتى إذا انتهيت الى آخره آمنا لم أجد حاجة لاستبقاء السكين فشككتها في خشبة هناك، وإذا هي تنكسر فيستقر النصل فى الخشبة، ويبقي مقبضها في يدي!. .

وذكرني صديقي اني فسرت له تلك الرؤيا يومئذ بولادة ذكر لي يموت أثناء وجودي في ذلك البلد!. .

٢ـ ثم ها هي ذي صورة أفعى تواجهني في إحدي الرؤى القديمة، ولكن يعلوها وجه آدمي أعرفه. . إنه وجه (فلان) الذي كان أكثر الناس ترددا عليّ قبل أن يشخص الى القاهرة للدراسة الجامعية، ولما عاد لم يعد له من حديث سوى الكلام

عن صداقتـه لطه حسين والعبادي وفلان وفلان من الشخصيات الشهيرة، ولكي يقنعك بهذه الصداقة لابد أن يريك بعض مؤلفاتهم وقد حملت عبارة التشجيع أو التقدير لذاته الرفيعة مذيلة بتوقيع كلٍّ منهم.. وقد خيل إليه الوهم أن الناس لا يعلمون كون الحصول على مثل تلك العبارات المكتوبة بقلم مؤلفها ميسوراً لكل طالب يلتمسها من أستاذه!..

وكان من عمل هذا الفتى إيقاده الفتنة بيننا وبين بعض رفاقنا من شباب البلد، حتى أنتهى الأمر الى التصادم دون أن نعلم علاقته به، الى أن شاء الله أن يكشف حقيقته في هذه الصورة الرهيبة، التي أرتني رأسه على هيكل أفعى!..

٣ـ وتدور الأيام حتى أراني ذات يوم أمام واحد من طيور الحجل، التي كنت مولعاً باقتنائها وتربيتها حتى تألفني وآلفها، وإذا هذا الطائر يكلمني بلسان عربي مبين.. ويؤسفني ألا أستحضر اليوم أي لفظة من ذلك الحديث الشائق الذي سمعته يومئذ.

٤ـ وتُـذَكِّرني بنفسها تلك الرؤيا الرهيبة التي أطلت عليّ ذات صباح من أيام رمضـان عام ١٤٠٣هـ إذ كنت أقضى بعض الصيف في منتجـع أبهـا جنـوب المملكـة، ودون أيما توقعٍ أخذ بصري منظر نار تتأجج في منزل جار لنا قريب بالمدينة المنورة. وتكاد تلتهم منزلنا نفسه.. وشد ما أقلقني ذلك المشهد.. وما إن وافانا الضحى حتى اتصلت هاتفياً ببيت ذلك الجار أسأل أهله عما هنالك، فكان الجواب أن شجاراً كبيراً شب بين الزوجين حتى أوشك أن يصير بهما الى الفراق النهائي.

٥ـ وفي إحدي الليالي من رمضان الفائتة وكنا نقضي أشهر الصيف في منطقة ترمال بتركية، طالعتني رؤيا غير سارة. إذ رأيت اثنتين من أواسط ثناياي السفلى تسقطان دون أن أحس لسقوطهما ألماً. فلم أفهم من ذلك سوى أن حدثاً ما سيعترضنا قريباً، وما هو إلا قليل حتى جاء تأويل الحديث برسوب حفيديَّ وائل وفداء في امتحان الشهادة الثانوية بالمدينة!.

○ ومعلوم أن هذه النوعية من الرؤى الرمزية هي أحد وجهي الصورة التي تصلنا بعالم الغيب، بيد أن تحليلها يتطلب نوعاً خاصا من الإدراك الذي صرح به القرآن

العظيم بقول يعقوب لولده الصديق عليهما السلام ﴿**ويعلمك من تأويل الأحاديث**﴾ . . ومن هنا كان تأويل هذه الرؤى فنّاً لا يحسنه إلا قليل من ذوي المواهب الصالحة لاستشكاف العلائق بين الشيء وما يرمز إليه من حيث قرب المأخذ وبعده . . فبين هذه النماذج التي أسلفتها ما يمكن استنباطه بقليل من التفكير والتدرب ، كشأن رؤيا فرعون عن البقرات السمان ، والأُخر العجاف ، وفي كلا القسمين إشارة ناطقة الى الزراعة التي كان البقر أهم مقوماتها ، فَسِمنها يرمز الى الخصب والنشاط ، كما أن هُزالها رمز الجدب والقحط ، وقريب من ذلك رؤيا ثَنِيَّتي الساقطتين . . ولو كنت متحفظاً ببعض الخبرة القديمة في تأويل الأحلام لما أعياني ملاحظة دلالتهما على ذينك الحفيدين ، لأنهما أدنى الى الرسوب من سواهما ، بسبب فقدانهما رعاية الأب ، الذي شُغل عنهما بالضرب في أكناف الأرض ، سائحاً في بقية الأماكن التي لم تستبوعها رحلاته العالمية من قبل ! .

○ على أن عالم الرؤى العجيب لن تُستكمل صورته بهذه النماذج اليسيرة من مشاهده الرمزية وحدها ، فلننظر الى الجانب الآخر من صورتيه ، وهو المتمثل في النوع الصريح المتطابق مع مرئياته المدهشة . . وحسبنا منه هذه الأمثلة الأخرى . .

١ـ على مقربة من فجر أحد الأيام رأيتني وكأني أنهض من النوم لأرى والدتي ـ يرحمها الله ـ مقبلة عليّ من باب القاعة ، وفي وجهها ملامح الغضب ، فخشيت أن تفاجئني بما يُحرجني فيخرجني عن وعيي ، فجعلت استعطفها وأناشدها أن تهدىء أعصابها لنتجنب العاصفة ، فأبت وأصرت وراحت تمطرني بالموغرات حتى لم أعد أتمالك ، فإذا أنا ممسك برأسي أضرب به الجدار! . .

وأنهض من نومي مذعوراً ، وأقص الرؤيا المزعجة على زوجي ، وما كدت أفرغ منها حتى أطلت الوالدة من الباب نفسه ، وبالوجه الغاضب نفسه ، وجعلت تتقدم نحوى بالحركة نفسها ، فلا أتمالك أن أقص عليها خبر رؤياي ، وأعيد عليها الكلمات التي قلتها لها خلالها ، استدراراً لعطفها واستثارة لصبرها ، فلم أظفر بطائل ، وإذا أنا ممسك برأسي فضاربٌ به الجدار . . على الصورة الآنفة نفسها ! ! . .

٢ـ وذات يوم فقدت محفظة نقودي، واستحال عليّ أن أعثر على أثرها حتى إذا احتواني الكرى رأيتني جالساً على مقعد عند باب الحانوت الذي أتردد عليه، وبينا أنا كذلك إذا بقادم من الجهة الغربية يقبل باتجاهي وعلى وجهه ابتسامة حائرة، فلما حاذاني استوقفته لأقول له: أيْ فلان.. إن محفظتي عندك، ولن أطالبك بها، ولكن أحب أن تصدقني الخبر فتقص عليّ كيف أخذتها؟!..

وما إن سمع كلامي هذا حتى تقدم الى داخل الحانوت، وأمسك بسترتي المعلقة، ثم مد يده الى جيبها الداخلي وهو يقول: هكذا فعلت.. ومن هنا أخذتها.

ونسيت وقائع الرؤيا بعد اليقظة حتى وجدتني على المقعد نفسه الذي رأيتني عليه أثناءها، وإذا الرجل نفسه قادم من الجهة عينها، ولما حاذاني اعدت عليه الكلام نفسه الذي تذكرته لتوي، فإذا هو يلج الحانوت ثم يمد يده الى جيب سترتي قائلا وهو يبتسم: (هكذا فعلت.. ومن هنا أخذتها..).

٣ـ وفي الفترة الزمنية نفسها رأيتني استقبل شقيقتي الصغرى فخرية. التي كانت مع أختها الأخرى في زيارة للوالدة في طرابلس، فسألتها عنها فأجابت (إنها قادمة عصر اليوم) وما هو سوى قليل حتى وصلت فخرية، ولما رحت استوضحها عن شقيقتها ألقت على سمعي الكلمة نفسها: (إنها قادمة عصر اليوم..) دونما زيادة أو نقصان!.

٤ـ وهنا تعاودني ذكريات حوار قديم دار بيني وبين الزميل الاستاذ نديم عدي أثناء اشتراكنا في تدقيق الامتحانات بمدينة حمص.. فقد كان الرجل مأخوذاً بتمحلات الماركسية، حتى لا يستطيع تجاوزها في تفسير أي حادث يواجهه.. وتطرق الحوار الى موضوع الرؤى، فاعتبر البحث في شأنها من الفضول خارج نطاق الفرويدية، ودليله على ذلك هو قرار فرويد الحاسم برد كل منها الى رواسب الماضي، أو الى أحوال الجسم المختلفة.. وقلت له يومذاك: ولكنك لو رجعت الى نفسك لتذكرت أن بين هذه الرؤى ما سبق الوقائع، ثم جاءت الاحداث تكررها على الصورة نفسها التي عَرَضت لك في المنام..

وكان في ضمير هذا الزميل بقية من الوعي الحر، فأطرق يفكر بما سمع ثم قال: حقا.. إن ثمة مرئيات لا يمكن تعليلها إلا بما وراء الطبيعة.

وراح يقص عليّ خبر واحدة من رؤاه التى ما انفكت تعاوده فتحيره..

لقد تراءى له ذات يوم أن واحداً من ذوي قرباه، كان معروفاً بالشراسة، وقد اختلف مع أحد الناس، فلم يتمالك الا أن يطعنه بخنجر شق صدره، وبعد أيام حدث الأمر نفسه كما شهده في الرؤيا , وأعجب ما فيه أن الشق قد وقع على نفس الصورة والمساحة، وبيد ذلك القريب الشرس وخنجره!..

○ وما أحسب قارئاً يطلع على هذه الكلمات الا وتتحرك في صدره بعض الأطياف لرؤى مشابهة عرضت له، وكان تحقيقها في اليقظة على الصورة نفسها، التي عرضت له في منامه.. ونحن مهما نحاول تفسير هذه الظاهرة العامة لكل جنس الانسان لن نخرج عن اليقين بالازدواجية التي فطره الله عليها، فالحادث ـ مهما دق أو جل ـ مرسوم في صفحة الغيب قبل بروزه للحواس على صورة الواقع. ومَثَلُه في ذلك مَثَلُ الصوت الذي نسمعه في المذياع يرتل الآية من بعيد قبل أن يصلنا بها صوت المقرىء.. والفرق بين الصورتين هو أن في وسع الإنسان معرفة القانون الذي يصدر عنه الصوتان في المذياع، على حين لا نستطيع تعليل الازدواجية في الرؤيا الصادقة بالتفسير المادي، فلا يبقى سوى اليقين بوجود الروح، ذلك الجوهر الذي لا يعلم كنهه إلا الله، وقبل ذلك بوجود عالم الغيب الأعلى الذي يحتوى أصول كل ما كان وما يكون، وعنه تنتقل الصوُّر التي يأذن الله بتسريبها الى عالم الشهادة عن طريق ذلك الكائن الخالد العجيب، الذي سيظل علم الانسان، مهما كبر، أعجز من أن يصل الى ماهيته، وسيظل ذلك الطلَّسم المغلق الذي لا تعليل له ولا تفسير الا في ضوء الإيمان بعالم الغيب، الذي هو إحدى كبريات المعالم التي تؤكد للإنسان السوي أنه لم يُخلق عَبثاً، وأن وراء مرحلته العابرة حياة لا نهاية لها، هى غاية الغايات من هذا الوجود المحدود!..

وطبيعي أن وراء ذينك النوعين ـ الصريح والرمزي ـ من عالم الأرواح ضرباً آخر من الرؤى لا يدخل في نطاق أحدهما، إذ لا يعدو كونه أضغاثاً من الإفرازات

الناتجة عن الأخلاط والارهاقات، التي يتعرض لها كل ذي جسم حيّ حتى الحيوان. .

وأخيراً. . ما علاقة هذا كله بأولئك الخبثاء الساخرين، الذين كادوا يدفعون بي الى الانفجـار؟. . من هم؟!. . ومـا الدلالة التي يرمزون اليها؟!!. وما السبيل للخلاص من شرهم؟!!!. .

# قباء الأمس
# وقباء الغد
# وداعا أيها الراحل العزيز وألف أهلا بالقادم الجديد

كان فبان . .

هذه العبارة الخاطفة كثيراً ما تجرى على ألسننا تعبيراً عن التغيرات التي تواجهنا في هذه الحياة المتغيرة أبداً، ولو نحن دققنا في ما يلابسنا وما يحيط بنا من الأشياء، حتى الخواطر والأفكار، حتى الذرات التي تتألف منها أجسامنا، لوجدناها صالحة لتصوير واقعها الذى لا يستقر على حال . .

وهكذا وجدتني أُردد هذه العبارة أمس واليوم في عفوية ذاهلة، وانا أنظر الى اشلاء هذا المسجد العزيز، الذى قدر الله أن يودع آخر لحظات عمره المبارك، ليفسح مكانه لمسجد جديد أقدر منه على استيعاب حاجة (قُباء) بعد أن اتصلت ابنيتها بقلب المدينة الحبيبة . .

هذا البناء الذي يحمل هوية الحصون القديمة، والذي كان الى أيام خلت مهوى أفئدة المؤمنين يزحفون نحوه من شتى انحاء العالم الإسلامي، ليجددوا ذكرياتهم بالمعاني التي حملتها هجرة إمام المرسلين، وليرووا أشواقهم الى البقعة التي خطط فيها لأول مسجد أسس على التقوى، ثم لم ينفك يتردد عليه حتى لقي وجه ربه، فهم يتأسون به في قصده للصلاة يقيناً منهم بقوله عنه (من تطهر في بيته فأحسن الطهور ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان له كأجر عمرة)[1]

وبدافع من هذا التوجيه النبوي الكريم توالت مساعي المحسنين من رجال الإسلام على رعايته والعناية به منذ ثالث الراشدين رضي الله عنه، الذي أحدث فيه

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.

أولى الزيادات، إلى أيام خامسهم عمر بن عبدالعزيز، الذي حباه بالزيادة الثانية وأقام له أول منارة، وعُنِي بتنميقه على أحسن الوجوه، ومن ثم تتابع المصلحون عليه حتى كان زمن السلطان محمود خان العثماني الذي جدد بناءه الأخير عام ١٢٤٠هـ وأولاه من الاهتمام ما وسَّع رقعته ورفع سمكه وشدّ أسره، ليتمكن من مواجهة الأحداث بقوة قيضت له أسباب البقاء كل هذه السنين. . حتى جاء اليوم الذي ضاق فيه عن احتواء القادمين للصلاة، وبخاصة أثناء مواسم الجمعات والأعياد، بَلْهَ الزيارات التي لا تكاد تتوقف على مدى العام كله. .

○ لقد بلغ زحام الناس على أبواب هذا المسجد المودع حد الخطر، إذ قصر مصممه الهندسي عن ملاحظة المستقبل الذي انتهى اليه، فجعل له باباً واحداً في جداره الغربي، وآخر في الجانب الشمالي، انسياقاً مع واقعه القديم، أيام كانت قباء مجموعة من المزارع المتفرقة، لا يكاد سكانها المجاورون للمسجد يَعْدون عدد الأصابع، وقد أستمر امرهم كذلك الى أواسط القرن الرابع عشر الهجري، حيث كان الشيخ المكلف امامته وخطابته يبحث عن الأفراد الذين يكملون له نصاب الجمعة فلا يجدهم الا بعد عسر وجهد.

بيد أن ذلك الواقع سرعان ما اعتراه التغير المفاجىء بما أحدثه العهد السعودى من تطور في حياة الناس اجتذب الكثيرين من أبناء البادية للاقامة في حواضر المملكة، وكان نصيب قباء من هذا الزحف كبيراً. وقد تجلى ذلك في رواد هذا المسجد الذين تحولوا من الأحاد الى الصفوف المتعددة التي تستوعب المئات. . فإذا أقبلت المواسم رأيت الداخلين منهم والخارجين يكاد يطأ بعضهم بعضاً على الباب الغربي، الذي اقتصر على المؤمنين، إذ تُرِك الآخر الشمالي للمؤمنات.

وبإزاء هذا المشهد المهيب لم يكن بد من التفكير بتدارك هذا الوضع والعمل لتيسير الأمر على المسلمين، ولعلي كنت أسرع الناس الى هذا التفكير، لأن منزلي في مقابل المسجد كان يقتضيني أن أؤدي فيه صلواتي كلها، الا حين يضيق عليّ الوقت بعيداً عنه، فأنا إذن من أشدهم احساساً بذلك الوضع، وهكذا ألهمني الله أن أكلم الأخ الشيخ عبدالله بن صالح القاضي، أحد كبار العاملين في حسبة

المدينة، ليقوم بإبلاغ المسئولين عن الأوقاف أني مع ولدى حسان نلتمس الإذن لنا بإحداث بابين آخرين على جانبي المدخل الغربي، لتسهيل مرور المسلمين ورفع الحرج عنهم ولما سمع فضيلة الأخ المحسن الشيخ عبدالحميد عباس بعزمنا ذاك رغب أن نشركه في تكاليف المشروع ولكن المسئولين جزاهم الله خيراً لم يكادوا يعلمون بهذا العرض حتى أبدوا اهتمامهم بذلك الأمر وقرروا تنفيذ المشروع على نفقة الأوقاف، وما هي سوى أيام حتى كانت الأبواب الثلاثة مفتحة لاستقبال الناس وتشييعهم في أمن وعافية، ولله الحمد.

○ على أن الأبواب الثلاثة ظلت محدودة الأثر بإزاء تلك السيول المتزايدة من أفواج المؤمنين ومن هنا جاءت هذه الحركة المباركة لإحداث التوسعة الجديدة، التي اقتضت اقتلاع المسجد العريق من أساسه، وسرعان ما أخذ القرار طريقه المرسوم منذ وضع الملك فهد بن عبدالعزيز حجر الاساس في صفر الخير من العام ١٤٠٥هـ، ومن ثم انطلقت المواهب والأيدي تعمل في نشاط لا يعتريه التوقف..

وعلى دأب الملك فهد الذي عود مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهدى اليها في كل زورة مأثرة جديدة، فقد جاءت مأثرته هذا العام عامة شاملة، إذ بوشر في تحقيق المرحلة الجديدة من توسعة المسجد النبوي، فأزيلت من حوله الأحياء والأسواق، وبدأت معالمه المباركة تطل على المسافات البعيدة من فسيح الرحاب.. وكان حظ قباء من هذا المأثرة القيام بهذه الإنشاءات الفخمة.. التي ستهب لهذه المحلة الكريمة واحداً من أروع مساجد المملكة سعة وجمالاً، إذ قدر استيعابه في مرحلته الراهنة ثمانية آلاف مصل، وهو ما يوازى سبعة أضعاف المسجد السابق.

ولقد كان من تمام هذه الخدمة المبرورة بالنسبة الى قباء ألا يمس مسجدها العثماني العريق الا بعد أن يهيأ القسم الشمالي من الجامع الجديد لاستقبال المسلمين، وها نحن أولاء نؤدي في هذا القسم صلواتنا الخمس، وقد نظم داخله أحسن تنظيم، فنصُب في قبلته جدار من الخشب المضغوط، ومُد له سقف من اللدائن الأنيقة، أطلت من خلاله أنوار النيون، وتدلت منه عشرات المراوح، الى

عشرات المكيفات التي احتلت امكنتها في أعالي الجدران، استعداداً للتخفيف من لذعة الحر القادمة عن مئات المصلين . .

○ ولقد جاوزت سعة هذا القسم مساحة المسجد المغيَّب، وكل أولئك في نطاق التدابير المؤقتة التي ستزول مظاهرها بمجرد أن نستكمل القباب التركية أوضاعها، وتتصل أجزاء البناء بعضها ببعض ولا يبقى من حاجة لهذا الساتر الجنوبي، ولا لذلك السقف المرتجل الذي سيغدو ذكرى بعد عِيان، إذ يأخذ فضاء المسجد صورته النهائية من الارتفاع والزخارف اللائقة، ويجد المصلون أمامهم الأبواب الكثيرة والفسيحة التي ستريحهم من هذا الزحام الجديد، الذي كان يأخذ بخناقهم وهم يحاولون الخروج من الباب الوحيد الذي هيء لهم على عجل، قبل أن يتم انشاء البابين الكبيرين اللذين احدثا في الجانب الشمالي لكل من قسمي الرجال والنساء.

وهكذا تمضي مراحل المشروع تباعاً، ويمضى عماله وموجهوهم في إبراز الجديد من معالمه يوما بعد يوم، بل ساعة فساعة . . ولئن امتدت بالقارىء الحياة، ريثما يستوفي المخطط تمامه لَيَرينَّ مسجداً يحتل مصلاّه أربعة آلاف ومئتين وخمسين من الأمتار، عدا الفسحة الملحقة بالمصلى وهي تقارب الألف، وقد قامت الى جانبه المكتبة اللائقة بأول مسجد خطط له أمام النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وآله، عقيب وصوله المدينة، ونهضت في شرقيه مساكن الأيمة والمؤذنين في مساحة تناهز الألف من الأمتار أيضاً، وصُمِّمت لها مواقف خاصة لتسعٍ من السيارات، وتفرعت من حول هذه المنشآت ما يعوزها من المواقف المتكاملة والسوح الرحبة والشوارع المتناسقة، إلى ما لا مندوحة عنه من مراكز الصيانة التي خصصت لها مساحة أربعمئة وتسعين متراً . .

ومن خلال هذه الجهود الضخمة، وعلى أكداس الملايين من الأموال التي تبرع بها ملك البلاد، يتراءى لعين الخيال مسجد قباء الجديد بمنائره ـ الأربع الشامخة ـ وقبابه المهيبة الباهرة تحفة عالمية تتألق بجلال الإسلام، وأروع منجزات الحضارة إن شاء الله.

وليست هذه التكرمة، لأول مسجد خطه رسول الله صلوات الله عليه وسلامه، سوى واحدة من مبرات البيت السعودي، الذي ما برح يبذل الجهود تلو الجهود والبلايين تلو البلايين لخدمة الحرمين اللذين أصبحا بفضل ذلك مضرب الأمثال في أفانين الجمال والجلال..

○ وحسناً تفعل مصلحة الآثار والتراث المحلي في المملكة، بما تقوم به من إعداد للمتحف الذي سيحفظ للأجيال القادمة من المسلمين نماذج حية من معالم العمران السابق لهذا العهد في سائر مناطق هذه البلاد، وبخاصة منها مكة المكرمة والمدينة المنورة، اللتين نالتا من التجديد والتطوير ما يكاد يأتي على صورتهما الماثلة فى مؤلفات المؤرخين قدامى ومحدثين.. ولعلي لا أبالغ إذا قلت أن الذي شهدته عيناي من هذه التغيرات في طيبة المباركة خلال ربع قرن من مجاورتي فيها كاف لإثارة الدهشة البالغة في نفوس زائريها، الذين عرفوها قبل بضع سنين، وألفوا أوضاعها كما ألفوا منازلهم ومواطن أهليهم، ولكنهم ما ان يواجهون واقعها الراهن حتى تأخذهم الحيرة فلا يكادوا يعرفون طريقهم خلالها، لولا معالم المسجد النبوي الذي يوشك بملحقاته الجديدة أن يستوعب وسط المدينة بأجمعه، فيحدد للوافدين اليه مناطق السكن والتحرك في الشوارع المتجهة كلها نحو المسجد المبارك.. ومن هنا أصبحت الحاجة ماسة الى اقامة معالم ولوافت تحمل اسماء المواقع التى غيبها التطور الى جانب اسمائها الحديثة، لتربط بين تراث الماضي ومآثر الحاضر في أذهان جماهير الحجاج والزائرين.

○ وبعد فإن التطور الحضاري الذي تستقبله طيبة المباركة هذه الأيام لحري أن يُشيع البهجة في أعماق كل وافد ومقيم من المؤمنين، ولكنها بهجة تلابسها غمة ما أحسبني الوحيد الذي استشعرها، وأنا أنظر الى مَعْلَم الأمس في قباء، تتهاوى أركانه، وتخر منارته تحت ضربات الأجهزة الجبارة، لتحيله ما بين ساعة وأخرى هضابا من الركام، لا تلبث أن تفارق البقعة العزيزة الى مصيرها المجهول مخلفة مكانها للقادم الجديد العتيد.

وكيف لا تغص صدور الجماهير من رواده، وبخاصة جيرانه الأقربين، بإزاء هذا الفـراق المفـاجىء، وهو الذي كان حتى الأمس القريب يظلهم بروحانيته، ويملئون فضاءه بمناجياتهم للخالق الرحيم، الذي أكرم هذه البقعة بنزول رسوله الصادق الأمين منذ اليوم الأول لوصوله من بيته الحرام. .

كيف لا يغصون ويأسون لفراق هذا الأنيس الكريم، الذي لم ينقطع داعيه عن تذكيرهم بمواقيت صلواتهم طوال أربعة عشر قرناً، فيهرعون الى تلبيته مسبحين مهللين، ليشحنوا قلوبهم بالجديد من الطاقات، التي تساعدهم على الصمود في وجه النازلات، وتحصنهم من مضلات الفتن والشهوات!.

كيف لا يغصون ويحزنون وهم يتأملون ويتساءلون: لقد كان هذا الجار الوفي شاهد الأمس الصدوق على رواده، فماذا سيكون نصيبنا منه غداً، يوم تشهد على النـاس أيديهم وأرجلهم وجلودهم بمـا كانـوا يعملون؟!. . أعلينـا فيكون البلاء الشديد، أم لنا فيكون النجاء السعيد؟!. .

ومثـل هذه الذكريات يثيرها مجسد الثنيَّة، ومسجد القبلتين، وسائر المساجد الأخرى التي تواجه التجديد في طيبة الطيبة هذه الأيام، فتهز مشاعر روادها وهم يشهـدون هجمـات الأجهزة الجبارة عليها، فلا يتمالكون أن يشيعوها بمثل هذه النـظرات الآسية، والتـأمـلات الحانية. . على الرغم من علمهم بما وراءها من التحسينات البارعة الزاهية. .

أجل. . إنها لبهجة تلابسها غصَّة. . وحُقَّ لنفوس المؤمنين أن تجمع بينهما، لأن كل ذرة في مدينـة الحبيب حبيبة الى قلوبهم، فكل تكرمة توجه اليها قمينة بابتهاجهم، وكل أثر منها يغيب عن أبصارهم حقيق بإثارة شجونهم. .

فوداعاً أيها الراحل العزيز، وألف أهلاً ومرحباً بالقادم الجديد، الذي نسأل الله أن يجعل عهده منطلق خير وبركة في مسيرة الإسلام والمسلمين.

# تجارب حية في عملية التربية والتعليم

١ـ الطرق التي يقررها علماء التربية للتدريس كلها مستنبطة من التجارب العملية التى مارسهـا بعض المـدرسين، ولا سيما أولئك الذين يمتازون بدقة الملاحظة والـرغبة في الإفادة، والشعور بأهمية الرسالة التي يحملونها. . هؤلاء لخصوا لنا خبراتهم وتجاربهم فصيغت منها القواعد التى يدرسها المؤهلون للتعليم، ليعملوا بها وليسيروا على ضوئها.

ولكن على المدرس اللبيب أن يتذكر أن هذه التجارب لم تبلغ بعد المرحلة النهائية بحيث يُظن أنها جامعة مانعة لا تقبل إضافة ولا تعديلا. بل الأمر على الضد من ذلـك فليست هذه التجـارب العملية سوى عينة محدودة لما يمكن للمدرس الحاذق أن يستخلصه من خلال تجاربه الشخصية اليومية.

فالمدرس الذي يستعمل عقله في أداء عمله يستطيع أن يستنبط كل يوم جديداً من الأسـاليب والـطرق الأكثـر فائـدة. . وعليه أن يتذكر أن لكل بيئة خصائصها المميزة. فرب طريقة ناجحة في وسط تعجز عن النجاح في وسط آخر. . ولهذا كان للتجارب اليومية الحية في عمل المدرس النابه قيمتها المعتبرة.

٢ـ ولنذكر على ذلك بعض الأمثلة:

في إحدى المدارس السورية وزعت الادارة بالاتفاق مع مدرسى المواد المختلفة حصص النشاط فكان لكل مدرس مادة حصص معينة للقيام بالنشاط المتصل بها. كالجغرافية والتاريخ والحساب والعلوم وما إليها. . إلا مادة التربية الإسلامية فلم تخصَّصْ بأية حصة. إذ كان مدرسها غائباً عن ذلك الاجتماع ولم يخطر في بال المـدرسين الآخرين أن في مادة الدين أي مجال لنشاط ما. فلما حضر مدرسها

وعلم بإغفال مادته من حصص النشاط أبدى استغرابه. وبدلا من أن يستريح إلى إعْفائه من تلك الحصص التى ستشغل بعض أوقات راحته الخاصة خارج مواعيد الدوام. أعلن احتجاجه على ذلك الإغفال، وأكد أن مادة الدين أخصب مجال للنشـاط المدرسى. . وبالفعل لم يلبث أن برهن على صواب ما ذهب إليه. إذْ استحدث لحلقته الدينية ألواناً من النشاط أدهشت زملاءه. . واجتذبت الموجهين والمدرسين الآخرين لمشاهدتها. . وهكذا أثبت هذا المدرس الكفء أن المدرس الصالح جدير بأن يبتدع من أساليب التربية ما يستحق أن يحتذى في سائر المدارس.

لقد أدرك هذا المدرس أن دروس الدين الإسلامي ليست قواعد جافة تقف عند تعريف المصطلحات وبيان الشروط والأركان. واستنباط الأحكام. ودراسة الألفاظ والمعانى. . ولكنها الى جانب هذا كله تربية خلقية تتحول الى أعمال تتجلى في سلوك أصحابها.

ورأى أفضل الوسائل لابراز هذه الحقائق أن يستعين بالتمثيل والخطابة والمحاورات. . فراح يتخير من تاريخ الإسلام بعض المشاهد المؤثرة فيصوغها في تمثيليات قصيرة. يوزع أدوارها على عدد من التلاميذ. ويدربهم على أدائها أمام الجمهور. . حتى إذا تمت الاستعدادات لذلك قام التلاميذ المدربون بعرض تمثيليتهم على مسرح المدرسة. . فشاهد النظارة تلك الأخبار التاريخية. التى كانوا يقرؤونها في الكتب. أو يسمعون بها من الرواة. أحداثاً متحركة أمام أعينهم، فيتأثرون بها أكثر من قراءتها.

فتمثيلية عن الزكاة، وأخرى عن الحج. وثالثة عن الوفاء. ورابعة عن الأمانة. . وما الى ذلك من الفضائل الإسلامية. التى من شأنها. إذا أدرك المسلمون معانيها وحققوها في سلوكهم. أن تجعل منهم كما جعلت من أسلافهم خير أمة أخرجت للناس. .

وهكـذا استفاد من الخطابة والحوار. . يعرض بهما المعانى الإسلامية عرضاً مؤثراً جعل الناظرين واثقين من أن مادة الدين أخصب مجالات النشاط المدرسي بالفعل.

وهذا المدرس الناجح إنما عمد الى تلوين أساليبه من تمثيل الى خطابة الى حوار وغيره ابتعاداً عن الجمود الممل. لأنه لو اكتفى بالتمثيل وحده لانتهى بتلاميذه ومشاهديهم الى السأم. وكذلك الوقوف على لون واحد من الأساليب يفقده الحيوية والتشويق.

إذن فعلى المدرس أن يطور أساليبه في إعطاء الدرس. وفي النشاط المدرسى حتى لا تبعث على الملل.. وبذلك يضمن انتباه تلاميذه وحبهم للدرس وتفاعلهم معه.

ولنستفد في هذا الصدد من حكمة أبي تمام القائلة:

لا يُصلح النفس إن كانت مُدبَّرة إلا التنقل من حالٍ إلى حالِ

٣ـ والمدرس المسلم أحق المدرسين بالانتفاع من مثل هذا التجديد لأساليب التدريس والنشاط.. ومراعاة الوسيلة الأنجع في إفادة التلاميذ وتربيتهم على روح الإسلام. ولينظر هذا المدرس الى أساليب القرآن العظيم. والألوان المختلفة التى حملت معانيه يعلم أن التزام الصورة الواحدة. في التعبير والتعليم والسلوك، مخالف للأصلح والأنفع.

فالتعبير القرآني قد سلك كل ألوان الأساليب العربية في إبلاغ مقاصده. فهناك الأسلوب القائم على السجع. والفواصل. وهناك الأسلوب المرسل. وفيه الآية القصيْرة التى لا تزيد عن الكلمة. وفيه الطويلة التى تستوعب الصفحة.. وفيه التمثيل والتشبيه والايجاز والاطناب.. والاستفهام والتقرير.. الى غير ذلك من الأساليب التي يستولى بها القرآن العظيم على الألباب. ويثير العواطف ويحرك الضمائر ويطلق الخيال. ويَشْغَلُ كل ما تنطوى عليه النفس من الطاقات.

وكذلك القول في العبادات.. ولنمثل لذلك بالصلوات المكتوبة فهى ما بين ركعتين وثلاث وأربع وبين جهري وسري.. وقد اختلفت المسافة بين أوقاتها.. ولعل بعض الحكم العجيبة في ذلك هو إبعاد هيئة العبادة عن تكرار الصورة الواحدة. الذي قد يؤدى بها الى أن تصير عادة آلية فتفقد بذلك روح الجدة.. والله أعلم.

٤ـ ونظرة مماثلة الى أساليب الرسول في التعليم. وهو المعلم الأعظم صلوات الله وسلامه عليه الذي أوتي الحكمة وجوامع الكلم والخلق العظيم.

لم يلتزم صلى الله عليه وسلم في تعليمه أسلوباً واحداً ولا هيئة واحدة.. بل كان يعطى لكل مقام ما يناسبه من المقال والهيئة.

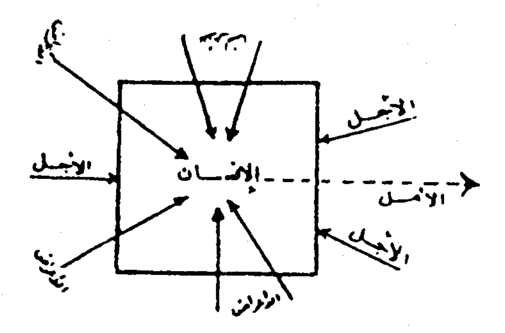
لقد أمر ونهى.. وخطب.. وقصَّ.. ومثَّل.. واستعمل وسائل الايضاح. سأل مرة أصحابه ـ تلاميذه ـ أتدرون من المفلس؟.

وكان السؤال محركاً لتفكيرهم. فأجابوا بما يعلمون من صفة الإفلاس. وهناك فاجأهم بما يقصد إليه من الافلاس المعنوي.. الذي يحشر صاحبه يوم القيامة وليس معه ما يفي بما عليه.. ومن هذا وأمثاله من الأسئلة النبوية نتعلم كيف نستثير انتباه تلاميذنا وننشط أفكارهم للبحث.. وفي حديث جبريل عليه السلام أسلوب تعليمي عجيب. ما أجدر المدرس المسلم أن يستنبط منه الحكم البالغة..

وأذكر أن مدرساً فطناً قد استفاد من هذا الحديث في أحد الدروس إذ درَّب فراش المدرسة على أداء دور معيَّن. وفي أثناء الدرس جاء هذا الفراش واستأذن المدرس ليسمح له بالاستماع الى درسه. ثم أخذ يطرح عليه بعض الأسئلة المتصلة بصميم الدرس.. فلم ينته الحوار حتى كان التلاميذ قد أحاطوا علماً بكل تفاصيله..

وفي حديث (ما فعل النغير يا أباعمير) إرشادات حكيمة توجه المدرس الى أنجح الطرق في تعليم تلاميذه إذ تحببهم بمدرسهم لما يرونه من رعايته إياهم واهتمامه بمشكلاتهم..

أراد صلى الله عليه وسلم ذات مرة أن يعمق ارتباط تلاميذه رضى الله عنهم بالآخرة فصور لهم حياة الإنسان وما يحيط به من أحداث الدنيا أعجب تصوير. إذ رسم مربعاً رمز به الى الأجل وجعل في وسطه خطا رمز به الى الإنسان يحيط به الأجل وينطلق منه الأمل. وفسر الخطوط الصغار بالأعراض ـ المصائب ـ تنهشه من هنا وهناك.




ومثـل هذا التمثيل يعتبر من أرقى أساليب التعليم لاعتماده الرسم الايضاحي المثبت للفكرة.

وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يعمد الى القصة لابلاغ ما يريد من الأفكار والإرشادات. فتأتي غاية في البلاغة والتأثير. . إذ تعرض الفكرة ممثلة في أشخاص بأعيانهم فتستهوي القلوب والعقول وتثير المخيلة لاستخلاص العبرة.

من ذلك قصة الملك والساحر والراهب ـ في صحيح مسلم ـ ثم قصة الثلاثة الذين تكلموا في المهد ـ للشيخين ـ ثم قصة أصحاب الغار الذين نجاهم الله بحسنـاتهم ـ لرزين والتـرمذي ـ وكذلك قصة الأبرص والأقرع والأعمى من بنى إسرائيل ـ للشيخين ـ.

ومن شأن أمثال هذه القصص أن تعلم المدرس كيف يستفيد من أسلوب القصة في إمتاع تلاميذه وإفادتهم.

٥ ـ وجدير بالمدرس أن يتفطن الى أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكلام. وكيف كان يؤدى معانيه في أناة تمكن السامع من الاستيعاب. حتى لو شاء لعد ألفاظه. وكذلك تكراره لعباراته حتى لا تغمض على السامعين.

والفـائـدة التى نقتبسهـا من هذه الـطريقة ألا نعجل في خطاب تلاميذنا عند الشرح. . وأن نتخذ كل الوسائل التي من شأنها تمكينهم من الفهم والاستيعاب والحفظ.

وطبيعي أن نهوض المدرس بمثل هذه الأعمال تقتضيه أن يكون ذا ثقافة حية واسعة. وهذا يعنى أن عليه أن يكثر من الاطلاع على العلوم قديمها وحديثها. ولا يتوافر له ذلك إلا بالإكثار من المطالعة لتجديد عقله بالكتب النافعة، فان معلومات الإنسان كالماء. إن لم يكن على اتصال دائم بالمنابع الصالحة انتهى الى الفساد. وسعة معلومات المدرس تساعده على إفادة تلاميذه في كل ما يشكل عليهم. فلا يشعرون بعجزه. لأن عجز المدرس وقصور إدراكه يعرضانه لسخرية طلابه. وعليه أن يتعهد تغذية عقول تلاميذه بارشادهم الى الكتب الملائمة لمداركهم والنافعة لهم في دينهم ودنياهم. ولا يتأتى له هذا ما لم يكن على صلة بما ينشر ويكتب.

# على السبورة

# درس نموذجي في الحديث الشريف

# وما ينطق عن الهوى

مقرر اليوم من الحديث النبوي ١٤٠٤/٧/٦هـ

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة. فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسلفها. إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا: لو خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا. فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». رواه البخاري.

**عمل المدرس في هذا النص:**

١ ـ تعريف موجز بالصحابي راوى الحديث. وبالبخاري مخرجه ومنزلة كتابه الجامع.

٢ـ قراءته للحديث في أناة وتفصيل.

٣ـ تكليف بعض التلاميذ قراءته على طريقته.

٤ـ تدريب التلاميذ على تحديد معانى المفردات بدعوة بعضهم لشرحها ثم الوصول الى مرادها.

٥ـ تكليف التلاميذ كتابة معانى هذه المفردات في كراسة خاصة ضمن جدول ـ لزيادة معلوماتهم اللغوية ـ وذلك بعد كتابتها على جانب السبورة أو أعلى السبورة الإضافية.

**مثلا على ذلك:**

القائم : الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

حدود الله : أوامره ونواهيه.

الواقع فيها : المتجرىء عليها.
استهموا : اقترعوا. أي تقاسموا أمكنتهم بطريقة الاقتراع.
استقى القوم : طلبوا الماء لحاجتهم.
الخرق : النقب والكسر. ومنه قوله تعالى: حتى إذا ركبا في السفينة خرقها
هلكـوا : تعرضوا للهلاك.
نجّوا : بالتشديد: سببوا النجاة لغيرهم.

٦ـ تطبيقـات إعـرابية: أين تُعلق الجـار والمجـرور (كمثل) وما علاقته بأول الحديث (مثل القائم)؟ كيف تعرب (أعلاها وأسفلها)؟ وأين تعلقهما؟.

كيف تعرب (وما أرادوا)؟ ومن أى نوع هذه الواو السابقة (ما).

٧ـ شرح بعض العبارات: استهموا على سفينة ـ لو خرقنا في نصيبنا خرقا ـ وما معنى (لو هنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا ـ أخذوا على أيديهم..

**٨ـ أسئلة حول النص.**

١ـ ما الموضوع الذي يدور الحديث حوله، وما مراد رسول الله ﷺ منه؟

٢ـ هل للحديث علاقة بمبدأ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)؟ وكيف؟

٣ـ ما العنوان الذي يناسب هذا الحديث؟

٤ـ كيف توزَّع القوم أمكنتهم في السفينة؟

٥ـ من الذي اقترح خرق السفينة؟ القوم كلهم أم بعضهم؟ وما دليلك؟

٦ـ بأي دافع حاول هؤلاء خرق السفينة؟ هل كان في نيتهم الإضرار، وما دليلك؟

٧ـ هل تم الخرق أو منعوا منه؟ وكيف علمت؟ مع العلم أن الحديث لم يشر الى النتيجة؟.

٨ـ لماذا ترك الرسول ﷺ الكلام على النتيجة التى انتهوا إليها؟

٩ـ كم صنفاً كان هؤلاء الركب؟ عقلاء.. أغبياء.. طيبون.. سيئون؟.. أجب بتفصيل؟

١٠ـ على أي شيء يحضنا هذا الحديث؟

**خلاصة الحديث من خلال الأجوبة:**

تكتب على السبورة ويطلب إليهم اثباتها في كراساتهم مقرونة بعنوانها ومختومة بتاريخها.

**أسئلة حول الاسلوب:**

١ـ لقد عرض الرسول ﷺ الفكرة التى أرادها بأسلوب التمثيل والقصة. وكان بالإمكان عرضها بأي أسلوب آخر.. فلماذا اختار هذا الأسلوب دون سواه؟

٢ـ تحدث عن جمال التشبيه بين الفريق الأول ـ القائم في الحدود والواقع فيها ـ والفريق الثاني القوم الذين استهموا على السفينة..

٣ـ التشبيه في الحديث من النوع المركَّب، فمن يقابل القائمين في الحدود، ومن يقابل الواقعين فيها؟

٤ـ هل تجد في ألفاظ الحديث ما يمكن الاستغناء عنه؟ وهل ترى لفظة يحسن استبدالها؟

٥ـ كان رسول الله ﷺ خير معلم للناس.. وخير دال على الخير.. فهل في الحديث دليل على هاتين الصفتين؟

٦ـ يقول رسول الله ﷺ في حديث آخر، مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ـ رواه مسلم ـ فهل ترى من تشابه بين موضوع هذا الحديث والحديث الآخر؟.. وكيف؟..

وكذلك يصف الله المؤمنين بقوله: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾** فهل للحديث علاقة بهذا الوصف؟.. أوضح ذلك؟

**ملاحظة**: روعي في هذا التحضير مستوى السنة النهائية من القسم المتوسط، وإذا أردنـا تخصيصه بما دون ذلك سهلنا من الأسئلة وخففناها. كذلك إذا شئنا توجيهه الى القسم الثانوي زدنا عليه العناية بالكلام عن المجتمع وما ينبغي أن يقوم فيه من التعاون. وأشرنا إلى بعض الصور البيانية والتحاسين البديعية الواردة في الحديث بصورة موسَّعة.

## أيـها المعلـمون

ربـوا على الانصاف فتيان الحمى ... تجـدوهم كهف الحقـوق كهـولا

وإذا الـمـعـلـم ساء لحظ بصيرة ... جاءت على يده الـبصـائـر حولا

وإذا الـمـعلم لم يكن عدلاً مشى ... روحُ العـدالـة في الشبـاب ضئيلا

وإذا أتى الارشاد من سبب الهوى ... ومـن الـغـرور فسـمّـه الـتضليلا

**أحمـد شـوقـي**

# ثغرات في المناهج

**القـرآن الكريم:**

إن دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف في هذه المرحلة يجب أن تستهدف ناحيتين هامتين:

أ ـ أثرهما في توحيد الفكر العربي والسمو به إلى الآفاق العليا من حيث النظر الى الكـون وانتهـاج سبل البحث العلمي. ثم أثر ذلك في بعث القوى النفسية والعقلية لبناء المجتمع الصالح. وبالتالى أثره في انبثاق العلوم المختلفة بدافع من التطور الشامل.

ب ـ أثرهما في توجيه الأدب العربي وتركيز اللغة العربية على أصول ثابتة. ثم في بروز علوم البلاغة. وبخاصة أثر هذه في بناء النقد الأدبي. وبذلك يتاح للطالب أن يدرك معنى (الأدب الإسـلامي) الـذي هو الصورة الجديدة لكل أدب عربي صحيح منذ البعثة النبوية حتى اليوم.

**قضيـة جمـع القــرآن:**

لا بد عند الحديث عن القرآن العظيم من إعطاء القول الفصل في قضية جمعه، ليكون الطالب على بصيرة من سلامة القرآن من كل زيادة أو نقصان. على حين أن كل ما تستوعبه كتب الأدب المقررة لا ينطوي على الكلمة النهائية في الموضوع. بل يفسح المجال للشك الخبيث في هذه الناحية. فالطالب لا يخرج فقط دون فهم صحيح لسبب الإقتصار على نسخة عثمان. بل يزوده المؤلفون بأغاليط مشوشة. وبخـاصة ما يذكرونه من إحراق عثمان لمجموعة أبي بكر عقب جمع مصحفه.

ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يغادر الدنيا إلا بعد أن كان القرآن محفوظاً كله في صدور الألوف الذين يستحيل تواطؤهم. وفي صحف تؤلف مجموعات كاملة لدى عدد من الصحابة. وإنما كتبت نسخة أبي بكر خوفاً من فقدان الحفّاظ لكثرة ما قتل منهم في الحروب. وقد كتبت هذه في (قطع الأدم وكسر الأكتاف والعسب) بيد زيد بن ثابت كاتب الوحي. والحافظ الذي عرض مجموعه على رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر حياته. فلما كان عهد عثمان تباعدت منازل القوم واختلفوا على القرآن باختلاف لهجاتهم. وحصل عن ذلك جدال ولجاج بين الناس. كل يؤيد قراءته. الأمر الذي حفز عثمان ومعه الصحابة رضوان الله عليهم أن يحملوا الناس على مصحف أبي بكر وحده منعاً للخلاف على القرآت. وهكذا كتب مصحف عثمان في نسخ ووزعت على الأمصار. بعد الاستيثاق من ضبطه على صحف الصديق ومحفوظات الصحابة تماماً. وقد أعيدت صحف الخليفة الأول إلى أم المؤمنين حفصة سالمة. وحرقت الصحف الأخرى التي كانت في حوزة بعض الصحابة تجنباً لاختلاف القرآت. وهكذا اتفقت جميع النسخ مع المحفوظ في سلامة الضبط ولم يكن فيها من اختلاف قط في ترتيب السور. فقد كانت في بعضها مرتبة حسب النزول، فاختير ترتيب زيد لأنه صاحب العرضة الأخيرة على الرسول ﷺ. أما ترتيب الآيات في السور فهو توقيف عن الرسول عن جبريل ولا خلاف فيه.

وهذا الخبر هو الذي أجمع عليه الثقات. ومنه يتبين أن لو أمكن عرض هذه الحقائق على الطلاب لأدركوا بالبداهة سلامة الكتاب من كل اضطراب. وإنما دخل الوهم على مؤلفي كتب الأدب من اعتمادهم كلام ذوي الأغراض المنحرفة من المستشرقين وأتباعهم. وكان أحرى بهم أن يرجعوا الى مصادر علماء الإسلام الذين استوعبوا تفصيل كل ذلك كالسيوطي في (الإتقان. .) والزرقاني في (مناهل العرفان. .) وشكيب أرسلان في (حاضر العالم الإسلامي. .).

**مشكلة التقطيع:**

تحتل هذه المشكلة حيزاً هاما ـ على صغره ـ في الكتاب المقرر للسنة الأولى. فقد أخذ المؤلف برأي المستشرقين في هذا الموضوع دون محاكمة.. والتقطيع في تعريفهم هو الانتقال من غرض إلى غرضٍ في السورة الواحدة دون مناسبة.. وإذا ذكرنا أن مثل هذا الاستطراد بنظر المؤلف نفسه يعد عيباً في الشعر الجاهلي مثلاً حيث تقوم الوحدة على البيت دون القصيدة. أدركنا سوء النتيجة التي تتفاعل في ذهن الطالب عن بلاغة القرآن. والواقع إن هذا الذي يسمونه تقطعاً إنما هو ميزة قرآنية لا علاقة لها بطريقة الجاهليين ذات الوحدات المتعددة. ذلك أن السورة الواحدة تدور دائما حول محاور ذات وحدة موضوعية. هذا فضلاً عن أن لتلك الاستطرادات ـ إذا صح وجودها ـ أثراً فعالاً في إيقاظ ضمير القارىء للغايات العليا من أغراض السورة. وبخاصة إذا ذكرنا فرق ما بين القرآن بكونه نظام تربية وتوجيه إلهي. وبين المؤلفات الأخرى ذات الاختصاص الجزئي..

**المكي والمدني:**

لا خلاف على التمايز بين المكي والمدني في أسلوب القرآن. ولكن طريقة المؤلفين في عرض هذا الموضوع تلقي في خلد الطالب أن ذلك تابع للأثر المكاني والإجتماعي في نفس الرسول ﷺ. كالفرق مثلاً بين أسلوب حسان الجاهلي والإسلامي. وهذا باب جديد للشك في وحي القرآن يمكن إغلاقه بإيضاح الحكمة الإلهية في هذا الاختلاف الذي يعود إلى مراعاة حال المخاطب لا المتكلم. ومعلوم ما بين وسطي مكة والمدينة من فروق اجتماعية. تتطلب لكل منهما أسلوباً بلاغياً مطابقاً لمقتضى الحال. ويظهر أن المؤلفين اكتفوا هنا أيضاً بترديد آراء المستشرقين مثل (نولدكه) ومن لف لفه. فراحوا يعرضون ترهاتهم كمسلمات دون مناقشة.

ولو صحت نواياهم حقاً لم يفتهم أن يدركوا طوايا أولئك المرجفين. الذين حملوا كل أحقاد الصليبية الأولى على إخوان وأحفاد صلاح الدين. واحتضنوا كل

ضغـائن اليهـودية التي ما تنفك في حربها للإسلام منذ قريظة والنضير وقينقاع. فشهادتهم في كل ما يتصل بالإسلام مردودة. لأنها تحمل بنفسها طابع تزويرها.. وإلا فكيف تجاهل هؤلاء المرددون لأقاويلهم طوابع كل من المرحلتين المكية والمدنية!!..

ألم يكن بوسعهم أن يتـذكـروا مسيرة الـدعـوة في عهدها الأول. حيث كان الخطاب موجهاً للفئة التي آمنت فعرضت نفسها لضروب البلاء وأفانين الأرزاء. فهم أحوج ما يكونون إلى التثبيت بذكر ما أعد الله للصابرين من ألوان النعيم المقيم في جنـة عرضهـا السمـوات والأرض.. ثم لأولئـك الـطواغيت من المشـركين وأعـوانهم. الـذين رفضـوا تغيير واقعهم الموروث. وأصروا على مواجهة الدعوة الربانية بكل ما يملكون من أسباب الدفع والمنع. ولو أدى ذلك الى القضاء على كل مخالف لهم بالقتل والتعذيب والحرمان.. فكان من تمام البلاغة المعجزة أن تعرض هذه الوقائع في قرآن يطمئن القلوب المؤمنة إلى حسن المصير من جانب. ويهز الأسماع والأفئدة بقوارع التحذير والوعيد في الجانب الآخر.

ولو هم قد فتحوا عقولهم لهذه البينات لما فاتهم أن يدركوا كذلك ملامح العهد المدني الذي تميز ببروز القوى الإسلامية في ظل دولتها. التي علت فيها كلمة الله فوق كل نزعة مباينة. فجاءت هذه الملامح قرآنا توافرت خلاله كل عناصر الواقع الجـديد. فرقت لهجته في خطاب المؤمنين. وتلّونت عبارته في نقاش الكتابيين والمنافقين. وطالت فقراته كي تتسع لأحكام التشريع الخالد. الذي وضع الأسس الـراسخـة لحلول المشكـلات التي تعتري حياة الإنسان، وذلك وهذا من ألوان الوقائع في كلا قسمى القرآن العظيم بارزة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

**الحديـث الشـريف:**

لعلوم الحديث رواية ونقداً أثرها البعيد في توجيه الأدب وإقامة قواعد اللغة. وهي ناحية لم تعرها المؤلفات المدرسية ما تستحق من عناية. وبهذا الخصوص

نلفت النظر الى كتاب (الإلماع في طرق السماع) نشر أسد رستم. للانتفاع من مقدمته في تبين أثر الحديث عند الكلام عن الحديث الشريف. وهناك دراسات أخرى فى مؤلفات أسد رستم نفسه. تنطوي على إيضاح وافٍ لتأثير علم الحديث في طرق النقد الأدبى يمكن الانتفاع بها في هذه الناحية.

**الأدب والنصـوص:**

إذا كان أدب الأمة صورة عقلها ونفسها ومخطط شخصيتها. فطبيعي أن تنصب مقدمات الأدب العربي على إيضاح هذه الصورة. ومن هنا كان لزاماً على المؤلف أن يقصد الى تبين خصائص النفس العربية جاهلية وإسلامية من خلال أدبها. وهذا يقتضى أمرين:

أ ـ **دراسة الأدب العربي على ضوء هذه الخصائص** التي تعين مثلها العليا من الفضائل النفسية المكونة للشخصية العربية والإسلامية. ثم تبين مقومات الذكاء العربي وحساسيته الدقيقة في قدرة التعبير وطواعية اللغة.

ب ـ **عرض مقارن بين الأدب العربي وغيره** مركوزاً على هذا الأساس. بحيث يظهر الفرق بينهما فرقاً بين نفس ونفس. ومثل ومثل. وبذلك وهذا يسلم المدرس والطالب من لوثة الوهم بنقص الأدب العربي بإزاء الأدب الغربي، ويتاح للطالب أن يرفع رأسه اعتزازاً بأدب هذا اللسان الذي لا يزال ـ على الرغم من كل عوامل التقهقر ـ يحتل المرتبة العليا بين لغات العالم جميعاً. شاء المتنكرون له أو أبوا.

ويحسن هنـا أن نذكر أن الروح المسيطرة على مقدمات الأدب في المؤلفات المدرسية لا توفر للطالب شيئاً من هذا الاعتزاز. بل إنها لتبعثه على الشك في قيمة أدب أمته والإيمان بتفوق غيره عليه. ومثل هذا التوجيه من شأنه أن يرسخ في نفسه شعور الضعة بإزاء الآخرين، ومن ثم شعور التبعية للآخرين. وهذا شر ما تمنى به أمة من ضروب الاستعمار.

٢ـ **في الشعر الجاهلي ألوان مختلفة باختلاف مؤثراته الطبيعية والاجتماعية**، بعضها يمثل وضعاً خاصّـاً، وبعضها يمثل روحاً عاماً. وإذا كان للقارىء المثقف

الحق في دراسة هذا وذاك. فللطالب ظروفه الخاصة التي تتطلب دراسة فكرية موجهة ترتكز على روح أمته العامة. بصرف النظر عن كل شذوذ عارض. وعلى هذا يكون من الشطط طرح هاتيك النماذج الإباحية من شعر طرفة وامرىء القيس على عواهنها بين أيدي الطلاب على حين أن الواجب يقتضي الاقتصار على النواحي النبيلة من شعرهما. تلك النواحي التي هي أشد تماساً بحياة العرب وتمثيلاً لروحهم.

وفي كتاب السنة الأولى أشياء من تلك التوافه لا ترتفع بالدنيا عن أن تكون (سيكارة وكأس) ولا جرم أن الجماعة العربية أحوج ما تكون الى الإيمان بأن في الحياة مُثُلًا أسمى من هذه السخائف. إن هناك العزة والحرية والوفاء والإيثار و. . و. . ومثل هذه المثل هي نقاط الانطلاق حتى في نفس طرفة وامرىء القيس. فلينصب التوجيه على هذا الروح الأصيل الجميل.

**مثل هذا تماماً يقال في ابن أبي ربيعة**، فمن الجريمة في حق هذه الأمة أن يُعد شعره الفاجر صورة حقة لحياة مكة ومدن الحجاز الأخرى في صدر الإسلام. صورة تجعل من بيت الله الحرام مباءة للداعرين والماجنين. وتجعل من فتيات المسلمين كرقيعات هوليود وباريس. وهن اللواتي يقول فيهن الشاعر:

بيض كواعب ما هممن بريبة      كظباء مكة صيدهن حرام

وإذا كان ضرورياً دراسة بعض شعره لإعطاء مثل عن تطور أساليب الغزل فليكن ذلك في مختارات أقرب إلى الذوق وإلى الأدب الحق وإلى الغاية العليا. وإلا فليطرد هذا الفاجر من المنهاج الثانوي كما طرد أبونواس من قبله، وليس ابن أبي ربيعة خيراً من أبي نواس.

٤- في كتاب السنة الأولى أيضاً **نماذج من خطب الإمام علي** بينها واحد لم يُرِدْ به إلى الخير، وأعني به الخطبة الشقشقية، فهي فضلاً عن كونها موضع نظر عند المحققين، من حيث نسبتها إلى أمير المؤمنين. لا تخرج عن كونها إثارة خفية لفتنة نائمة. وأمام المؤلفين متسع في كلام الإمام يجدون عنده الفضل والفائدة. فما بالهم يعرضون عن «القاصعة» مثلاً وهي خير كلها ونموذج أعلى من البلاغة،

ليأخـذوا (الشقشقية) وليس لهـا من أثر نافع! . . لعمري إن القوم كأولئك الذين يجدون في القرآن الكريم المحكم والمتشابه، فيعرضون عن المحكم ويأخذون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة.

**٥ـ وأخيراً فإن هناك ألواناً من روائع الأدب العربي** لا يجوز للمنهاج الثانوي أن يهملها، وأعني بها أدب الصعاليـك سواء في الجاهلية أو الإسلام . . ففي شعر عروة بن الورد، وسليك والشنفرى. ثم مالك بن الريب واضرابهم صور من أدب البطولة، لا غنى عن روحه لهذا الجيل المائع من شباب اليوم، إن في هذا الأدب حرية العربي وسخاءه وشجاعته. وفيه عزة المؤمن وشرفه وكرامته، وفيه أخيراً الثورة النبيلة بالظلم والفقر والهوان. فمن حق المنهاج المدرسي أن يحفل بأدب هؤلاء الفرسان الأعزة. وأن يحسن تحليل نفسياتهم التي كانت نموذجاً للطاقة العربية التى وجدت مجالها الصحيح في قيادة الإسلام فجعل منها القوة البناءة في حياة العرب والإنسانية. ولعل من الخير كل الخير لو استبدل هؤلاء الصعاليك الأباة بأصحاب النقائض السفهاء!.

**السـنة الثانيـة:**

لعل منهاج هذا الفصل أقل مآخذ من سابقه، ذلك لأن منهاج الأول لا يعدو أن يكـون مقدمة تأسيسية لهذا. فعليه يقوم الكثير من عمل التوجيه الأدبي. ولذلك سأقصر ملاحظاتي على ثلاثة من أدباء هذا الفصل كنموذج تحسن مراعاته في كل تعديل قد يطرأ على نصوص غيرهم من أدباء المنهاج . .

**١ـ المتـنبـي**: لهذا الشاعر العبقري جوانب نفسية متعددة تتراءى في شعره جميعاً، فهنـاك الطموح الغالب. وهناك القوة الأصيلة. وهناك الضعف الطارىء. وهناك التعالى المنبثق عن الشعور بالعزة. وهناك الاتضاع المصنوع من الحاجة. ثم هناك الأمل القوي الجارف الى جانب التشاؤم المظلم اليائس. . ثم هناك مُثل الإسلام العليا من جهاد للباغين وغيرة على المسلمين أن يذلوا للظالمين. إلى جانب نزوات من عبادة الذات تجعل نفسه غاية الغايات. وتدفعه في غير وعي إلى الاستخفاف

بالنبيين أو اصطناع أساليب الباطنيين في تجسيم رب العالمين والعياذ بالله.

فالمتنبي والحالة هذه عالم رحب الآفاق تتعذر الإحاطة به إلا على ذوي الاختصاص العالي، ففيم نقحم الطالب المسكين في غمار أمواجه المضطربة دون تخير لما يناسب طاقته العقلية والنفسية!.. فالتشاؤم المفرط. والفردية المغرقة. والخروج على مقاييس الدين الصحيح. وما إلى ذلك من أمراض نفسية تنصب على الرجل من مختلف الينابيع القاهرة لإرادته. أمور يجب إرجاء بحثها الى الوسط الجامعي. وحسبنا من المتنبي في هذا القسم بقية الجوانب التي تساعدنا على إحياء المناقب المثلى. وتظهرنا على قدرة العقلية والذكاء العربيين.

**٢ـ المعــري**: وأمر المعري في هذا المنهاج أمر من أمر صاحبه أبي الطيب، فالمنهاج يفرض دراسة نماذج من رثائه وحكمته ونقده ونثره. أما المؤلفون فكأنهم ملزمون أن لا يدعوا شيئاً من كفريات الرجل وضلالاته دون عرض وتوسيع. وما أدري أي الفوائد يمكن لطالب عادي أن يجنيها من تناقضات أبي العلاء وهي التي تحير في أمرها أساطين الباحثين من القدامي والمحدثين!.. اللهم إلا إذا كان المقصود إليه من ذلك هو التمكين لهذه الحيرة في ذهن هذا النشء المسكين. وهو في السن التي فتحتها الأقدار لهذه الأكدار!..

وخلاصة القول أن في المعري كسابقه جوانب أخرى فيها الكثير من الخير المحض البناء. فمن الشطط لا الغلط أن نكب على استخراج المعاول الهادمة من أدب هذا القلق لنضعها في أيدي المراهقين من طلابنا المساكين.

**٣ـ أحمد شوقي** : كثيراً ما يتيه المؤلفون في الحديث عن هذا الشاعر المعاصر. وبخاصة عندما يتناولون شعرهْ القومي والسياسي.. أهو شاعر عربي؟ أهو شاعر مصري؟ أهو شاعر إسلامي؟.. ومرد ذلك كله إلى النزعة القومية المتطرفة التي تستحوذ على ذهن المؤلف فهو مدفوع بهذه النزعة الى اعتبار القومية

العـربية ـ منفصلة عن الإسلام ـ هى المقياس الخلقي والفكري الذي به تحدد شخصية الـرجل. والأفضل من ذلك والأصح أن تدرس الفكرة القومية على أنها شذوذ عن طبيعـة الـروح الإسـلامي، الـذي كان مسيطراً على توجيه الشعـور الإجتماعي في سائر أنحاء الوطن المسلم حتى أواخر أيام شوقي، وكما هي الحال الآن إذ انبعث الـروح الإسلامية من جديد تكافح لاستعادة سلطانها بعد إخفاق الفكرات القومية الغالية. فعادت تطبع الأدب المعاصر في كثير من مظاهره البارزة.

ومن العبث الفصـل في الدراسة بين شوقي المسلم وشوقي المصري وشوقي العربي. فشوقي شاعر الإسلام لا شاعر القومية. وشاعر المسلمين جميعاً لاشاعر العروبيين وحدهم. وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير كل هذه التطورات التي تضفي ألوانها على شعر شوقي. بما في ذلك اللون الشرقي الذي يكثر ذكره في تضاعيف إنتاجه، فليس الشرق في نظر شوقي إلّا وطن الإسلام فإذا هو قال:

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهـم شـرق

وإذا قال: كان شعري الغناء في فرح الشرق. وكان العزاء في أحزانه... فهو لا يريد بهذا الشرق سوى وطن الإسلام..

○ وبعـد فهـذه ملاحظات سريعة استخلصتها من اختبارات طويلة في التربية والتعليم. وهي في معظمها تتناول أدباء المنهاج.. على أن هناك ملاحظات أخرى لست أقل بها أيماناً. وهي تتناول أدباء آخرين من حقهم أن يحتلوا مكانهم في المنهاج الإعدادي. أذكر منهم الشاعر الأبيوردي ـ من شعراء العصر الصليبي ـ وأحمـد محـرم وشكيب أرسـلان ورشيد رضـا وإبراهيم طوقان ـ من أدباء العصر الحديث. ففي أدب كل من هؤلاء نقاط انطلاق لا تزال تعمل عملها في مسيرة الأدب العربي..

والغريب أن شاعراً كالأبيوردي ـ وهو يكاد يكون الوحيد بين شعراء عصره الذي صور كفاح الإسلام بوجه الصليبية ـ يظل نائماً في ديوانه حتى الآن لا يكاد يعرفه

أحد وهو العبقري الذي يحفظ لعصره أجمل ما عرفه من بلاغة العرب وشعر النضال.

أما شكيب ورشيد ومحرم فحسبهم مجداً أنهم في طليعة القادة الفكريين للجيل الإسلامي خلال القرن الرابع عشر - الهجري - ومن كابراهيم طوقان يسجل كفاح فلسطين السليبة التي أوشكت مأساتها أن تنسى بعد أن جعلها الإستعمار والاستهتار مشكلة لاجئين!!.

# رؤية إسلامية
# في قضية المسكرات والمخدرات والمفترات

س ١ : يرى كثير من المفكرين أن التعاون بين علماء الصحة وعلماء الدين كفيل بالقضاء على آفة المسكرات والمخدرات والمفترات في المجتمع الإسلامي فما رأيكم في ذلك؟

س ٢ : العاملون في إشاعة هذه الآفات متعددون. فهناك المتعاطي لها، وهناك المتاجر بها، وهنالك المهرب والمروّج. . فما موقف الشريعة المطهرة من كل من هؤلاء؟

ج ١ : حمـداً لله رب العـالمين، وصلاة وسلاماً على صفوته من خلقه الهادي الأمين، محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين.

أما بعد فجواباً على أول السؤالين أقول وبالله التوفيق:

التعاون على البر والتقوى واحد من الأسس الكبرى في بنيان المجتمع الرباني، الذي يستحق وصف الله له بأنه ﴿**خير أمة أخرجت للناس**﴾ وطبيعي أن البنيان لن يكـون صالحـاً إلا أن يكـون مؤلفـاً من العناصر الصالحة، فمن مجموع الأفراد الصالحين يتكون المجتمع النموذجي الذي تترقبه الإنسانية.

ولقد أطل فجر الإسلام من حِراء . . والناس من حوله غارقون في ركام المفاسد المدمرة للطاقات، فكانت مهمة المبعوث برحمة الله تبارك اسمه أن ﴿**يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ وبهذه التربية النبوية طهر قلوبهم من أدران الجاهلية، وردهم الى نقاء الفطرة، فإذا كل فرد من هذه الطليعة المباركة مثلٌ حيٌّ للقيم الفاضلة التي ميَّزت الجميع.

ونحن ـ أمة محمد ﷺ ـ نقف اليوم على رأس مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام، تتمخض بالأحداث الخطيرة، التي لابد منتهية بها الى أحد المصيرين: استعادة مركزها المتقدم من القيادة العالمية، أو التقهقهر مراحلْ أخرى الى الوراء. فالبوادر القائمة تبشر بأنها ألصق بالأليق من الأمرين، لأن كل الظواهر المائلة تؤكد أن نظام الإسلام هو الملجأ الوحيد لهذه البشرية التائهة، وإنما تتوقف هدايتها الى هذه الحقيقة على مدى بروز الطابع الإسلامي العملي في واقع المسلمين أنفسهم، على المنوال نفسه الذي عرفته البشرية في سلفهم الصالح. ومن هنا كان على المسلمين تحرير وجودهم من تقليد أولئك الضاربين في مهامه الضياع، وذلك بالعودة الى أصالتهم القائمة على الثقة بدينهم، على أنه سفينة النجاة للفرد والجماعات، وبأنفسهم على أنهم الأمة المختارة لعرض الحقائق الربانية.

ولقد أحسنتم في تركيزكم على التعاون بين خبراء الطب وعلماء الدين لمكافحة تلك الآفة آفة المخدرات، التي تسربت الى أوساط المسلمين عن طريق أعدائهم.. لأن تعاوناً كهذا سيقوم على أساس من الإدراك العقلي والقلبي جميعاً..

والإنسان المركَّب من الروح والبدن لا مندوحة للمصلحين من التعامل مع عنصريه الأساسيين، فالمؤمن بحقائق الوحي يعلم يقيناً أن الله لم يحرم عليه طيباً ولم يُبِح له خبيثاً، فهو يحاول ضبط تصرفاته وفق أوامر الله ورسوله، يساعده على ذلك التزامه سبيل المؤمنين في سلوكه الإجتماعي سواءً في البيت أو الشارع أو المسجد، عملًا بقوله تعالى **﴿واصْبِرْ نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، ولا تعدُ عيناك عنهم تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا، ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُه فُرُطا﴾** الكهف ٢٨.

بيد أن المؤمنين متفاوتون في مستوى العزيمة، فمنهم القوي القاهر لنزغات الشيطان، وفيهم الضعيف المتردد بين الطاعة والمعصية، فهو يشارك الأول في القناعة بحكمة الله، ولكنه عاجز عن التخلص من سلطان الشهوات، فيقبل عليها ممنياً نفسه بعفو ربه، دون أن يعلم أن استمراره على هذا النحو صائر به في النهاية

إلى مفارقة سبيل المؤمنين، ومن ثم إلى الإسهام في إيهان المجتمع الإسلامي، بإشاعة الخطيئة المدمرة بين أفراده . . وما أحوج هذا الضعيف الى معالجة الطبيب الحكيم الذي يكشف عن عينيه أغشية الهوى، ليعرفه بالمشاهدة آثار انحرافه على أجهزة الحياة في جسمه، وما أحوجه في الوقت نفسه إلى الفقيه الحليم الذي يعرِّفه حكم الله ورسوله في هذه السموم.

ولعلي لا أجافي الواقع إذا قلت: إن نظرة واعية يواجه بها هذا الضعيف تلك الشرائح البشرية التي قدمها معرض (المؤتمر الإسلامي العالمي لمكافحة المسكرات والمخدرات) في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، لإيضاح العواقب الرهيبة التي تخلفها الخمور والمخدرات والمدخّنات في الرئات والقلوب والمثاني والكلى، وسائر أجهزة الجسم البشري . . أقول: إن نظرة واعية الى هذه الشرائح الموبوءة كافية لتبعث الرعب في أفئدة المدمنين، إذ تريهم نتائج إسرافهم على أنفسهم دماراً محطماً في الدنيا، وعذاباً مُخزياً في الآخرة.

وبذلك يحقق التعاون بين الطب والدين أفضل الثمرات في عملية الانقاذ لضحايا المسكرات والمخدرات والمفتّرات.

ج ٢ - يذكرنا سؤالك هذا بسبب النزول لقوله تعالى **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾** البقرة ٢١٩.

وطبيعي أن المراد بالمنافع هنا محصول هاتين الآيتين من الناحية المادية فحسب، وهي التي يُصيبها العاصر والمخمّر والناقل والتاجر، وما يتصل بها بالنسبة الى الخمر، وهي في ناحية الميسر عائدة الى المردود الذي يناله الرابح، والى صاحب المقمرة الذي يهيء الجو المناسب للمقامرين، وما إلى ذلك من وسائل الإغراء، وتشمل هذه المنافع في زماننا أحدث ما توصل إليه الخبث البشري من أشراك الشيطان التي لا نفاد لها، سواء من حيث المسميات أو وسائط العرض، أو الاستحداث لأنواع لم تكن لتخطر في بال السابقين . . ولا يعدو واحد منها الجانب المادي المحض، الذي يقبل عليه المروجون لهذه المفاسد، ضاربين عرض الحائط بما يقابلها من الرزايا الهائلة التي يصطلي بنارها ضحايا المسكرات

والمخدرات والمفترات، ومنكوبو الميسر الذين خسروا أموالهم وأشقوا أهليهم حتى لا يجد كثير منهم سبيلاً للنجاة من القلق إلا بالانتحار. . وهي بعض ضروب الإثم الذي أشارت إليه الآية الكريمة.

وكذلك هو الأمر بالنسبة للأصناف التي عرضتم لها في هذا السؤال، فالمتعاطي لهذه الموبقات مجرم بحق نفسه ومجتمعه، لأنه قد شلَّ بسفهه طاقة بشرية كان بوسعها الإسهام في موجبات البناء بدلاً من الهدم، وسيكون وسيطاً فعّالاً لِنشْر هذه العدوى في وسطه الاجتماعي. . وعن طريق هذه العدوى تتسع دائرة الانحراف والجنوح والضياع، ويمتد مستنقع الجريمة حتى تستحيل الحياة مأساة لا نهاية لفجائعها.

ولكن هذا المريض لا يستطيع مواصلة انحرافه إلا بمساعدة الآخرين من أعوان الشيطان فصانع هذه السموم أول المسؤولين عن نكبته بما يوفر له من أسباب الهبوط، والمتاجر بها يحمل قسطه من الوزر الكبير بتزيينها له واغرائه بها. . ولا يقل عنهما جناية ذلك المهرب الذي يغامر بنفسه وماله لتقويض تدابير رجال الأمن القائمين بمكافحة هذه المهلكات وغاية ما يبتغيه من وراء ذلك الحصول على بعض المال ولو على أشلاء المضللين من أولئك الضحايا.

ومن هنا يتضح أن كلاً من هؤلاء السفهاء شريك عامل في عملية التدمير للمجتمع، وقد قدَّر الشرع الحنيف لكل منهم حدود مسؤوليته ووسيلة ردعه، فللمتعاطي ـ مسلماً ـ حدُّ السكر لكل مرة من الضرب بالسياط والنعال، حتى إذا كانت الرابعة نفذ فيه حكم الموت، لأنه أثبت بذلك عدم أهليته للحياة وخطر بقائه على المجتمع. . وذلك صريح في قول رسول الله ﷺ: (من شرب الخمر فاجلدوه فان عاد في الرابعة فاقتلوه[1]).

وأما الشركاء الآخرون الذين ركبوا رؤوسهم فلم يردعهم عن غيهم موعظة ولا دين فهم فيما أرى من المحاربين لله ورسوله، الساعين في الأرض فساداً، فحريٌّ

(١) أخرجه الترمذي في (أبواب الحدود) وهو صحيح الاسناد.

بهم أن يلحقوا بأمثالهم من الذين يقول رب العزة في شأنهم ﴿**إنما جزاءُ الذين يُحاربون الله ورسولَه ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو يُنفوا من الأرض**﴾ المائدة ٣٣

○ على أن ثمة ملاحظات لا مندوحة عن التنبيه إليها في موضوع كهذا، واعطائها ما تستحقه من الاعتبار.

إن وباء المسكرات والمخدرات والمفتِّرات قد عمَّ العالم بأسره فأصبح إحدى مشكلاته الكبرى، التي أعيت الدول والمصحَّات، فضلاً عن دعاة الإصلاح.

إن هذا الوباء ليهدد الإنسانية في صحتها وفي اقتصادها وفي مستقبلها.

أما من حيث الصحة فقد أعلن خبراؤها العالميون أن ضحاياه أكثر عدداً من ضحايا السرطان والهيضة والطاعون، وأما من الناحية الاقتصادية فإن ما يستهلكه من ثروات الأرض يكفي لانقاذ العالم البشري من كل أزماته الخانقة.

ومع أن العديد من حكومات العالم قد اتفقت على مكافحته استئصالاً أو تخفيفاً فقد عجزت كلها عن وقف زحفه الجارف.. ذلك لأن هذه الحكومات قد أدركت مخاطر هذه الآفات ولكنها لم تعرف الطريق الصحيح للانتصار عليها وعلى مروجيها.

لِنُنعم الفكر في قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والأزلام رجسٌ من عملِ الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطانُ أن يُوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**﴾ المائدة ٩٠-٩١.

فهاهنا تحديد حاسم لمكانة الخمر بين عناصر الجاهلية، فهي بمنزلة المعبودات الباطلة، والممارسات الضالة، من حيث الأثر في إفساد الفطرة وصرفها عن سبيل المؤمنين.

وهو تحديد يؤكد لنا أن الوسيلة الناجعة في مكافحة هذا الوباء لا تقتصر على المنع الكرهي، بل لا بد له من العلاج الداخلي أيضاً وبالدرجة الأولى، وذلك بالتوعية الحكيمة التي تردُّ الشارد إلى حظيرة الإيمان، فتكون بمثابة عملية غسيل

لنفسه كلها من مُغويات الشيطان.

ولكن.. دعونا نسأل: من هم المؤهلون لهذه التوعية؟..

أهـم علماء الدين؟..

أهم الأطباء النفـسيون؟..

أمـا أنـا فأرى أنهم الفئـة التي جمعت بين علم الشريعة وعلم النفس، على الطريقة نفسها التى امتاز بها اصحاب القلوب المضيئة، الذين عرفوا الطريق الى التربية الإسلامية الصحيحة.

وما أحوجنا اليوم الى هذا الضرب الممتاز من الدعاة المتخصصين.!

# السكران

عندما يقع بصرنا على شيء يسترعى الانتباه نلاحظ أنه يترك صورته ماثلة في خيالنا بعض الوقت، وأكثر ما يكون ذلك حين نغلق أعيننا عقب رؤيته فإذا هو منطبع على خلفية البصر بكل ما يميزه إلا تفصيلات الملامح. على أن بعض هذه المرئيات طويلة الأجل، فلا تكاد تفارق الذاكرة إلا ريثما تعود.. ومن أبرزها في أعماق نفسي صورة ذلك الكهل الاروادي التى ما زالت مخيلتى تحتفظ بها منذ سبعين سنة في وضوح يباين ما يتركه غيرها من الصور العابرة.

ها أنا ذا أنظر إليه من خلال ركام الذكريات، وأوشك أن أميز كل ظاهرة في هيكله الضئيل الذي ما أحسبه يتجاوز صورة ابن الرومي، الذي يحدد حجم شخصه بقوله:

أنا من خفَّ واستدقَّ فما يُثـ      ـقل أرضاً ولا يَسُدّ فضاءَ

وقد عُبىءَ هذا الهيكل في سروال صغير متوسط السعة، أحاط أعلاه بأسفل قميص متواضع من أرخص الأقمشة، وبرز فوقه ذلك الوجه الأسمر المنمنم، الذى استقرت عليه سمة غامضة يضيع تحديدها بين العبوس والابتسام، وتُطل من خلالها عينان لطيفتان لا أستطيع تحديد رؤيتهما لأنه قلما يوجههما إلى أحد من الناس.. حتى اسمه لا يخلص من ذلك الغموض، فهو في علمنا نحن الصغار على الأقل يوسف، أما من أمه وأبوه وأسرته فوراء مدركاتنا المحدودة، وما أحسب أحداً حتى من الكبار يُلِمُّ من تعريفه بغير هذا الاسم، ولا من هُويته بغير تلك الصفة المشتقة من صناعته اليومية (الكعَّاك).

● كان المنزل الذي يسكنه أشبه بغار صغير مستطيل لا يتخلله الضوء إلا من مدخله الذى لا يتسع لأكثر من اثنين بمثل حجمه، ففيه يبيت ويأكل ويصنع الكعك، الذي يطوف به أسواقَ طرطوس وأزقتها عصر كل يومٍ وهو ينادى بصوته الأجش الهزيل:

ولقد ألفت منظر ذلك الهيكل الأروادي إذ لا أفقد رؤيته في أي يوم، فإذا غدوت الى حانـوت والدي أو رحت منه إلى البيت، عبرت به فأقف قليلا مقابل مدخله أتـطلع إلى يديه وهمـا تمارسان عمل الكعك، وبنفسى رغبة في أن أسرق هذه الصنعـة لأعلمهـا والـداتى، التى كانت قليلة الخبـرة بصناعة الطعام، وبخاصة المشوقات التى لا تعرف منها سوى رصف الحمص على وجه العجين المرسل إلى المخبز، حيث تُغَيِّر النار من طعمه فتجعله أقرب إلى القضامة، وكانت تلك هى المكافأة المغرية التى تُحبِب إليَّ حمل أقراص الخبز إلى الفرن، لآخذ بحظي منها في كل نوبة . .

وكـان لهدوء ذلك الكهل الأروادي أثره في تطلعي إلى عمله، إذ قلما يضيق صدره بمشهـد الصغار أمام مصنعه فلا يُنفرهم كما يفعل أكثر الرجال الآخرين، وبخاصة ذلك النجار الأخرس الذي ما إن يكاد يرى إنساناً يحكُّ رأسه حتى يثب نحوه مُعْمِلاً به كفيه، وهو يرسل مثل مواء الهر المهتاج، وأكثر ما يقع عدوانه على الصغار الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم!

وكان لهدوئه كذلك وبعده عن العنف أثر آخر في نفسي إذ كنت كثيراً ما أستشعر الأسى عليه فأتساءل: أليس لهذا الكعَّاك من أم أو أب؟ أليس له من زوج تنفض عنه غبار الوحشة؟ . . وكيف يستطيع العيش مع هذا الظلام الرهيب الذي يحتشد في جوف هذا الغار، ولا سيما حين يستحكم الليل؟!

● وأعود إلى حانوت والدي كشأني بعد كل عصر لأقرأ عليه ما تلقيته من دروس اليوم في المدرسة التركية. وألتقي الكعاكَ الكهل في الطريق، وهو يحمل فوق رأسه ذلك الطبق المصنوع من قش الحنطة، وقد نُضِدت عليه أطواق الكعك المحمار، وانتشـر من خلالـه الأريج المحرك للرغبة، وجعلت حبوب السمسم تلتمع على جوانبه كالعيون الصغيرة تطل عليك ضاحكة من كل مكان. . وعلى دأب الرجل يعرج على حانوتنا ليضع لى الكعكة التى لا بد منها ويُردِفها بالصرة الممتعة التي تحتـوي مسحـوق السُّمـاق الشهي، فيأخذ ثمنها القطعة النحاسية الصغيرة، ثم

يمضى لغـايتـه دون أن ينبس ببنت شفة، وأمضي أنا في قضم كعكتي في نهم مهذّب، ومن ثم أفرغ للتدرب على تحسين الخط بمشاكلة القاعدة التى يكتبها لي والدي برسمه الأنيق، وقلما تتجاوز الأبيات الثلاثة التي تركت طابعها عميقاً في حياتي وجاهدت طويلاً للتحرر من إيحائها:

أنـسـت بوحـدتـى ولـزمـت بيتـي
فطاب الأنسُ لي ونـمـا الـسـرورُ
وأدَّبـنـي الـزمـان فلا أبـالـي
هُجـرت فلا أُزار ولا أزور
ولـسـتُ بسـائـلٍ ما دمـتُ حياً
أسـار الـجـيشُ أم ركـب الأمـيـر

ويتابع الكعاك مسيرته ويستمر صوته في نغمته المتشابهة: (كعـك سـخن.. سـخن يا كعـك).

وما هي إلا ساعة أو بعضها حتى يخفت ذلك الصوت، لأن الكعك كله قد أتت عليه أيدى المشترين حتى لم يبق منه شيء.. ومن ثم تبدأ المرحلة الجديدة من يوميات صاحبه في موعدها، الذي قلَّما يعدو مطلع الساعة الأخيرة من النهار، وإذا هو مقبل من أعماق الحي الجنوبي المغلق على سكانه من النصارى، وقد سمّر بصره في الأرض كالكلب الذى استحكم فيه السُّعار ففقد خاصة الانتباه، وأخذ طريقه كالسهم الذي لا يلوي على شيء ولا يسلم من إصابته شيء صادفه، إلا أنه يختلف عنه في اضطراب مسيرته، فهو يترنح ذات اليمين وذات الشمال، ويحرك يديه في استرخاء كأنه يدفع عن نفسه شيئاً يخشاه.. وما هي سوى خطوات حتى يحدق به العفاريت الصغار وهم يهتفون:

السـكران.. السـكران.. الله يلعـن السـكران.

ولكن الكعاك لا يُغير وجهته ولا يرد على الهتاف بكلمة، بل يستمر فى انطلاقته المترنحة، على حين يتنامى موكب الهتافين من حوله، ويأخذ الصياح في التعالى، ثم يقبل الفارغون من هنا وهناك ليزيدوا في كثافة الموكب، ولا يكتفون بالهتاف

يزفونه به، بل إن صمته ليغريهم بالمزيد من إيذائه فهم يرمونه بالحصى، وبالأتربة، وبالأوساخ يجمعونها من قمامة الطريق، ولا يضنُّ عليه بعضهم بالنعل يقذفه به، وبـالبصـاق يلطخ به رأسـه ووجهه، فلا يملك إلا أن يضاعف من تحركه ابتغاء الخلاص. ولكن أنَّى له الخلاص وقد أحيط به من كل جانب، وما كان له أن يستمر في صمتـه فإذا هو يعمـد إلى الصياح بصـوت متشنـج لا يفهم منه سوى زعيق الاستغاثة ولا من مغيث.

وهكذا يتواصل خط السير بالمسكين إلى أن يجد نفسه على شاطىء البحر فلا يتمالك أن يقذف فيه بجسده المنهوك، ولكن مشيعيه يأبون أن يكفوا عنه عبثهم، فإذا هم يرجمونه بالحجارة، ثم لا يدعونه حتى يبعد عن مرمى أيديهم، وتحول بينه وبينهم طلائع العتمة فيتفرقون عنه وهم يتصايحون: السكران.. السكران.. الله يلعن السـكران.

وبـذلـك تنتهي المـرحلة الثانية من يوميات الكعاك ليستأنف مسيرته الجديدة المزدوجة في يومه التالي.

● وتكر الأيام والسنون ويسجل الزمن عامه التاسع عشر بعد المئة التاسعة والألف، ويكبـر العفـاريت الصغـار ويتغير واقـع الناس بعد زوال شمس الخلافة وانتشار ظلمات الاحتلال الفرنسي لديار الشَّام، ويغيب وجه السكران الوحيد الذى كان الملهاة اليومية لأولئك الأشقياء في طرطوس، فلا يعلم أحد منا مصيره ولا يدري من أمر هويته شيئاً غير الذى عرفناه من قبل.

ومن ذلـك العهد دخل الناس مرحلة جديدة من الحياة فقد جاء جنود غورو، المتحدي لقبر صلاح الدين، بالسكر والأرز والأمتعة التى ما كان الناس ليحلموا بها أثناء سني الحرب، وكان أبرز هداياهم لذلك البلد وإخوته البنطال وربطة الرقبة (الكرافات) وألوان الخمور التى لم تعرفها طرطوس من قبل، إذ لم ينقض سوى أشهر قليلة على ذلك الاحتلال حتى شرعت حوانيت الخمارين تطل برأسها هنا وهناك، بعد أن كانت الخمور أيام الكعاك من الأسرار التى لا يعرف مظانَّها ولا يقدم على تناولها إلا المغامرون بأنفسهم وانسانياتهم.. وتستمر الأحداث في التطور فإذا

الحشيش والأفيون والكوكائين وما إليها من ضروب المخدرات تأخذ سبيلها إلى أبناء الأعيان الذين وافتهم الحظوظ بالمزيد من المال، فراحوا يشترون به أصناف المتع التافهة والمدمرة، ويجرون إلى مزالقهم الآخرين من الشباب الذين فُرغوا مثلهم من كل وعي إسلامي، وسلبوا كل شعور بالمسئولية فأصبحوا وليس لهم من صفات الأحياء إلا أنهم يأكلون ويدخنون ويسكرون ويحششون ولا يستحيون أن يتسكعوا في الشوارع وهم متمتعتون ومقهقهون.

إلا من رحـم الله . . وقلـيل ما هـم.

# عالم الجن
# بين الخرافة والحقيقة

## حقائق الغيب لا يفسرها إلا الوحي

قبل نصف قرن، وكنا عدداً من الشباب المولعين في الضرب بين الجبال، لقينا شيخا من القرويين في عيادة أحد الأطباء، وقد غرقا في حوار بعيد الغور ذهب بصبر الطبيب الشاب، ولم يزد الشيخ الا وقاراً ورصانة. . ولما دعيت للمشاركة في الحديث قلت للشيخ الوقور: هؤلاء الشباب قد يعجزون عن فَهمِ شواهدك القرآنية، فهلا أقمت حوارك معهم على أساس العقل والمنطق؟!. .

قال الشيخ: حقائق الغيب لا سبيل إليها الا عن طريق الوحي، وأي منطق أكبر حجة من كلام الله ورسوله؟!. .

ورأيت أن أُحرج الشيخ، فقلت له: لنفرض أنهم لا يؤمنون إلا بما تقره حواسهم، فكيف تقنعهم بوجود الله عن هذا الطريق؟!. .

قال الشيخ: وبأي هذه الحواس هم أشد تشبثاً؟.

قلت: بالنظر. . فأين دليلك النظري؟!. . فقال: ولِمَ آثرت النظر على سائر الحواس؟

فقلت: لأنه بنظر المتشككين أعلى درجات اليقين، لأنهم به يفرقون بين المفقود والموجود. .

وفي منتهى الأناة أجاب الشيخ: لا بأس فلنسأل هؤلاء إذن: أنتم ترون كل المحسوسات بنظركم فهل ترون به نظركم؟!. . ولم يبق مجال للمكابرة فقلنا: لا. . فأجاب: كذلك الأمر بالنسبة الي واجب الوجود، فبنوره تبصرون وعن رؤيته

تعجـزون، فتبارك الذي ﴿لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير!.﴾ الانعام ١٠٣.

وتكـر السنـون على ذلك اليوم، ويبقى ماثلاً في ذهني قول الشيخ القروي: حقائق الغيب لا سبيل اليها إلا عن طريق الوحي..

**منكرون ومترددون ورافضون**

وموضوعنا اليوم عن (الجن) وقد كثر حوله اللغط بين منكر لهم البتة، ومتردد بين اليقين والشك، وبين مقر بوجودهم ولكنه مصر على رفض آثارهم في عالم الإنسان والواقع.. فإذا قيل له ان ناساً قد أصيبوا بمس من الجن، فلم يبرأوا الا بمعالجتهم لدى بعض الناس، سخر من الخبر، وراح يتحدى الجن بأن يمسوه بأي أذى!. فهو يتخذ من سلامته وسلامة الكثيرين من آثارهم دليلاً حاسماً على أنها محض مزاعم من صنع المضللين والدجالين!. وينسى في الوقت نفسه أن الوباء قد ينزل بسـاحة قوم فيذهب منهم بالآلاف على حين يمر بالآلاف منهم دون أن يمسهم بسوء.. فلا يستدعي ذلك إنكار الوباء..

وبين منكري الجن رجال من أهل الإيمان والفكر، ولكن يتعذر عليهم تصور الغيب الذي يلابس عالم الجن، وعز عليهم أن يتنكروا لأنباء القرآن، فلجئوا الى التأويل البعيد فزعموا جنس الجن نوعاً من أشرار البشر استحقوا تسميتهم بالجن والشياطين، لما يتصفون به من فساد الطبع والنزوع الى البغي والعدوان!.. وقد كان يكفي هؤلاء لتصحيح أفكارهم أن ينعموا النظر في تقريرات القرآن العظيم، وسـائـر الكتب ذات الأصـول السماوية، وإجماع المؤمنين بها، وهم سواد أهل الأرض، على أن عالم الجن كيان قائم بذأته له صفاته الخاصة وطبائعه المميزة، وهـو كعـالم الإنسـان مكلف الخضوع لأوامر الله ومسئول أمامه عن تصرفاته.. وكعالم الإنسان فيهم الصالحون والفاسدون والمسلمون والقاسطون.. وكل إنكار لهذه الحقائق لا يعدو أن يكون كفراً بآيات الله، أو اجتهاداً فطيراً لا سند له من العلم الصحيح..

ومن البدهيات القول بأن منكري الجن وجوداً وتأثيراً إنما يكذبون على أنفسهم، ولا يجدون لديهم قدرة على التفكير في ما وراء المجال المادي، فيتهربون من مواجهة الحقائق الغيبية، عجزاً منهم عن القيام بتكاليف البحث والتأمل. ومن ثَم جاء تصميمهم على رفض كل ما لا يدركونه بحواسهم الخمس، حتى لم يبق في قلوبهم متسع لليقين، فهم كأسلافهم الذين يصف ربنا جل اسمه واقعهم المؤسف بقوله تعالى في سورة الحجر: **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾** أو كاخوانهم من أتباع ماركس الذين وطنوا أنفسهم على ألَّا يرفعوا أعينهم عن مواطىء أقدامهم، فلا يسمحوا لها بالنظر في ملكوت السماء لأنهم لا يريدون التعرف الى دلالاته واستكشاف آياته.. وقد حدَّثتني ابنة لي عن امرأة روسية من شيعة هؤلاء كانت تسكن في جوارها وتتردد عليها، وذات يوم جربت أن تحدثها عن الله وأدلة حكمته في كل شيء. فلم تبال بما سمعت، واكتفت بالقول: قد يكون كل ذلك صحيحاً ولكنه لا يهمني في شيء!..

**وفي أنفسكم أفلا تبصرون:**

أجل إن العلة في إصرار هؤلاء المعاندين على إنكار الغيب يعود الى تعطيلهم مداركهم الفطرية، فهم يريحون أنفسهم من التأمل والتفكير باللجوء إلى الرفض، والإخلاد الي تقليد من سبقهم في هذا الاتجاه.. ولو أنهم تذكروا ما في أنفسهم وما يحيط بهم من عجائب المخلوقات وخفايا الموجودات، ثم عرفوا السبيل إلى استنباط ما تنطوي عليه من البينات لكفكفوا من غُلَوائهم، ولسخروا من غرورهم الذي عطل مواهبهم فلم يروا أبعد من آنوفهم..

وأي حجة لهم في إنكار عالم الجن لمجرد انهم لا يقع عليه بصرهم، وهم يرون الى الكون من حولهم مشحوناً بالخفايا التي لا يبصرونها وهم مع ذلك أشد ما يكونون إيماناً بها!. لماذا يصدقون بوجود الذرة ومركباتها، التي يقرر العلم أن أربعين مليون ذرة منها لو نُضِدت في خط مستقيم لما تجاوز امتدادها ضلع البوصة

الواحدة، وهي أبعد ما تكون عن أبصارهم!!.. ولعلهم شاهدوا ذات يوم قطرة ماء لا تتجاوز رأس دبوس، تريهم من خلال المجهر عالماً من الأحياء والنبات والجماد، وقد غمرته الحركة وأنواع النشاط فلا ينكرونه، ومع ذلك يجرؤون على إنكار عالم الجن لمجرد أنه حجب عن أبصارهم بخصائصه التي ميزه بها البارىء العظيم!!..

وجل الخالق الحكيم الذي يستحث عباده على التأمل في أسرار ملكوته بقوله الخالد المبين: ﴿**فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون**﴾ الحاقة ٣٨-٣٩. وأي روعة في هذا القسم الذي من حقه أن يفجر مواهب العقلاء لاستكشاف مكنونات الأرض والسماء!! ثم أي عالم من المعرفة يوقظه في قلوبنا وهو يشد انتباهنا إلى ذخائر أنفسنا حين يلهب أشواقنا الى التأمل الواعي بقوله العجيب الآخر ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾!! الذاريات.

**عالم الجن في ضوء الوحي:**

وطبيعي أن أحق هذه الأصناف بالحوار في موضوعنا إنما هم المصدقون بأصله، من حيث كونهم موقنين بوجود تلك المخلوقات الخفية، إلا أن عقولهم تأبى الاعتراف بأثرهم في حياة الإنسان على طريقة القائل:

نفسٌ عليها حفيظ من ملائكه        فهل يروعًها بالكيد شيطانُ!

ولن يضير هؤلاء أن نذكرهم ببعض ما يعلمون من خصائص هذا الجنس كما حددها كتاب الله، والصحيح من حديث رسوله صلوات الله وسلامه عليه وآله. فكما خلق الله الملائكة من النور، والإنسان من الطين ﴿**خلق الجان من مارج من نار**﴾ وقد احتفظ كل من هذه الأقسام بخصائص اصله، فامتاز الملائكة بالصفاء الخالص من الكدروات المعوِّقة للطاعات، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، واحتفظ الإنسان بطبائع الطين المؤلف من مختلف عناصر الأرض، فهو صالح للشفافية والتسامي حتى يقارب مستوى الملاك، ومهيًا بكثافته للهبوط حتى الحضيض. وتبقى للجان مميزاته التي منها لطافة التكوين والقدرة على التشكُّل

وملابسة الأجسام الأخرى، مع مشاركته الإنسان في الاستعداد للشر وللخير جميعاً . .

**قصة الشيطان الأول:**

وهنا يأتي السؤال الذي لا مفر منه وهو ما يتصل بعلاقة جنس الجان بجنس الإنسان، وإذا كان لهذه العلاقة من وجود، فكيف. . وعلى أي حال . . وما نتائجها؟! . .

وفي قصة إبليس مع الإنسان الأول، وتمرده على أمر الله بالسجود التكريمي لهذا الإنسان المرشح لخلافة الأرض، أقرب جواب على ذلك السؤال . . فإبليس هذا كان من الجن ـ بنص القرآن في سورة الكهف ـ وقد هاله أن يُقَدَّم عليه ذلك الترابيُّ فيوجَّه إليه المنصب الذي كان يتطلع إليه، وعاجلته طبيعته النارية فلم يتمالك أن يعلن حقده على ذلك المنافس، مؤكداً أفضليته عليه في أساس التكوين ﴿**أنا خيرمنه خلقتني من نار وخلقته من طين** . . ﴾ الأعراف ١٢ . ومن يومئذ بدأت المعركة بين الفريقين، إذ صرح إبليس بعزمه القاطع على إضلال خصمه وذريته جميعاً، إلا من اعتصم بحبل الله فلم يدع له سبيلاً الى قهره أو استهوائه . . ولم يدع الخالق الحكيم خليفته آدم يواجه تلك الملحمة الأبدية، مجرداً من العون، فحذره من شره، وعرَّفه مكايده، وزوده بالسلاح الذي به يتغلب عليه، وهو التزامه وذريته سبيل الوحي الذي يعصمهم من السقوط في حبائله . . وإتماماً لنعمته على الجنس الآدمي أسند قيادة الجنسين الإنس والجن الى الصفوة المجتباة من ذرية آدم، فالجن في النبوة والدين تابعون لدعوات المرسلين من البشر.

**مشاهد وشواهد :**

وقد اخطأ بعض المفسرين في تأويل قوله تعالى : ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي** . . ﴾ الأنعام ١٣٠ . إذ فهم من الآية أن للجن رسلاً مستقلين من جنسهم، وإنما المراد برسلهم الحاملون لدعوة الأنبياء

الآدميين منهم يبلغونها قومهم، ويصححون بها مسيرتهم في طريق الحق، بنفي ما غشيه من الشوائب التي يبثها شياطينهم لإضلالهم وإفساد عقائدهم القويمة، كشأنهم في إفساد الحياة الإنسانية، أو بنقل ما طرأ على عقائد البشر من الزيغ الى قومهم، الذين سرعان ما تسري إليهم عدوى هذه الانحرافات، فإذا فيهم ما في البشر من أنواع البدع والضلالات، كالذي نقرؤه في سورة (الجن) عند قوله تعالى، على لسان المهتدين منهم عقيب سماعهم بعض آيات الذكر الحكيم، وهم يعلنون توبتهم من الشرك الذي كانوا عليه ﴿**فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا**﴾ منزهين ربهم عما سبق أن ألقى شياطين الإنس والجن في أخلادهم من نسبة الصاحبة والولد إليه سبحانه ﴿**وإنه تعالى جَدُّ ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولدا**﴾ ومتبرئين من ضلالات سفهائهم الذين كانوا يكذبون على الله ﴿**وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا**﴾ وقد امتلئوا يقيناً بحقيقة البعث الذي يصير إليه الثقلان، بعد أن شاركوا منكريه من الإنس في ظنونهم النافية له ﴿**وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً**﴾.

## خبر ابن مسعود رضي الله عنه

والمفسرون لكتاب الله يقولون إن هؤلاء النفر من الجن إنما نطقوا بهذه الحكم في أعقاب سماعهم القرآن يتلوه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله في صلاته أثناء عودته من رحلة الطائف، فما إن مسَّ قلوبهم حتى توهجت بنور الهداية، وانطلقوا الى قومهم يبشرون وينذرون. ولم يكن رسول الله ليعلم بأمرهم حتى تلقى خبر الوحي بذلك.. ولكن الآثار الصحيحة قد أكدت فيما بعد اتصاله بالجن واجتماعه بهم في أكثر من مناسبة، ومن ذلك حديث عبدالله بن مسعود الذي أخرجه مسلم وأحمد وابن جرير، وفي إحدى الروايات أنه رافقه في إحدى هذه المناسبات، حتى إذا بلغ معه مكاناً معيناً أمره بالانتظار فيه، ثم انطلق صلى الله عليه وسلم وحيداً حتى انتهى الى القوم، فكان عبدالله يسمع اللغط ويشاهد الأشباح دون أن يزايل مكانه إلى أن عاد إليه نبي الله، وأخبره بما كان بينه وبينهم.[1].

---

(١) اقرأ خبر ذلك مفصلاً في تفسير الاحقاف لابن كثير.

وقد تكرر هذا اللقاء بينه وبين الجن في عدد من المناسبات الأخرى، بعضها مع صالحين منهم، وبعضها مع شياطين أشرار أرادوا به الكيد فنصره الله عليهم، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء من قوله: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فسمعناه يقول، أعوذ بالله منك.. ألعنك بلعنة الله ـ ثلاثاً ـ وبسط يده كأنه يتناول شيئاً..) فلما فرغ من الصلاة سألوه عما رأوا منه.. فقال: (إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي).[٢]

ومن ذلك أيضاً خبر أبي هريرة عن الشيطان الذي كان يقبض عليه وهو يسرق من الطعام الذي كان يحرسه، فلا يزال يستثير شفقة أبي هريرة حتى يطلقه.. وفي المرة الثالثة أخلى سبيله مقابل أن يدله على ما يدفع عنه شر الشياطين، وقد فعل حين أخبره خبر مجرِّبٍ أن من قرأ آية الكرسي عند نومه لم يقربه شيطان، ولما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال له (قد صدقك وهو كذوب).[٣]

**وساوس وشبهات:**

ولشياطين الجن ضروب من الاتصال بالإنسان لا تقف عنده هذه الحدود وحدها، بل تتخذ ما لا يُحصى من الصور، ومن مشهور هذه الأشكال الوسوسة التي يتسللون بها الى صدور الناس، حيث يلقون فيها من الخواطر والشبهات وأنواع التصورات ما قد يفسد عليهم عبادتهم ويشوش أفكارهم، ويجرهم الى أسوأ الأحوال، حتى يفطن الإنسان الى واقعه فيلوذ بذكر ربه فيخلص من مأزقه، عملاً بتوجيه الله لأهل الإيمان في قوله الحكيم ﴿**إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون..**﴾ الاعراف ٢٠. وإنما سمي الشيطان وسواساً خناساً لأنه يترقب غفلة المؤمن فيهاجمه بالوسوسة، فإذا ذكر ربه خنس وانكمش، وإلى ذلك يشير الله بقوله الذي أخرجه البخاري في تعليقاته (الشيطان جاسم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل وسوس).

---

(٢) مختصر صحيح مسلم رقم ٣٠٨.

(٣) من حديث طويل اخرجه البخاري.

وفي الخبر الذي أخرجه البخاري في صحيحه من (كتاب الاعتكاف) أن صفية أم المؤمنين زارته أثناء اعتكافه في المسجد فلما تهيأت للعودة قام معها ليوصلها الى بيتهـا، فمر به رجلان من الأنصار فسلما عليه، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: (على رِسْلكما.. إنها صفية بنتُ حُيي..) فكبر عليهما ذلك، فقال لهما (إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يَقذِف في قلوبكما شيئاً) - وفي رواية أخرى (يجرى من الإنسان مجرى الدم).. وقد يكون المراد بجريان الشيطان مجرد وسوسته بالقاء الشبهات في رُوعهما، وقد يراد الى ذلك تسلل الشيطان نفسه في مجرى الدم الانساني، حيث يلقي بنفثاته السامة كيف يشاء وأنى يشاء من أجهزة الإنسان.. وقريب من ذلك قوله تعالى في وصفه اضطراب عقول المرابين (إن الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ) فقد يكون المراد بالتخبط مجرد النفث المؤدي الى بلبلة النفس، كما يحتمل الوجه الأخر وهو تلبس الشيطان نفسه جسد الممسوس، بحيث يفقد السيطرة على أعصابه فهي تتحرك وفقاً للمؤثرات الشيطانية..

وطبيعي أن مجرد حصول التلبس من الشيطان لجسد الممسوس مؤد الى حصول كلتا الحالتين، وهما الحالتان المُشاعَتان في الوقائع التي طالما أثارت وتثير تقولات الناس هذه الأيام ما بين مُقرٍّ ومنكر وحائر..

**مجرد تساؤل:**

وهنا يحسن ان نتوقف قليلاً لنعيد النظر في مفهوم المسّ في الآية الكريمة، ومضمون الإشارة النبوية الى عمل الشيطان في الكيان الانساني، وهذا ما يسوقنا الى التأمل من جديد في نوعية النار بل المارج الذي منه تكوَّن جنس الجان..

فمعلوم أن للنار ضروباً لا تقف عند نوع واحد، فهناك النار الصادرة عن اشتعال المواد القابلة للالتهاب من نفط وفحم وما اليهما من المواد، ولكن هناك أيضاً عناصر أخرى تشارك تلك المواد في قابلية الاحراق، وتزيد عليها ألواناً من التأثيرات الفائقة لم يعرفها الإنسان الا في عهوده الأخيرة، كالتفاعل الكهربي، وأنواع الأشعة

التي تنطوي من الطاقات على ما يذيب الحديد، وينسف الجبال. .

فمن أيّ هذه النيران بدأ خلق الجـان؟. . ومـا الخصائص التي اكتسبها من أصله؟!. . وأول ما يسترعي الانتباه هو أن هذا الأصل إنما حدث من المارج وليس من النار مباشرة. . ﴿وخَلَقَ الجانَّ من مارجٍ من نار﴾ ثم يأتي موضوع المارج. . فما المارج؟ وما حدُّه؟!. .

إنـه عند المُعْجَميين الشعلةُ الساطعة ذات اللهب الشديد، واللهب المشوب بسواد النار. . ثم تختلط مفهومات (المَرَج) حتى تشمل اللَّبْس والاضطراب والفتن والتهـويش، وكـل ما يساعد على انتشار الفساد. . وهو تعريف يتسع للكثير من التصورات، ولعل القدْرَ المشترك بينها هو كونها (طاقة) صالحة للخير والشر. . فهو أداة تخريب إذا انطلق على غير هدى، وهو وسيلة بناء إذا ضُبط في المجرى السَّويّ.

وكذلك كان شأن الجن في دولة نبي الله سليمان عليه السلام، إذ وُجِّهت تلك الطاقة لأنواع من العمل الصالح وفق أمره، فرأيناهم يصنعون وينحتون وينشئون، وينقلون الأثقال عبر المسافات التي تستغرق الأشهر، ضمن السُويعات التي تعد على أصابع اليد، حتى إذا مضى الى ربه انفرط العقد واستعادوا حرية التصرف وفق أهوائهم.

وفي ضوء هذا الواقع الكوني أجدني اتساءل ألا يمكن أن تكون ملابسة الشيطان للإنسان ـ ولو في بعض الأحيان ـ نوعا من المس الإشعاعي يطلق من طاقته على أعصاب فريسته، فيثير فيها مثل التفاعل الذي يحسه أحدنا حين يتعرض للاحتكاك بسلك مكهرب دون عازل؟. . وأقول دون عازل لأن من الناس ضعفاء الأعصاب القابلين للصعق والصرع عند أول مسٍّ، على حين نجد آخرين يمتازون بالمناعة الحافظة، فلا يحسون لذع الصدمة بل لا يتصورون وجودها كليّاً!. .

وقد نجد في هذا التعليل التفسير المعقول لذلك اللغز الذي لم نجد له حلاً حتى الآن، أعني موضوع تلبس الجني للأنسي، أهو دخول كيان في كيان، أم هو تسليط طاقة خفية على أعصاب الضحية؟!. .

إنه مجرد تساؤل أعرضه لأولي العلم، وإن كنت أميل الى الأخذ بشقه الأخير.

**المعركة الأبدية كما نشهدها:**

إن النصوص التي أوردناها حتى الآن قاطعة بصحتها الدامغة على أن في هذه الأرض مخلوقات تشارك الجنس الإنساني كما أسلفنا، في كثير من خصائصه المسئولة كالارادة والحرية والتكليف والاستعداد للخير والشر، ثم تنفرد عنه بخاصية الاحتجاب عن نظر الإنسان، بحيث تراه ولا يراها، كما أثبت ذلك كتاب الله في تقريره الجازم ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ الأعراف ٢٧. وأن في هذه المخلوقات كما في الجنس الأدمي مختلف الجماعات المتفاوتة السلوك، وأسوؤها وأشدها خطراً على الإنسان تلك الفئة الوارثة لاحقاد الشيطان الأول على النوع الآدمي، فهي دائبة السعي لتغيير فطرته بتحويله عن ساحة النور الى ظلمات الضلال.. وفي سبيل ذلك لا تدَّخر وسعاً في حشد أخس الوسائل لتحقيق مآربها في هذا النوع، سواء بصرفه عن عقيدة التوحيد المركوزة في أعماق كيانه، أو بتدمير وعيه حتى لا يفرق بين الحق والباطل، ولا بين الفضيلة والرذيلة، ولا بين الظلم والعدالة..

وقد يبلغ من تصميمها على الشر أن تحاول اقتحام ساحة النبوة المحصَّنة بعصمة الله، كما فعل الشيطان بمحاولته ايذاء رسول الله ﷺ بشهابه، وكما صنع من قبلُ مع نبي الله أيوب الذي آده رَهقُه فراح يستغيث الله بقوله: (ربِّي إني مسَّني الشيطان بنُصْب وعذا) ص ٤١.

فالمعركة بين الانسان والشيطان محتدمة أبداً، ينتصر أحدهما حينا ثم لا يلبث أن يفاجأ بالهزيمة حيناً آخر.. وهي معركة نشهد آثارها الرهيبة في أنفسنا، وفي غيرنا، في الأفراد والجماعات والدول، التي قد تبلغ الغاية في الكشوف العلمية لأسرار الكون، على حين تبلغ أدنى الدركات في اقتراف الفجائع وأصناف الموبقات.

ولنقف هنا قليلاً على بعض الوقائع التي تجري هذه الأيام مما يتصل بأخبار الجان، والتي لا تخلو أحياناً من بعض التحقيقات الموثقة . .

١ـ في حي النصر بشمال المدينة المنورة منزل كان يملكه رجل من شرطة المسجد النبوي اسمه جمعان، عرفتهُ جاراً لي منذ نزلتُ ذلك الحي في العام ١٣٨٦هـ، ولكني لم أعرف قصته المثيرة الا هذا العام ١٤٠٦هـ وخلاصتها كما وقفت عليها من جار لا يزال من سكان الحي حتى كتابة هذه السطور، وقد تقدمت به السن وأصبح واحداً من الذين يُرجَع اليهم في معرفة أخباره.

يقول حمزة حماد المعروف باستقامته «ذات مساء من أيام ١٣٨٣ وكنا في مسجد الحي عقيب جماعة العشاء، تلقت اسماعنا ضجةً صادرةً من بيت جمعان، فانصرفنا اليه نستطلع الخبر، فإذا نحن بصاحب المنزل يحمل فانوسه ـ الذي كان الوسلية الوحيدة للإضاءة أيامئذٍ ـ وقد خرج يفتش عن شيء لم نعرفه ثم علمناه حين أخبرنا أن حجارة تنهال على داخل بيته دون أن يتبينوا لها مصدراً . . ودخلنا معه المنزل، ثم القاعة، وإذا الحجارة متلاحقة تضرب الجدران دون أن تمس أحداً . . وتَواصل الرجم على الرغم من إغلاق الباب والنوافذ، ثم لم ينقطع على مدى عدة أيام . .

وأتم الحديث أحد الإخوة الثقات فأخبرنا أن طالب علم شرعي أوفده الشيخ عبد العزيز بن باز فلزم البيت ثلاثة أيام، يتلو فيه سورة البقرة مبدِئاً ومُعيداً حتى فرّج الله الكرب، إذ توقف الرمي ببركة هذه السورة التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم (اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلة) . والبطلة هم السحرة، ولعلهم سموا بذلك لما يقومون به من الأباطيل، أو لِما يحدثونه في نفوس ضحاياهم من الآثار التي تفسد أمزجتهم وتبطل ملكاتهم العقلية.

**النـــار . . النـــار . .**

٢ـ وفي العـام ١٤٠٣هـ حدثت الـواقعـة التي ملأت أخبارها صحف المملكة،

وخلاصتها أن رجلاً من قبيلة مطير اسمه راشد قد أقام خيامه في وادي هُذبان ـ من ضواحي المدينة المنورة ـ ولكنه ما إن استقر به وبأهله المقام حتى فوجيء بما لا يتـوقع من المنغِّصات، ذلك أن نيراناً مجهولة المصدر جعلت تَشبُّ في أطراف خيامه، ولكنها نيران من ضرب غريب تتلهب ولا تتلف عزيزا من الامتعة! . .

وكان على المطيري المسكين أن يبذل وأهله جهودهم لمكافحتها، إلا أنها لم تكد تخمد من جانب حتى تشتعل في جانب، وقد تسكن حيناً ثم لا تلبث أن تستعر حيناً آخر. . حتى ضاق به الأمر، وانتهى خبره الى احدى الجهات الدينية فانتدبت له الشيخ على مشرف العمري، خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة والمدرس فيها، والعامل في خدمة الحديث الشريف. . وفي المخيَّم المنكوب نزل الشيخ، وشاهد النار تلتهب في أطرافه. . وعلى الطريقة التي تعلمها من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، طفق يعالج المشكلة بتلاوة سورة البقرة، وما زال يعاود التلاوة حتى توقف البـلاء وعاد الشيخ الى مقره في المدينة. . بيد أن النار لم تلبث أن عادت للظهور، وأخذ خبرها بالانتشار، حتى رُفع الأمر إلى أولي الأمر، فأُوفِدت بعثة من ذوي الخبرة والتخصصات المناسبة للتحقيق في الموضوع.

والحق أن هؤلاء المحققين لم يدَّخـروا وسعاً للوصول الى الحقيقة القاطعة، فكذبوا مدَّعيات المطيري أولا، ولما فوجئوا بمنظر النار، طلبوا إليه أن ينتقل وأهله الى قرية الحسو التي تبعد عشرات الأكيال عن منزلهم الأول، وهناك ركزوا خيامهم تحت إشراف البعثة ومراقبتها، وانتظر الجميع تطورات المأساة، فإذا هم يفاجَئون بالنار نفسها تشب شبوبَها في الموضع المهجور! . .

وبذلك انقطع كل شك في أن القضية حقيقة لا مفر من الاعتراف بها، ولا سبيل الى السلامة من شرها الا بنزوح المطيري عن ذلك الجانب من الأرض. وها هو ذا حتى الساعة لا يزال مع أهله في جوار رسول الله ﷺ، وقد زالت أسباب الروع عنهم، وانقطعت صلتهم بتلك النار. .

٣ـ وعلى ذكر هاتين الحادثتين لا أرى بأسا أن أقص خبر واحدة عانيتها وعاينتها قبل نصف قرن في مدينة طرطوس من ساحل الشام، فقد هجرنا منزلنا الموروث

فراراً من أذى بعض المجاورين، ونزلنا في دار حَمٍ لنا مؤقتاً ريثما نعثر بمنزل مناسب نستأجره، وكان هناك حادث غريب يشغل بال سكان الحي، ولا يعرفون له تفسيرا. . ذلك أن المنزل المواجه لبيت حَمي كان معرضاً لدفعات من الحجارة تنصبُّ عليه عصر كل يوم من مكان مجهول. . وحدث أني كنت أتناول طعام الغداء ذات يوم مع أهلي على شرفة قصيرة الجدار، فلما قامت أخت لي يتيمة تصبُّ لي الماء كان لابد لرأسها أن يعلو وينخفض، وإذا أنا بصوت ابن صاحب الدار المرجوم يصيح: هذه هي التي ترمينا بالحجارة. . لقد رأيتها بعيني! . . .

وكان من المستحيل ان نبرىء نفسنا من هذه التهمة الا بما يشبه المعجزة، وأين نحن من المعجزات! . . ولقيني والد الغلام يعاتبني ويقول: أنت تريد إخراجنا من بيتنا لتحل مكاننا. . وهذا حلم لا مطمع بتحقيقه. . وضاق عليَّ مجال الكلام فلم أزد على القول بأنهم واهمون، والطفلة التي يتهمونها لا تصلح لرمي الحجارة، ولم تفارق بصري لأصدق بها هذه الظنون. .

فقال الرجل: ولا مطمع ببراءتها الا أن نجمع سكان المنزلين جميعا في مكان واحد، ثم ننتظر، فإن حصل الرجم والا لم يكن مناص من ثبوت التهمة عليها. .

ورضيت بهذا الشرط، وحُشِر العيال في منزل الحم. . وشاء الله الا يوافي عصر ذلك اليوم حتى استؤنف الرمي بأشد مما سبق! . .

وخرجنا من التهمة بفضل الله، ولكن بقي سر الحجارة مغلقا لم يعرف له سبب ولا مصدرا! . .

**المؤمن في ذمة الله :**

ولعل بين قراء هذا البحث من شهد مثل هذه الأحداث أو ما يقاربها، ولم يجد لها من تفسير في منطق الواقع المادي. . ولما يستطع إنكارها أو المكابرة فيها كذلك. .

أما نحن أهل النظر الإيماني فقد وجدنا حل المشكلة كاملاً في ضوء الوحي، الذي عرَّفنا كل ما ينبغي لنا معرفته من شئون ذلك العالم المحجوب. . فاستيقنا

أنها ليست سوى جانب من الملحمة الناشبة أبداً بيننا وبين الشياطين، الذين لا شيء أحب إليهم من إزعاج المؤمنين وملاحقتهم بمختلف ضروب الإيذاء.

ومن تمام فضل الله على أهل الإيمان أنهم **﴿إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾** تذكروا أنهم في رعاية الله، وأن لديهم من إرشادات الوحي ما يدفعون به كيد الشياطين مجتمعين.. لأنهم موقنون بما يقرؤون في كتاب الله من **﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾** فلا قوة له ولا لأوليائه إلا في غيبة الوعي وعند غفلة المؤمن عن سلاحه الإلهي.

ومن أين للشيطان أن يسلَّط على أولي النهي من المؤمنين، ونُصبَ أعينهم وملء قلوبهم تعاليم ربهم وإرشادات نبيهم، التي تركتهم على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فهم أبداً **﴿يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾** فإذا قارب أحدُهم أهله قدم لذلك بالدعاء النبوي (اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا) وإذا آوى الى فراشه حصَّن نفسه (بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة) وإذا ما أفزعه حُلم تداركه بهذه الضراعة المأثورة (اللهم أسألك خير هذه الرؤيا وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها) ومن أول ما يتحرك به لسانه عند النهوض من النوم بعد كلمة التوحيد (آمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً...) ويمضي الى صلاته الأولى وعلى لسانه قول معلمه المصطفى (بسم الله. توكلت على الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله). ولا يضع اللقمة في فمه الا مصحوبة باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم..

وهكذا يمضي يوم المؤمن وليله في ذمة الله ورعايته، ذاكراً شاكراً مناجياً.. إن سكت لسانه عن ذكر ربه استمر قلبه في غمرات النجوى.. فمن أين للشيطان ان ينفذ الى مثل هذا الإنسان، الذي يعيش أبداً في حصون مضاعفة من كلاءة الله!!

**مـــادة وروح:**

وقد عرف أُولو الألباب من أصناف البشر أن الإنسان مركب من المادة والروح.. وكـلا العنصـرين مؤهـل لأنواع من الخلل، ولكل صنف من هذا الخلل علاجه

الخاص الذي أودعه الله سبب الشفاء، لأنه سبحانه لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، كما أخبر بذلك إمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإذا وافق الداء دواءه المناسب حصل الشفاء بفضل الله.

وثبت بالتجربة الصحيحة أن هذه الأمراض التي تعتري كيان الإنسان المزدوج متعددة الأصناف، فمنها المتداخل الذي يشترك فيه عنصر الجسد والروح، إذ يصاب أحدهما بالعلة فلا تلبث أن تسري الى الآخر. فمثل هذا المرض يعالج بما يناسبه من العقاقير أو الجراحات أو المعالجات النفسية، التي يعرفها ذوو الاختصاص من الأطباء، عن طريق ممارساتهم التي يكتشفون بها كل يوم جديداً من المعالجات الناجحة. .

وشبيه بهذا الضرب أنواع الأسقام التي يتعرض لها الجسد بالعدوى، أو سوء التغذية، أو فقدان المريض بعض العناصر التي تتطلبها طبيعة الجسم، وما إلى ذلك مما يقتضي العلاج المناسب الذي يقرره المتخصصون.

ثم يأتي النوع الآخر من البلاء الذي يتسلل الى كيان الإنسان من وراء الأسباب المادية، كالذي يحدثنا عنه كتاب الله بشأن أيوب الذي ﴿**نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب**﴾ فكانت الوصفة الربانية لانقاذه من ذلك المسِّ توجيهاً إلهياً يرشده الى أن شفاءه في نوع من الماء عليه أن يسعى بنفسه لاستنباطه فيغتسل به ويشرب منه ﴿**أركض برجلك. هذا مغتسل بارد وشراب**﴾ وقد يكون في هذا الماء ميزة خاصة من شأنها أن تزود المستشفي بما يبعد عنه كيد الشيطان. ولا عجب فقديماً قيل وحق ما قيل (إن لله خواص في الأمكنة والأزمنة والأشخاص). . .

**في القرآن شفاء:**

وفي حديث طويل رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوَّذتان ـ الفلق والناس ـ أخذ بهما وترك ما سواهما) وإنما اكتفى بهما عما سواهما من الدعاء

والتعوذ لِما فيهما من صريح التحصُّن بالله من أخطر الشرور الشيطانية والبشرية، ومنذئذٍ قلما ترى مؤمنا قد ترك التعوذ بهما الا إذا صرفته عنهما غفلة . .

ومما يشترك في فهمه العالم والجاهل من المسلمين أن (من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ولكن الخاصة من أهل العلم لابد أن يشد انتباههم هنا اقتران (مِن) بكلمة (القرآن) ثم تنكير (شفاء) بدلاً من تعريفها بأل أو الإضافة . . والذي يتراءى لي ـ ولعله الصواب إن شاء الله ـ أن في (مِن) البعضية أو البيانية إشارة إلى أهمية التناسب بين العلة التي يراد معالجتها بالقرآن، والآية أو الآيات التي تختار لهذه المعالجة، كما يشترط التوافق بين العلة والدواء في معالجة الأمراض الجسدية ليتحقق المنشود من المعالجة . .

أما التنكير في لفظ (الشفاء) فيتراءى لي كذلك ـ والله أعلم ـ أنه للتوكيد على كونه أمراً محتوماً بالنسبة للمؤمنين، إذ يمنحهم النظرُ في القرآن وتلاوتُه الواعية طمأنينةً في القلوب تنفي عنهم القلق وتمدهم بالجديد السعيد من العلم والحكمة، لأنهم هم المقصودون بقوله تعالى :

**﴿إنما المؤمنون الذين إذ ذكر الله وجلِتْ قلوبُهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾** الانفال ٢ .

**وصفات ربانية :**

ومن هذا كله يتضح لنا بما لا يقبل التردد بَلْهَ الريبَ أن للنفوس البشرية ضروباً من الأسقام لا يجدي في علاجها شيء سوى استعمال الوصفات الربانية من كلام الله وسنة رسوله الصادق الأمين . . وهذه الوصفات المجربة هي المحور الذي عليه تدور معالجات أهل العلم والإيمان لضحايا المسِّ الذي لا ينكره الا جاهل أو مغرور معاند .

والمتأمل في ألوان الدعاء النبوي، والأذكار، التي تلقاها عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وعلى آله وسلم تلامذته الأولون، رضوان الله عليهم، والتابعون لهم بإحسان، يعلم يقينا أن ذلك الاسلوب من المعالجات الروحية حق لا خلاف عليه،

مادام متلزماً أصول التوحيد الذي لا يسمح للمؤمن بالاتجاه إلى غير الله في طلب الشفاء وكشف البلاء. . وذلك هو سبيل النبيين وأتباعهم من الأولين والآخرين. . وكل انحراف عن هذا السبيل الحق خارج بسالكه أخيراً عن سبيل المؤمنين شاء أو أبى. .

والوقائع التي رواها الثقات من كبار علماء هذه الأمة المعصومة عن عملهم في معالجة الممسوسين والمصروعين والموسوسين أكثر من أن تُحصى، وفي وسع أي راغب في المعرفة أن يعود الى كتب الحديث ثم موسوعات أيمة الفقه، ونخص بالذكر منها الجزء ١٩ من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ومؤلفات تلميذه الإمام بن القيم، وبعض ثقات المتأخرين، أمثال المحدث القاضي محمد بن عبدالله الشبلي المسمى (آكام المرجان. .) ليتحقق أن الأمر فوق منال المنكرين والمكابرين. .

وسأكتفي من هذه الوقائع الموثَّقة بنماذج معاصرة لا يزال أكثر مشاهديها ورواتها أحياء يرزقون.

**نماذج من وقائع معاصرة:**

١- قبل أيام كنا في اجتماع غداء عند ولدي المهندس غسان، وقد دار الحديث حول موضوع الجن وما يقوم حول معالجة ضحايا الشياطين من جدل في مختلف وسائل الإعلام. وتحدث أحد الحضور وهو مدرس سابق للانجليزية في سورية والمدينة، عن واقعة كان أحدَ مشاهديها قبل ربع قرن في مدينة حماة وتابع أحداثها في دمشق.

يقول هذا الأستاذ: ذات يوم قالت لي والدتي، أريد أن ترافقني لزيارة المسكينة ابنة خالتك فلانة، فسألت: وما شأنها حتى تسميها مسكينة!. . فقالت: ألم تعلم بعد ما يعتريها من نوبات محزنة بين الحين والآخر؟!. .

ومضينا حتى وافيناها ولم ألاحظ من أمرها شيئاً غير عادي. . ولكن سرعان ما تبدل حالها فإذا وجهها ينتفخ، ثم يسري الانتفاخ الى جسمها، وقد غابت عن

الوعي، وانطلق من فمها صوت رجالي يقول للحاضرين من حولها: هذا جزاء من يعتدي على الأبرياء.. ورد أحدنا على صاحب الصوت: وماذا جنت هذه المسكينة مما تسميه اعتداء؟!..

فجاء الجواب يقول: دون إنذار سابق صبَّت الماء الغالي على ولد لي فقضت عليه، ومنذ ذلك الحين قررت أن أنغص حياتها وأولادها كما نغصت حياتنا ما دامت على قيد الحياة..

وكان مستحيلاً أن نغير من تصميم صاحب الصوت على الانتقام.. ولما سكت ورجع جسد المسكينة الى حجمه العادي، وعادوها الوعي شيئاً فشيئاً، انتقلنا الى غرفة أخرى وجعلنا نتداول الحديث حول ما يجب عمله لمعالجتها.. وفي النهاية استقر الرأي على أن نمضي بها الى دمشق، إذ أكد بعض الحضور أنه يعرف رجلاً هناك اشتهر بهذا النوع من المعالجة، وتحقق على يده الكثير من الخير.. فلم نتلبث الا ريثما حضرت السيارة التي انطلقت بنا هي وزوجها وأنا الى دمشق، وأول ما فعلناه إثر وصولنا أن اتجهنا بالسيارة نحو مقر الوسيط الذي سيدلنا على المعالج، وخلال دقائق كنا عنده، وبعد قليل من الاستفسارات رضي أن يتولى علاجها لفوره بشرط أن ندفع إليه خمسة آلاف ليرة سورية.. فحاولنا مساومته ولكنه أصر على شرطه، غير أن الوسيط رفض الشرط وأخبرنا أنه سينتقل بنا الى شخص آخر معروف بالفضل والتقوى والتوفيق في معالجة الممسوسين، ومضينا مع الوسيط الى حي البزورية حيث لقينا الرجل المنشود، وهو الشيخ عبدالرحمن الفتال في منزله، الذي يستقبل فيه الوافدين اليه من مختلف الأقطار.. وما ان عرف قضيتنا حتى بدأ فأمر بالمرأة فأُجلِست في وسط الحجرة، وقام برسم دائرة حولها، ثم عاد الى مكانه وجعل يتلو من القرآن ويستدعي صاحب الصوت، فإذا الانتفاخ يعاود المرأة، وإذا الصوت نفسه منطلق في حوار مع الشيخ:

ـ ماذا تريد مني؟..

ـ أريد أن أعرف أولاً ما دينك؟

ـ مسلم ولله الحمد.

ـ مسلم وتسمح لنفسك أن تلاحق هذه المسكينة بأذاك!!

ـ وسأظل ألاحقها وأنغص حياتها وحياة أولادها كما نغصت حياتنا..

ـ وما ذنبها الذي استحقوا من أجله كل هذا البلاء؟!

ـ قتلت ولدي بالماء الغالي..

ـ إن فَعَلتْ ذلك فعذرها أنها لم تر ولدك ولم تقصد إيذاءه.. ثم لا تنس أنكم أنتم المعتدون لأنكم دخلتم مسكنها دون حق!.. فاخرج منها ودعها لأولادها فذلك أحرى بالمسلم الذي يخاف الله..

ـ لـن أفعـل..

ـ إذن فـاعلم انني سأوقع فيك من العقوبة مالا تحتمل..

وشـرع الشيخ في تلاوته، وجعل الشخص الخفي يتأوه.. ويرسل صرخات الألم دون أن يخضع لطلب الشيخ.. ثم ما لبث ان أخذ صوته في التلاشي حتى انتهى الى الخمود..

وبدأ جسد المرأة يستعيد وضعه الطبيعي، وتستعيد هي وعيها.. ولم يبق من داع لبقائنا فشكرنا للشيخ فضله وسألناه عمَّا يريد؟.. فلم يزد عن خمس الليرات، فنقـدناه إياها ومضينا باتجاه السيارة.. غير أن مشكلة جديدة قد فاجأتنا قبل أن نتجاوز مدخل المنزل الا قليلا.. إذ عاد حجم المرأة الى التضخم، وشرع يعاودها الإغمـاْء، فأسـرعنا بالعودة الى الشيخ، الذي بدأ معها نفس الإجراء السابق.. وجعل يوجه الكلام الى النزيل الخبيث: من أنت؟.. ويأتي الصوت هذه المرة نسائياً يقول: أنا أم الولد القتيل، وزوجة الرجل الذي قتلته..

ـ ويقول الشيخ: أخرجي قبل أن أحرقك..

ـ لن أخرج أبـداً..

ـ إذن فإنك ستجنين على نفسك وعلى أولادك..

ـ وما شأن أولادى؟!..

إن لم تخـرجي بسلام فسأمزق شملهم بمشيئة الله حتى لا تعلمي لأيّ منهم مقراً..

ـ لا . . لا . . لن أخرج . . لقد أحرقت زوجي ، وهاأنت ذا تشتت شمل أولادي . . فافعل بي ما بدا لك . . وما هي سوى لحظات حتى سمعنا زعقتها الأخيرة . . وقد انتهى أمرها . .

وبذلك ختمت المأساة ، وأنقذ الله المرأة من محنتها الكبيرة ، ثم لم أعلم أنها شكت من هذا الشر شيئاً بعد ذلك . .

**وقائـع أكبر من الإنكار:**

وأنا إذ أعرض للقارىء هذه الحقيقة التي هي أكبر من الخيال أؤكد كذلك أن الذي أعرفه ولا ينكره أحد من عارفي هذا الاستاذ انه موضع الثقة ، ولم أعلم له كذبة أو كذيبة طوال ربع قرن من مصاهرته لي . .

ثم هناك خبر آخر من الموضوع نفسه يحسن ألا أغفل ذكره ، وقد حدثني به الرجل الثقة المجاهد الإسلامي الكبير الأستاذ أبوهاشم محمد المبارك ، الذي توفاه الله في مدينة نبيه قبل ثلاثة أعوام ، وسعد جثمانه بمجاورة الصفوة من أصحاب رسـول الله صلوات الله وسـلامـه عليه وآلـه ، ورضي عنهـم أجمعين ، في البقيع المبـارك ، وخـلاصة ذلك الحديث أن والد فقيد الشام العلامة الشيخ عبدالقادر المبارك كان من الذين عُرِفوا بهذا النوع من علاج المبتلَيْنَ بأشرار الجن ، وقد شاهد بنفسه ذْلك الوالد يعالج احد الممسوسين بالعزائم القرآنية والدعوات النبوية ، حتى إذا واجه إصرار الشرير على ملازمة ضحيته أنذره بالإحراق ، ولما أصر على موقفه الشيطاني سلط عليه من العزائم ما أحرقه بالفعل . .

وطبيعي إن إحراق ذلك الباغي إنما كان نهاية لمعالجة طويلة ، حاول الشيخ خلالهـا إقناعه بالتخلى عن ضحيته ، ثم إنذاره بالمصير الذي ينتظره ، ثم أخذه بالدلكِ والضرب ، حتى إذا لم تفلح محاولاته عمد الى إحراقه بالعزائم المؤدية الى ذلك . . ومن هنا كان عمل المتعاطين لهذا النوع من العلاج الروحي مزيجاً من التحذير والتهديد والضرب المبرح احياناً .

وقـد حدث شيخ الإسـلام ابن تيمية غفر الله له عن بعض ممارساته في هذا المضمار، فذكر أن الضرب الذي يعامَل به المصروع مهما كثر واشتد إنما يقع على الجني المتلبس فيه، ولا يحس به المصروع، ولا يخلف أثراً في بدنه. . ويقول انه قد جرب دلك بنفسه مرات بحضور خلق كثيرين كانوا يسمعون صراخ الجني واعترافاته التي لا يدرى المصروع منها شيئاً. . وأن ذلك قد ينتهي بالوالغ الدخيل الي الموت أحياناً، ولا حرج في ذلك لأنه يكون بمنزلة الصائل الذي لا ينفك حتى تقتله أو يقتلك، وهي النتيجة التي صار إليها الشيخ المبارك رحمه الله بإحراق ذلك الشيطان. .

وقبل هذا رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ في حديث رواه الإمام أحمد في مسنده ـ يأتيه رجل بمجنون فيأمر بإدنائه منه، ثم جعل يضرب ظهره ـ حتى رأى الرجل بياض ابطيه من شدة الضرب ـ وهو يقول (أخرج عدو الله. . أخرج عدو الله. .)

وظـاهـر من أمـره هنـا بالخروج أن الجني كان في حالة تشبثٍ بداخل جسد الممسوس لا خارجه. .

**سـقطة مؤسـفـة:**

وأراجع هذه الفقرات وفي سمعي صدى الحوار الذي سمعته قبل قليل من إذاعة الرياض في ندوة (قضايا وآراء) التي يديرها الأستاذ الموفَّق عبدالملك عبدالرحيم.

كان المشـاركـون في هذه النـدوة ثلاثـة أطباء، وكان الموضوع حول الأدوية وتـطويرها وما انتهت إليه. . وقد بدأ الكلام أحدُ الأطباء الثلاثة جواباً عن سؤال الأستاذ عبدالملك بشأن الطرائق الأولية للعلاج، فكان مما ذكره ان تصور البدائيين للأمراض لا يعدو كونها عوارض طارئة من الأرواح الشريرة فهم يعالجونها بالقرآات الدينية والشعوذة!. . وكانت صدمة لا بد أنها آسفت الكثيرين من مستمعي تلك الندوة، إذ وضع الدكتور القرآءات الدينية والشعوذة في قرن واحد. . فأوهم السامع بأنـه مع المنكـرين لوجـود تلك الأرواح. . وأنـه ينـظر الى كل محاولة لمعالجة

الممسوس بها، عن طريق الدعاء والرُّقى، على أنها ضرب من التلاعب بعقول الناس. . وأن لا علاج لأي مرض الا عن طريق الوسائل المادية البحتة. . وهو بذلك يتجاهل خصائص الشخصية البشرية التي ليست مادة فحسب، بل مادة وروح، وكل تعامل معها على غير هذا الاساس منتهٍ إلى الإخفاق الحتم.

**مشاهدات ومسموعات:**

وحديث عن عالم الجن والشياطين هذه الأيام، وفي مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لابد أن يتطرق الى ذكر الأخ الشيخ علي مشرف العَمْري، المدرس في المعهد الثانوي بالجامعة الإسلامية.

وإنما كثر الحديث عن ذلك العالم في هذه الأيام بسبب كثرة الوافدين على ذلك الشيخ، ليس فقط من أرجاء المملكة، بل من مختلف الأقطار الأخرى. . وحسبك أن تعلم أن الساحة التي يقع فيها منزله من حي الهجرة في قباء يغصُّ يومياً بعشرات السيارات وبمن تحملهم من الرجال والنساء، الذين يشكون مالا يحسنون شرحه من الآفات النفسية، حتى ليأخذه الرهق فيضطر الى الفرار من استقبال هذه الزحوف الطالبة للشفاء، فلا يزالون بانتظاره حتى ييأسوا من لقائه. . وقد بلغ الأمر بجموع المصابين حدّاً يكاد يسلبه القرار، فهو أينما اتجه من البلاد يجد نفسه محاطاً بالجديد من جموعهم. . حتى حق فيه قول أحد الفضلاء من رجال الحسبة في المدينة المنورة: انه يكاد يصبح فتنة لِلناس. . وإنما يريد بذلك الاشارة الى تعلق أولئك المصابين به حتى ليخشى أن يكون بينهم من يظن فيه مالا يراه هو في نفسه، وما لم يَدُر في خَلَده قط!. .

أول ما ينبغي أن نعرِّف به الشيخ علي أنه أحد المتخصصين في علوم الحديث، ومن دعاة السلفية، بل المتشددين في الدعوة السلفية، الملتزمين لِكل ما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولاً وعملاً. . ورجل هذه صفته لا يُتوقع منه الإقدام على أي عمل ليس عنده فيه دليل من الكتاب أو السنة. . وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن كل ما لديه من الوسائل لعلاج هاتيك الأصناف من المصابين

آيات من الذكر الحكيم لا يكاد يعدوها، وأكثر ما يستعين به من تلك الآيات والسور الكريمة ما يعرف بالقواقل، وهي التي تبدأ بكلمة (قل) و (قولوا). . يتلوها على المـريض وهو موقن بأنه يقوم بعمل مشروع يؤكد صحته وصفُ الله تعالى لكتابه المبين بأنه **﴿فيه شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**. . .

ولقـد حضرنا بعض الإخوة وأنا أحد مجالسه، ولاحظت بدقة تعامله مع أحد المرضى فلم أر في تصرفاته ما يحتمل الشبهة.

كان هذا المـريض الـذي حضرت معالجته فتى جزائرياً يقارب العشرين من العمـر، وقـد بدت على وجهـه ملامـح الاضطراب والخوف، فأشار إليه الشيخ فاستلقى على ظهره فوق إحدى الحشايا، وطفق يدلك جانبي رقبته وهو مستغرق في التـلاوة، وبين الحين والآخـر يوجه بعض الأسئلة الى الفتى المريض وكأنه يخاطب مجهولاً. . من أنت؟. . ما اسمك؟. . ما الذي دفعك الى تلبس هذا المسكين؟!. . وكانت الاجوبة تجرى على لسان الفتى وبصوته، ولكنها تحمل معاني لا علاقة له بها. .

وفي نهاية المشهد طلب الشيخ من المخاطب مغادرة جسم الفتى ولكنه رفض، وأصر على الرفض. . وطال التراجع بينهما حتى أعلن الشخص الخفي أنه سيخرج من عين المريض وأبى الشيخ الا أن يكون مخرجه من قدمه. .

وهنا رأينا ساق الفتى كأنما علقت بجناح قطاة أو فراشة فهي تنتقض بسرعة تفوق استطاعته. . وما هي سوى دقيقة أو قريب من الدقيقة حتى هدأت الساق، ونهض الفتى على غاية من النشاط، وقد غمره الفرح فراح يعانق من حوله. . ثم أخذ سبيله للخـروج، الا أنـه لم يكد يقارب الباب حتى ارتد الى ما كان عليه، وقد فارقته الابتسامة التى علت وجهه آنفا، وجعل يرتجف من الرعب، فأعيد الى الحشية، وعاد الشيخ الى استئناف معالجته، وزاد من مراجعة غريمه الخفي مهدداً متوعداً حتى خنع للأمر وعاهد أن يخرج فلا يعود. .

ذلك هو المشهد الوحيد الذي حضرتُه من مجالس الشيخ علي مشرف، وكنت ولا أزال اتطلع الى تكراره لتجتمع لديَّ المعلومات الكافية. . أما ما حدثنا به فقد

كان أكثر من أن يحفظ فيكتب، وبين هذه الأحاديث أخبار يرويها عن بعض أولئك المنكوبين مما لا يطمئن اليه قلب المحقق وعقله، وأراني مضطراً الى تعليله بما يسيطر على هؤلاء عادة من تداخل التصورات فيخيل إليهم أنهم يرون الشيء أو يسمعونه، ولا وجود له خارج مخيلاتهم. . ومن ذلك أقاويل بعضهم عن هِرٍّ يتكلم، وجنية تتزوج إنسيا. . وما إلى ذلك مممالا يؤثر نفيه أو إثباته في أصل القضية. .

على أن في ما يرويه الشيخ من تجاربه الخاصة عن هذه الغرائب ما يستوقف المفكر، ومن ذلك ما ذكره لنا عن تلك البدوية التي كان قرينها ـ الشيطان ـ يكلمه بالانجليزية، وهي لا تعرف منها حرفاً، وقد استعان لفهمه بممرضة مصرية، والفتاة الأخرى التي يقول انه فصل عنها قرينها الذي كان متلبساً بها، فلم يعد الى إيذائها ولكنه عقد معها صلحاً نافعاً، إذ أخذ يتردد عليها فيعلمها من القرآن، فهي الآن تستظهر عدداً من السور، فتحسن تلاوتها وتلقنها لعدد من الفتيات! . .

ويقول الشيخ عن ثانية الفتاتين: انها موجودة ويمكن التأكد من حقيقة أمرها لمن يعنيه مثل أمرها.

**بين الحقائق والأوهام:**

ولابد للباحث من وقفة على تلك الاقاصيص المرسلة التي أسلفنا الاشارة الى بعضها، وبخاصة ما يروج عند العوام، وما يتعرض له بعض السابقين من ثقات العلماء، عن إمكانية التزاوج بين الإنس والجن. .

لقد وافقت هذه الافتراضات قبولاً عند بعض الفقهاء فراحوا يناقشونها على ضوء الأحكام الشرعية ويبحثون ما ينتج عن هذه العلائق الغريبة من مواليد، وما يترتب على ذلك من حقوق! . . وقد استدل بعضهم على إمكانها بقوله تعالى في سورة الرحمن: **﴿فيهن قاصراتُ الطرف لم يَطمثهن أنسٌ قبلهم ولا جان﴾** إذ فهم من ذلك احتمال حصول الطمث من كلا الجنسين في المحل الواحد. . مع أن في العربية متسعاً لغير ما ذهب هؤلاء إليه في فهم الآية الكريمة، وحسبنا في ذلك ما أورده ابن كثير في تفسيره (ج د ص ٤٩٩ـ٥٠٠) عن أرطأة بن المنذر أن ضمرة بنت

حبيب سئل: هل يدخل الجن الجنة؟ . . فقال نعم . . وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات . . وذلك قوله تعالى ﴿**لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان**﴾ وهو التفسير الأقرب الى قوله تعالى في سورة الروم ﴿**ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ ولا يتصور عاقل أن تتوافر هذه الخواص بين إنسي وجنية ولا العكس.

وكذلك الأمر في استدلالهم بقوله تعالى في رده على وعيد إبليس اللعين ﴿**وشاركهم في الأموال والأولاد . .**﴾ إذ يفهمون من هذه المشاركة حصول المواليد من ذلك التزاوج، مع أن المشاركة الأولى تفسر المشاركة الثانية، فهي تعني تصرُّف الإنسان بالمال، الذي هو أمانة الله في يده، على غير الوجه الشرعي الذي يأمر به الله، ثم تصرُّفه في تربية الأولاد وفق الطرائق الزائغة التي تُرضي الشيطان وتغضب الرحمن . .

وليرحم الله الحسن البصري الذي سئل عن التزويج بجنية فقال: يصفع السائل لحماقته(١) . . . فكيف بنا إذا تذكرنا قصة ذلك الرجل الذي يقول، أو يقال عنه: إنه تزوج جنية وأنجب منها عدداً من البنين ـ لابد أنهم سيكونون عباقرة الدنيا . . ان شاء الله ! . .

ولقد نشر هذا الكلام في جريدة محترمة هي (المدينة) قبل ما يقارب العام أو يزيد، وحتى الآن لم نر عاقبة ادعاء هذا الإنسان، واني لأنتهز اليوم هذه الفرصة لأرفع اقتراحا الى سماحة الرئيس الجليل الشيخ عبدالعزيز بن باز بأن يؤلف لجنة من أولي النهى تحقق مع صاحب هذه الدعوى الجريئة، فإما أن يثبت ما يزعمه بالأدلة الحاسمة، أو يحال الى الجهة المسئولة لإقامة ما يستحقه ادعاؤه من الحد الشرعي . . فإن هذه المزاعم من شأنها ـ كما يقول الإمام مالك رحمه الله ـ أن تفتح على المسلمين باباً من الفساد يتعذر إغلاقه . . أو كما قال.(١)

---

(١) انظر كتاب (آكام المرجان. . .) ص ٧٢.

(١) انظر المرجع نفسه ص ٦٧.

**ومناجاة الاشباح :**

ويسوقنا هذا البحث بتداعي الأفكار الى موضوع ليس ببعيد عنه، وهو ما يسمى بمناجاة الأرواح . .

ولهذا الموضوع جذور تاريخية قديمة، وأكثر من عُنِي بها في القديم أحبار اليهود، الذين يعتبر السحر أحد وسائلهم الدينية للسيطرة على عقول الدهماء، واليهم يعود الاهتمام بحروف الجُمَّل التي يفسرون بها الكثير من إشارات التوراة، وذلك بتحويل الحروف الى أرقام، لكل حرف رقمه المحدد، ومن ثم يحتالون لتأليف الدلالات التي يريدونها من هذه الأرقام، بطرائق اعتباطية لا علاقة لها بالمنطق، لأن مجموع الأرقام المستخرجة من الجملة قابل لاعطاء عدة دلالات قد تبلغ حد التناقض . .

وليست مناجاة الأرواح بل الأشباح، التي شغلت الناس طويلاً في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، سوى واحد من آلاعيبهم الكثيرة المتصلة بهذا الجانب من حياة الإنسان وعلاقته بعالم الخفاء . .

والمتأمل في مؤلفات المهتمين بمناجاة الأشباح وفيهم من لا يُتهم في عقله، والظواهر الغريبة التي شاهدوها أثناء محاولاتهم هذه وسجلوها في كتبهم، تؤكد بما لا يقبل الريب أن ثمة حقيقة كبيرة هي وجود ذلك العالم الذي لم نعرف عن طبيعته حتى اليوم إلا القليل . .

ثم يأتي الكشف الثاني ولا يقل أهمية عن تلك الحقيقة، وهو أن المخلوقين الذين يتم الاتصال بهم أثناء عملية المناجاة ليسوا أرواح الاشخاص الذين نطلبهم، على الرغم من كل البيِّنات التي يقدمونها مما لا يعرفها في عالم الظواهر سواهم، ولكنهم شخوص شيطانية لجأت الى هذا الاتصال لتضليل الناس، وبخاصة المسلمين منهم، وذلك بتصويرهم عالم البرزخ على غير النحو الذي عرفه أهل الإسلام عن طريق القرآن والحديث الصحيح . . فقد يطلب المتعاطي لهذه المحاولات أحد كبار الملاحدة من الفلاسفة أو الحكام الطغاة، فيسأله عن حاله، فإذا هو في ذلك العالم، الذي زالت فيه الفوارق الدينية، فالكل سواء في حياة كلها

هنـاءة وصفـاء! وبـديهي أن تصـديق مثـل هذه المـزاعم مودٍّ الى إفساد العقيدة الإسلامية، التي ترفض امكان التساوي بين المسلمين والمجرمين، والموحدين والمشركين.

وقـد تصل اللعبة إلى حد أن يطلب (المناجي) روح أحد الأطباء العالميين، فيسأله وصفة لمرض يعانيه، فلا يلبث أن يتلقى منه اسم الدواء الذي لم يكد يعرفه أحد من الناس غير ذلك الطبيب.

وقد يسأل المناجي محدثه عن سر طُوِي بموته، فإذا هو يكشف عنه الاستار، وقد يدله على مكان الشيء الذي يريده فلا يخطئه!..

وقد لقينا ناساً أدْمَنوا هذا النوع من المناجاة، فإذا هم مزلزلو العقائد بما سمعوه من تصريحات تلك الأشباح.

وهذا غاية ما يريده الشياطين، وأقصى ما يتوقعون من الانتصار في ملحتمهم مع الإنسان، الذي فارق أو يوشك أن يفارق الإيمان.

وشـد ما يعـزُّ على هؤلاء المـدمنين لهذه اللعبة الشيطانية أن تحاول اقناعهم بضلالها مهما حشدت لهم من الأدلة، لأن الذي واجهوه في مناجاتهم من الوقائع القاطعة لم تدع في صدورهم متسعاً لأي ريب أو احتمال.. وكيف تريد منهم أن يكـذبوا آذانهم وأعينهم وحواسهم، وهي التي سمعت ونظرت ولمست صدق ما أخبرت به تلك الأشباج؟!..

لقد سمعوهم يحدثونهم بخفايا أنفسهم، ويجيبونهم عن كل ما استوضحوه من أسرار الآخرين، ولم يضنوا على بعضهم بالنظر إلى أطيافهم.. وحتى باهدائهم بعض الآثار مما لا يعرفون له مثيلاً في مجتمعاتهم.(١)

حقـاً إن اللعبـة من الإحكـام والإغـلاق بحيث يتعذر تفنيدها على سطحيي الأفكار، وهم معظم الناس.. ولكنها عند أولي الألباب من المؤمنين عارية العِوار مكشـوفة للبصائر والأبصار.. لأن ما عندهم من العلم عن أولئك الأشباح كفيل بفضح أسرارهم لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

---

(١) راجع في هذا الصدد كتاب (الأرواح) للشيخ طنطاوي جوهري.

**السلاح القاهر للشيطان :**

إن الذي أبدع الكون من العدم، وخلق كل شيء فقدره تقديراً، قد أخبرنا بأن من خصائص عدوكم الذي نصب نفسه لإضلالكم وتخريب وجودكم، أنه (يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) فنحن لا نرى هؤلاء الأعداء في صورهم الأصلية، ولكن قابليتهم للتشكل تمكننا من رؤيتهم وملامستهم. . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن قبض على أحد الشياطين ثم أطلقه حين تذكر أن ذلك مما خص الله به نبيه سليمان، الذي سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. وصح كذلك ما سبق ذكره من إمساك أبي هريرة الشيطان الذي كان يسرق من الطعام . .

ومما لا يجهله ذو علم في دين الله أن لكل مسلم قريناً من الجن متفرغاً له . . كما أخبر بذلك رسول الله في الحديث الذي أخرجه مسلم ـ ورواه الإمام أحمد مع بعض الاختلاف اللفظي ـ وذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم (ما من أحد إلا وكل به قرينُه من الجن. قالوا: وأنت؟ . . قال: وأنا إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فليس يأمرني إلا بخير). وليس كل قرين بمعتنق للإسلام حتى يطمئن المسلم الى سلامته من شره. غير أن معه من الأسلحة الضاربة ما يضمن له التغلب على ذلك القرين حتى يرتد حاسئاً خانساً مدحوراً. . لا يطمع بالنيل منه إلا في الغفلات التي تنسيه هذا السلاح . .

وقد سبق أن أوضحنا كون سلاح المؤمن في كفاحه للشياطين إنما هو ذكر الله الذي لا يستطيع الشيطان مقاومته. . وقد رأينا في ما أسلفنا من ذلك أن للمؤمن أذكاره التي قلما يسهو عنها في كل مناسبة وعند كل حركة وسكنة. . حتى ليكون بين المؤمنين من يبلغ به الوعي الحذِرُ من الشيطان أن يهابه فيهرب منه فلا يجمعهما فج واحد، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ثاني الراشدين رضي الله عنهم، وكما أخبر الإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل عن والده، إذ كان يسمع منه كلما ثاب الى الوعي أثناء احتضاره هاتين الكلمتين (لا . . بعدُ . . ) ولما سأل أباه عما يعنيه بهما أجاب: انه الشيطان يقول لي: يا أحمد . . فتّني . . فأقول له: لا . . بعدُ . . فهو رحمه الله لا يأمن كيد اللعين ما دام في جسده نبضة من الحياة.

---

(١) الخبر في (المنهج الاحمد) ص ٤٣ ط المدني.

### أنّى لهم هذا ؟

إن علم المؤمن بأخبار هؤلاء القرناء يمنحه التفسير الشافي لكل المبهمات التي تبلبل أفكار السواد الأعظم من الناس حول هاتيك الخفايا.

في كل مكان من العالم تجد أناساً اتخذوا من قراءة الأفكار، ومن استطلاع، المخبآت، والكشف عن المفقودات، والتقريب بين المتنافرين، وما إلى ذلك مما يتصل بالامور المغيَّبة، حرفة لهم يبتزون بها أموال المغفلين. . وليس غريباً أن تصيب بعض تكهناتهم فيقع ما أخبروا به، فيؤخذ الناس بهذه الوقائع على ندرتها، وينسوا ما رافقها أو سبقها من أكاذيبهم.

أذكر أني كنت ذات يوم، وقد مضى عليه قرابة نصف القرن، في الطريق الى الصلاة، وإذا هناك عدد من الناس يتجمعون حول أحد (الدراويش) وهو ينظر في ودعات أمامه ويجيب على أسئلتهم. . فلم أتمالك أن سخرت من هذا المشهد وواصلت سبيلي، بيد أن الدرويش قطع عمله والتفت إليَّ يقول: أريد أن أخبرك بشيء يهمك. . ولا أريد منك شيئاً. . وألح وألح الناس الذين حوله عليّ. . فأجبته الى ما طلب، وراح ينظر في الودعات ويوجه الي بعض الاخبار العجيبة حقاً مما لا يعلمه أحد سواي. وزاد على ذلك تحديد علامات ما كنت لأنتبه إليها. . واستأنفت مسيرتي حتى أدركت صلاة الجماعة، ثم خرجت وأنا أفكر بما سمعت، وما هي الا لحظات حتى فوجئت بما أخبر به ذلك الرجل المجهول!. .

وذات يوم سطا لص على شقة لنا في اللاذقية تسكنها ابنة لي فسرق ما وصلت إليه يده، وعجزت الشرطة والمحققون عن الوصول الى أي أثر له. . وهنا أتيح لزوجها من يدله على (حسَّاب) مجرب في مثل هذه الامور، فمضى إليه وعاد منه بأوصاف السارق، وبتحديد مكان المسروقات، وصح الخبر فاستردَّ المسروقات من الموضع الذي عينه، وقبض على اللص متلبساً بكل أوصافه!. .

وفي طرطوس أعرف رئيس محكمة فوجىء بإحالته على المعاش، فكان ذلك نكبة عليه لا تطاق، وبينما هو مع بعض أصحابه دخل عليهم حسَّاب آخر أعرفه، فجعلوا يدعونه للنظر في طوالعهم ساخرين ضاحكين. فلما جاء دور الرئيس

المتقاعد حاول أن يتملص من تصرفاته يقيناً منه بأنها لا تخرج عن نطاق الدجل، ولكن الحضور أبوا عليه إلا أن يستمع إليه.. وجلس الحسَّاب يرتب الأرقام ويؤلف بينها وبين الحروف، حتى إذا فرغ من معادلته نظر إليه وهو يقول: أبشِرْ بثروة لم تخطر على بالك قط ولم تحلم بمثلها.. إن عمة لك قد توفيت قبل أيام وبلغت قسمتك من ثروتها كذا وكذا من الدنانير الذهبية..

وقد ذكر لي هذا المتقاعد العدد الذي أخبره به ولكن النسيان محاه من ذهني. ويقول لم يكن بين خبر الحسَّاب وتلقيه البرقية المؤكدة له سوى يسير من الوقت.

**والتنويم المغناطيسي:**

ولو رحنا نتتبع أخبار هذه الوقائع لضاق بنا المجال..

فكيف حدث كل هذا؟!.. وأين نجد تأويله؟!..

لم تكن مثل هذه الأحداث غريبة عن إدراك السلف، فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله في تفسيرها: إن وسواس الرجل يخبر وسواس الرجل فمِن ثم يفشو الحديث.. وبعبارة أوضح يريد أن يقول: إن ذلك من تعاون القرناء فيما بينهم، فإذا أعوز أحدهم العلمُ بأسرار إنسان ما استعان بقرين ذلك الإنسان فأمده بما ينقصه من أخباره.. وهؤلاء الحسَّابون إنما يستعينون بقرنائهم على معرفة ما يُسألون عنه، فيصدقونهم حيناً، ويكذبونهم حيناً، حسبما تتراءى لهم مصالحهم الشيطانية.. والنتيجة من كل ذلك هي توكيد سلطانهم على أولئك الوسطاء لاستعمالهم في إفساد الحياة الإنسانية، إذ يزداد تعلقهم بالشياطين والاعتماد عليهم في استلاب أموال المغفلين، وتثبيت سيطرتهم على نفوسهم.. وهذا ما أشار إليه مهتدي الجن بقوله الذي نقله إلينا ربنا في سورة الجن **﴿وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾**.

وهذا الحكم بالنسبة الى أعمال القرناء عام يشمل أصحاب الودع والرمل والحساب والمدعين مناجاة الأرواح، ولا يُستثنى منه المتعاطون للتنويم المغناطيسي، مع الاعتراف بالفارق بين الفريقين.

فالـذي أفهمه عن التنويم المغناطيسي أنه لا يعدو حدود التفاعل بين طاقتي انسانين يكون أحدهما أكثر تأثيراً من الآخر، فيعمد الى استهوائه حتى يصبح تبعاً له ينفذ كل ما يأمره به إلا الإقدام على التقل ـ فيما يقال ـ.

وقد أمكن الإفادة من أعمال التنويم في تحقيق الكثير من المصالح، كمعالجة المرضى، والحصول على الاعترافات الضرورية لتحقيق العدالة، وما إلى ذلك. .

وإلى هنا يظل الأمر في حدود المعقولات، ثم يتطور الموضوع باستغلاله من قبل الدجالين، فيدخله السحر الذي يخيل للمشاهد أنه يرى ـ كما رأينا ـ عدداً من ساعات التنبيه تخرج من قبعة لا تتسع لأكثر من واحدة، يتلوها ذَكَرٌ حيٌّ من الأرنب يقارب الكيلين. . ومن هنا ينتقل الدجال الى الإخبار بالمحجوبات، فيضع على عيني المنوَّم عصابة تصدهما عن الرؤية ثم يتناول مختلف الأشياء فيسأبه عن نوع كل منها وعدده فيجيب، وهو غائب الوعي بالواقع كأنه ينظر إليه عن كثب. . وهذا ما عرفه القارىء مما تقدم ذكره، وعماده الاستعانة بالقرين الذي يستمد معرفة الشيء من أفكار الوسيط الذي أحاط علماً بعدده ونوعه ولونه، وسرعان ما ينقل هذه المعلومات الى قرين المنوَّم الذي يضعها بدوره على لسان صاحبه. .

وقد أدرك ذلك كذلك الحجاجُ بن يوسف الثقفي من قبل، إذ قيل إنه أُتي برجل رُمِي بالسحر فأراد اختباره، فأخذ كفّاً من الحصا عرف عدده، ثم سأله عنه فذكر عدده كما هو. . وهنا طرح الحجاج ما بيده وأخذ كفاً آخر دون عدد، وسأله كم في يدي فقال: لا أدري، فقال له الحجاج: كيف دريت الأول وجهلت الثاني؟. . فأجاب: إن ذلك عرفته أنت فعرفه وسواسُك ـ قرينك ـ فأخبر وسواسي، وهذا لم تعرفه فلم يعرفه وسواسك فلم يخبر به وسواسي فلم أعرفه.(١)

### أخبـار داهـش:

وفي إحدي الفترات من أيام رئاسة الشيخ بشارة الخورى للبنان انتشرت شهرة الدكتور داهش حتى أحدثت ما يشبه الزلزلة، ليس في لبنان فقط بل في سورية

---

(١) انظر (آكام المرجان. . ) ص ١٦٦.

والبلاد العربية الأخرى. . وقد استقطبت هذه الشهرة وما رافقها من أقاصيص الرجل عدداً من أهل العلم والتحقيق، ومن هؤلاء الشيخ عبدالله العلايلي الذي يقول انه أراد الوقوف على حقيقة الرجل بنوع من الامتحان الحازم، فأخذ نسخة من المصحف الشريف ورسم دائرة بالخط الأحمر حول إحدى الكلمات ثم جعل النسخة في جيبه دون أن يطلع على ذلك أحد من الخلق. . ولما ضمه مجلس الدكتور داهش، فاجأه هذا بذكر الكلمة ومكانها من الآية والسورة!. .

وحدثني صديق لاذقي ممن حضر بعض مجالس الرجل بأنه شاهد صحاف الحلوى والفاكهة توضع على مائدته للحضور دون أن يروا يدا تحملها، حتى إذا أخذوا منها حاجتهم رُفعت بالطريقة نفسها، ثم وضعت في أثرها أقداح القهوة، وبعد أن احتسوها رفعت في الهواء على الصورة الغريبة!. . ولما ضاقت السلطة اللبنانية بالرجل وبالزحام الذي يتدفق من حوله أحالت أمره الى القضاء، وجاء المحقق لاستطلاع الواقع وتقديم التقرير عما يقف عليه من خبر الرجل، فما إن وقع بصره عليه حتى أعرض عنه وهو يوجه إليه أسوأ التقريعات!. . وعجب الحاضرون من ذلك التصرف الذي لا مسوِّغ له، ولم يكن داهش أقلهم تعجباً واستنكاراً، فقال للمحقق وما الداعي لهذه الشتائم؟!! فأجاب المحقق: تستقبلني عارياً كما ولدتك أمك ثم تستنكر تقريعي لك؟!!

وفي النهاية تبين أنها إحدى ألاعيبه أبرزته عارياً لعيني المحقق وفي منتهى الحشمْة في منظور الزائرين!. .

وعجز القضاء اللبناني عن إدانته، ولكن الرئيس بشارة استعمل صلاحيته فوقع قراراً بنفيه عن البلاد بحجة ضرره على الأمن. . ولكن اليد التي وقعت ذلك القرار لم تلبث أن شُلَّت، وكلفت صاحبها عناء كثيرا وعلاجا طويلاً، تحدثت عنه الأفواه، وسُوِّدت بخبره أعمدة الصحف. .

وكاد الرجل أن يحدث بمخاريقه المدهشة نِحلة دينية جديدة تقوم على التقريب بين الأديان وانطلق بعض مقربيه وفيهم شاعر لبناني معروف، هو حليم دموس، يبثون دعوته في مختلف الانحاء، ولكن قصر عمره حال دون تثبيتها. . ومفهوم أنها

دعوة شيطانية من طراز البهائية التي قامت على التلفيق والترقيع بين جزئيات الأديان العالمية، ولا غرض لها سوى محاربة الدين الحق. . الذي لا يقبل الله سواه ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل مِنهُ وهوُ في الآخرة من الخاسِرينَ﴾ آل عمران.

**والحارث الكذاب:**

وما أشبه ضجة داهش تلك بأخبار ذلك الدجال الآخر المسمى بالحارث[1] وقد فصلها الإمام أبوالفرج عبدالرحمن بن الجوزي في كتابه المنشور حديثاً بعنوان (تلبيس إبليس) وهو من مدعي النبوة أيام عبدالملك بن مروان، استهواه الشيطان بمغرياته فانتزعه من الإيمان الى الكفر، وخدعه بما كان يرائيه من الأعاجيب. ومن ذلك أنه كان يأتي الى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبِّح ـ بمسمع من الناس ـ ويطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء، ويريهم رجالاً على خيل زاعماً أنهم الملائكة. . وقد كان من حكمة الله أن يسر للشيطان سبيل استدراجه ليجعل منه في النهاية عبرة لكل مفتون مغرور، وبعد لأى أمكن الله منه فقُبض عليه في مخبئه ببيت المقدس، فقيد بجوامع الحديد ولكنها لم تستقر عليه طويلاً، فكان يقرأ الآية من كتاب الله فتسقط. . ولما قُدِّم للقتل لم تعمل به الحربة، بل كانت تمسه فتنثني، حتى كادت الفتنة تشيع بين الناس، إلى أن وفق الله أحد الحرس فقتله الله بيده. . .

وبقليل من الانتباه يرى المؤمن الصلة الوثيقة بين هذه الأحداث وما أسلفناه من أخبار القرناء ووسطائهم من الجن، فكل ما قدمناه من مخاريق داهش إنما قام به مسخروه الشياطين ابتغاء تحويل الناس عن تعاليم السماء الى مضلات الفتن.

وهكذا الأمر بالنسبة الى الحارث الكذاب، الذي استحوذت عليه الشياطين عن طريق إيهامه بأن لله فيه سراً، وأن كل ما يتراءى له من الخوارق إنما هو براهين اختيار الله اياه للنبوة!. . وما كان للشيطان ان يستهويه بهذه الأضاليل لو توافر له من العلم بقدرما كان عليه من الاجتهاد في العبادة. غير أن جهله بأحكام الشريعة،

---

(١) اقرأ أخبار هذا الكذاب في (تلبيس إبليس) ص ٤٣٧ ـ ط دار الوعي العربي ببيروت.

واكتفاءه بالعبادة مكنا منه للوسواس الخناس حتى لم يعد بقادر على التمييز بين الآيات والمفتريات، فحسب تسبيح الحجارة بنقره عليها معجزة، وظن وصول الفاكهة إليه في غير إبّانها كرامة، وتصور أشباح الجن على خيولهم ملائكة، وما هي إلا تمثيليات إبليسية يسخره بها لإضلال جهلة المسلمين. . ولكن شاء الله أن يفضح المغرور وأعوانه بالمصير الأخير، كما فضح من قبله فرعون بإغراقه وجنوده، واستبقاء جثته تُعرض لأعين المعتبرين على مدى الآلاف من السنين، فتذكرهم بافصح لسان وأبلغ بيان: إن هذا المحنط هو نفس الطاغية الذي كان يقول للمأخوذين بترّهاته (أنا ربكم الأعلى)! . .

**هذه الانتصارات الشيطانية:**

واستكمالا لموضوع القرين وأثره الرهيب في الصراع الأبدي بين الإنسان والشيطان، يحسن بنا أن نتذكر أن اللغط الذي يثور هذه الأيام حول موضوع الجن ليس غريباً في تاريخ الإنسان، ولن يعدو كونه صدى لإحدى مراحل هذه المعركة، التي يحاول بها الشيطان وذريته وأعوانه، على اختلاف هوياتهم، إهباط المخلوق المفضل الذي عصى أمر الله بالسجود له، من منزلته العليا الى أدنى الدركات، ليثبت ما سبق أن أعلنه في الملأ الأعلى بقوله الوقح (أنا خير منه)! . . فهي سلسلة متصلة الحلقات من المؤامرات والمكايد التي لا انقطاع لها ولا حدود لصورها، التي تتخذ في كل زمان ومكان وضعا جديداً ووسائل جديدة. . ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنها تسجل في هذه الأيام أقصى ما حققه اللعين من أنواع الانتصار على ابناء آدم منذ بدأ الفريقان ملحمتهما على هذه الأرض.

ونظرة عميقة الى ظلمات الفتن التي تخض في هذا القرن حياة الأمم والأفراد بكل مكان كافية لتوكيد هذا الواقع. . والذين ينظرون بنور الله الى حضارة المادة التي تكتسح القِيم وتفسد الذمم، وتخرب فِطَر الاكثرين حتى لتذهل عن ربها، فلا يمرُّ ذكره منها على لسان، ولا يخطر في جنان، يعلمون حجم الجريمة التي اقترفها الشيطان بحق النوع البشري كله، دون استثناء، وإن كان حظه من المسلمين لم

يبلغ المدى الذي يتمناه، لأنه على أتم اليقين بأن الإسلام هو السد الوحيد الذي لا يزال صامداً بوجه طغيانه، والقوة الوحيدة المؤهلة لقهره في النهاية وإنقاذ العالم من مخالبه. . ومن هنا كان تركيزه على إثارة معظم السلطات ضد الإسلام ودعاته، عن طريق إيهامها بأن في عودة الإسلام الى قيادة الحياة أكبر الأخطار التي تهدد وجودها! . .

وطبيعي أن يكون أكثر الناس استجابة لمحاولات الشيطان هذه أشدهم بعداً عن الله، وانغماساً في حمأة المطامع الزائلة والشهوات المدمرة. . ولا عجب في ذلك بعد أن قرأنا في كتاب الله الخالد قوله الحق **﴿ألم تر إنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾** مريم ٨٣. وحكمه الحق **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾** الزخرف ٣٦. وربنا تبارك اسمه أرحم وأعدل من أن يسهل للشياطين سبيل السيطرة على الإنسان وهو مقبل عليه عامل بهدايته، لأن من قوانينه المحكمة في عباده أن **﴿من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾** سورة الليل. **﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾** التوبة ١١٦.

ونحن اليوم وقد أوغلنا كثيراً في مفاسد الحضارة المادية حتى فقدت حياتنا الفردية والمنزلية والاجتماعية طابعها الرباني، وأصبحت خليطاً من صالح الإسلام وسيء الآثام، وكثر فينا الغافلون عن ذكر الله، والمغيِّرون لِخلق الله، فلا عجب أن يجد الشيطان لدينا فرصته المنشودة، فينقضَّ علينا بخيله ورجِله، حتى يكون منا المتزاحمون على أبواب المطببين يلتمسون الخلاص من نزغات الشياطين. . ولا أرجم غيبا إذا قلت إن البلاء سيستمر في التفاقم حتى نعرف طريقنا الى الله، فنعتصم بحبله ونلتزم سبيله، ونعود كما كان سلفنا الصالح من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات. . وليس ذلك على الله بعزيز.

**من أسرار القرآن:**

قبل عامين من كتابة هذا البحث فوجئت بزيارة لم أتوقعها من رجل تبينت من ملامحه بوادر الخير والفضل، وقدم إليّ نفسه على أنه الدكتور وائل زين العابدين

من المغتربين في أميركة الشمالية . . وبدأ الحديث عن مؤسسة إسلامية يعمل فيها مع آخرين من العاملين في نطاق الدعوة الإسلامية. واسم المؤسسة (عيادات أكبر) ومقرها في مدينة بَنَماسيتي من ولاية فلوريدا.

ويلاحظ من عنوان المؤسسة أنها مستوصف كبير، يملكه رجل اسمه أكبر، وهي تسمية تكثر بين مسلمي الهند.

وحسبت باديء الرأي أن الدكتور يقوم بجولة دعائية للمؤسسة ولكن سرعان ما تغير الرأي ، إذ فهمت أنها إنما أنشئت لخدمة المسلمين وحماية صحتهم وأموالهم من أصحاب الشباك المنصوبة لاصطياد الغرباء. . فهي تستقبل الزائر للمعالجة فتجرى له أدق الفحوص الفنية ثم تعين له الجهة التي يحتاج إلى مراجعتها. وكذلك تستقبل الطلبة الجدد فتؤمن لهم الخدمات اللازمة. . ولكن أهم المهام التي تنهض بها هذه الأيام هي التجارب العلمية التي لم تُسْبَق إليها من قبلُ لاستشكاف منافع القرآن الكريم في نطاق الصحة الإنسانية. . ولكي يقرب الموضوع من أفهامنا ـ نحن المستمعين له ـ جعل يفصل لنا مراحل هذه التجارب كأننا نشاهدها رأي العين. .

وكمثل من العرض يذكر أن رجلا من آل فلان بالمدينة المنورة قدم إليهم لاجراء الفحوص الطبية، وفي المستوصف المذكور أجريت له الاستطلاعات الالكترونية المتطورة وحدد الوضع الذي هو فيه، ولم يغادر المستوصف إلا وقد خلص بفضل الله من كل العوارض التي كان يشكوها. .

وحين كنت استمع إلى حديثه لم يخطر في بالي أن أكتب عنه شيئاً، لذلك لم أعد أذكر إشارته الى أثر التلاوة القرآنية التي كان يستمعها المريض أثناء المعالجة، وهو يشاهد آثارها على الشاشة الالكترونية. .

ومرت الأيام والشهور على تلك الزيارة حتى كان ذات يوم من ذي الحجة عام ١٤٠٥هـ وكنت أقلب النظر في العدد ٧٣٢ من مجلة المجتمع فإذا انا تلقاء العنوان التالي (تأثير القرآن على وظائف الجسم البشري) وفي الزاوية اليسري منه صورة كاتب الموضوع الدكتور أحمد القاضي ، وقد قدم له بما يفيد أن (هذا البحث قدم

في المؤتمر العالمي للطب الإسلامي المنعقد في استنبول في سبتمبر ١٩٨٤).

وسرعان ما أعادني البحث الى ذكرى اللقاء مع مندوب المؤسسة، وفهمت منه أن (عيادات أكبر) ماضية فى نشاطها المبارك، وأن نتائج باهرة قد حققتها التجارب المستمرة، وكلها تؤكد الأثر الكبير للقرآن العظيم في الحفاظ على الصحة الإنسانية، تحقيقاً للخبر الإلهي بأن فيه شفاء للناس..

ويقول البحث ان تفاصيل هذه النتائج قد عُرضت من قبلُ على المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الإسلامية في امريكة الشمالية أثناء انعقاده في مدينة سانت لويس بولاية ميزورى في آب ١٩٨٤ ونشرت في مجلة الجمعية الطبية الإسلامية..

ولكثافة البحث وتعدد مجاريه وكثرة تعقداته يتعذر تلخيصه، ونكتفي بالإشارة إلى أساسياته:

يؤكد البحث أن مئات التجارب التي أجروها حتى الآن على متطوعين - وبخاصة غير المسلمين منهم - وبأرقى ما توصل إليه التقدم العلمي في نطاق الكمبيوتر والالكترون، أثبتت أن للقرآن تأثيراً إيجابياً مؤكداً لتهدئة التوتر. وأن هذا الأثر القرآني يمكن أن يؤدى الى تنشيط وظائف المناعة في الجسم، والتي بدورها ستحسن من قابلية الجسم لمقاومة الأمراض أو الشفاء منها، وينطبق هذا على الأمراض المعدية والأورام السرطانية وغيرها.. وإن الجهود لا تزال متصلة لاستشكاف المزيد من هذه الحقائق..».

ومع أهمية هذا الكشف نقول أنه لم يُضِفْ جديدا الى ما علمه المسلمون بالتجربة المستمرة من أثر القرآن العظيم في إبراء المرضى من أنواع الأسقام التي أعيت الطب قديما وحديثاً. وقد أسلفنا الإشارة الى نماذج من هذه الوقائع، ونذكر منها رقية الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري للديغ الأفعي بفاتحة الكتاب، وقد كانت كافية بفضل الله لتعطيل عمل السم واعادة السلامة الى اللديغ. (١)

وفي الصفحتين الأخيرتين من عدديْ مجلة المجتمع - ٧٦١ و ٧٦٢ - قصة يرويها الدكتور عبدالله النفيسي عن امرأة مغربية كانت وبعلها من الغافلين عن ذكر

الله، حتى فاجأها السرطان القاتل، وأنذرها حُذاق الأطباء بقرب الأجل، فلم تجد الأسرة المنكوبة ملجأ من الله إلا إليه، واتخذ الزوجان طريقهما الى البيت العتيق تائبين نادمين مستنجدين رحمة الله وحده. وما هي سوى أيام حتى وافاها البرء الذي أدهش اطباء باريس، الذين سبق أن أكدوا للزوجين المنكوبين ان الموت لن يمهلها الا أياماً قليلة.

إلا أن الجديد في عمل (عيادات أكبر) المشكورة المبرورة انها تحاول إثبات المعجزة القرآنية عن طريق الأجهزة المادية البالغة التقدم والتطور، وفي ذلك دفعة جديدة للدعوة الإسلامية في أرض المادية، التي توشك أن تنسى أن لهذا الكون رباً هو خالق كل شيء وبيده ملكوت كل شيء!.. فجزى الله أطباء هذه العيادات، عن دينه خير ما يُجزى المخلصون المحسنون، ورضي الله عن سيف الله خالد الذي أثبت قديماً لزعيم نصارى الحيرة أن السم الذي يحمله لا أثر له إلا بأمر الله، وشد ما دهش النصراني عندما شاهد خالدا يبتلع سمه الرهيب وهو يسمي الله دون أن يسمه سوء!..

**وأخيرا هل الميكروب من الجن؟؟**

وقد بقي من البحث نقطتان أحب ألا يفوتني التذكير بهما..

أما إحداهما فهي خشية أن يفهم الناس من التوكيد على وجود الجن وأثرهم، والتسلح بالقرآن والحديث والدعاء في مقاومة شرورهم، أننا نريد بذلك صرف الناس عن استعمال الطرق الطبيعية في ما يعتريهم من مختلف الأمراض العصبية، إلى ذلك النوع الآخر من العلاج الروحي، الذي كثيراً ما يؤدي الإيغال فيه الى فساد الرؤية واستفحال أمر الدجالين الذين لا يهمهم الا الحصول على المال من أي سبيل..

---

(١) انظر مختصر صحيح مسلم رقم الحديث ١٤٤٩.

وقد سبق أن عالجت هذه النقطة في مطالع البحث، وأزيد هنا أن مما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن نراجع ذوي التخصص في طلب العلاج قائلا (إن الله أنزل الداء وأنزل الدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تداووا بالحرام)[1] وقد كان بوسعه أن يعالج كل مريض من صحابته بالرقى والدعاء، ولكنه لم يفعل ذلك الا قليلا وعلى قدر الحاجة..

وفي هذا ما يكفي لرد الشبهة الأولى..

ثم تأتي النقطة الثانية، وهي تتصل بالحديث عن أصناف الجن، حتى عُدت منهم الكلاب والحيات والرياح والسعالي والغِيلان ومالا أحصي..

وقد رأينا أبامنصور الثعالبي في (فقه اللغة) يقحم في اللغة نوعين آخرين فيقول: (المتولد من الانسي والجنية هو الخس، والمتولد بين الآدمي والسعلاة هو العملوق!..).

على أن ثمة حديثاً عن أبي ثعلبة الخشني يرفعه أن (الجن ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون) وقد ورد الحديث في (شرح السنة) وذكره الألباني في (الأحاديث الصحيحة) ورقمه في المشكاة ٤١٤٨ ج٢.

وفي رواية أخرى لابن أبي الدنيا في (مكايد الشيطان) عن أبي الدرداء مرفوعاً أن رسول الله قال (الجن ثلاثة أصناف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليهم الحساب والعقاب).[2]

ولم يتح لي تحقيق سند الثاني، وفيه من الزيادة مالا يبعد عن مضمون الأول، إلا أنها تفيدنا في فهم مدلول الخبر النبوي الثابت.. ولننظر الآن في كل من الأصناف الثلاثة في الحديث الأول.

فأولها ذو الأجنحة الطيار، وذاوت الأجنحة من الطير لا تحصى عدداً، فكيف نميز بين الجني وغيره منها؟.. أما حيات الجن والكلاب فقد عرفناها في أحاديث

(١) ابو داوود عن أبي الدرداء مرفوعا.

(٢) انظر (آكام المرجان) ص ١٨ ط كراتشي.

صحيحـة أخرى لا خلاف عليها ولا غموض، ويبقى ثالث هذه الأصناف، وهو كالأول، لأن المخلوقات التي تتصف بالحلول والظعن كثيرة جداً، وتكاد لا ترى جماعة من الدوابِّ الا من هذا الصنف.. فكيف نفرق بين الجني منها وغير الجني؟..

ومعلوم أن اسم الجن والجان إنما يدل على الخفاء ككل اسم يشاركه في حروفه الاصلية: الجيم والنـون المكررة، ومن ذلك الجنين لأنه مختف في بطن أمه، والجَنـة لأنهـا تخفي المتجول والمقيم فيها بكثرة شجرها، والمِجَن لأنه يحجب المحارب عن سلاح خصمه، والجَنان وهو القلب لأنه مختف وراء الأضلاع.. وهكذا.. وفي ضوء هذا الاشتقاق نستشف بعض المفهومات التي تتصل بالصنفين الغـامضين في الحـديث الأول.. فمن ذوات الأجنحة البعوض وفيه من صفات الخفاء قدرته العجيبة على التخفي أثناء النهار، حتى إذا أقبل الليل انتشر باحثاً عن غذائه من دماء الناس، فهو يجمع بين خلتين من صفات الشياطين: الخفاء والشر..

وفي الهواء مالا يحصى من المخلوقات الخفية المؤذية للإنسان تهاجمه ليل نهار في طعامه وشرابه ومنافذ جسده.. وبذلك تقوم بأكبر مهامٍّ الأشرار من الجن في تنغيص حياة الناس وتعريضهم لشتى الأمراض..

وقـد يكـون المـراد بالصنف الثـالث هو أنـواع الميكروبات والجراثيم، التي تستهويها الإقامة في المواضع الملوثة من أجسام البشر وأمكنتهم، فتعشِّش وتفرخ وتنشـر الأوبئة، فإذا تنبه هؤلاء الناس الى واقعهم فنشطوا لتغييره بالنظافة واتخاذ الأسبـاب الصحية، لم يبق للمكروب والجراثيم مصلحة في البقاء، فتعمد الى الظعن للبحث عن البيئة التي تناسبها..

وإني لأكتب هذه الأسـطر وفي ذاكرتي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه أبوداود عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً وهو قوله (نهى رسول الله عن الشرب من ثلمة الاناء..) فأتساءل: أيكون هذا النهي لما تتعرض له الثلمة من تسلل أنواع الميكروب؟.. ولِمَ لا!...

وهو من الأمور البديهية التي يمكننا مشاهدتها عن طريق المجاهر!! . .

ثم أتذكر كذلك رواية أخرى للحديث لم يتح لي تحقيق سندها، ونصه (إياكم وثلمة الاناء فانها مَرْكب الشيطان) فلو صح هذا الحديث لكان حكما نهائياً بكون المراد بالشيطان هنا هو الميكروب دون غيره . .

وبعد فهذه تصورات طالما راودتني فلم أجد متسعاً لذكرها حتى ألفيتني أعالج موضوع الجن على هذا النحو من التوسع، وأنا إذ أعرضها في نهاية هذا البحث أود لو أسمع رأي السادة العلماء فيها، فقد تكون صواباً من الله فينفع بها من شاء من عباده، وقد تكون من الخطأ الذي لا عصمة لمثلي من مثله فأرجع عنه الى ما يقرره العلم الشرعي الصحيح . .

والحمد لله أولاً وأخيراً . .

# أيها الناس

لا ريب أنني لا أعبر عن شعوري وحدي حين أقول «أنى لا أزال مخموراً بنفس الشعور الوجيع الذي طغى علي إذ كنت أسير في جموع الناس خلف النعش الذي حمل جثة ذلك الفقيد الى المقبرة فإن ذلك المنظر الفاجع المريع لم يبرح بعد أذهان الناس، وإن كنت لا أعرف بالدقة متى يبرحها، على أني واثق، في كل حال، بأن ذلك الأثر ليس من شأنه أن يستمر طويلا في تلك النفوس التي اعتادت أن تمر بالعبرة من معجزات القدر لا تفهم منها أكثر من أنها شيء عادي لاحق له بصرفها عما وجهت إليه من سبيل، مهما تكن صلته في حياتهم من القوة والخطر، وفي اعتقادي أن مثل هذا النسيان هو الظاهرة الطبيعية اللازمة في نفوس الجماهير، لأنها تكوِّن الحدود الأولى لمنطقة الوعي العقلي التي من شأنها أن تنتظم نتائج الحوادث فتؤلف منها القوة العاصمة التى تسيطر على توجيه النفوس الرفيعة المفكرة الى المثل الأعلى، وذلك وحده هو السر في قوة الملاحظة عند هذه النفوس، بحيث ترى في كل شيء يحدث في هذا العالم إنذاراً بشيء. . ولكن ما أقل ما تملكه الانسانية من أمثال هذه النفوس التي بلغت من الصفاء في استشفاف حقائق الحوادث وتسلسل روابطها الحد الذي جعل مثل ذلك الرجل ـ لعله الجنيد أو البسطامي ـ يقول «إننى لأدرك ذنبي من حماري» فما أبعد الفروق بين مخلوق من هذا النوع الممتاز، وبين أمة من أمثال هذه الجماعات لا تفعل بها حوادث الدهر كلها أكثر مما تحدثه في عقلية الذبابة اصطدامها بحاجز زجاجي لا تلبث أن تفيق من أثرها حتى تعود الى مغالبته كرة وكرات.

ولقد وقفت الى جانب ذلك القبر في الواقفين من حشود الناس يشهدون مواراة ذلك الجسد الهامد الجريح في ترابه وكنت أحس في أعماقي اندفاعاً قوياً الى مخاطبتهم والى مناقشتهم بالذي يجدونه في تلك الكارثة الفظيعة التى ذهبت بأحد شبابهم بين ليلة وضحاها، فإذا هو أثر مرير فاجع يملأ القلوب بعد أن كان جسماً نشيطا نابضا بكل قوة الحياة، ولقد بلغ بي هذا الاندفاع الى أن أصعد حافة ضريح يمكنني من الاشراف على جموعهم، ولم يكن بيني وبين ما أريد إلا أن أدع للساني ان ينطق بهذه الكلمة (أيها الناس) فإذا هم منصرفون اليَّ بوجوههم وأسماعهم، وإذا أنا بعدُ منحدر عليهم بهذه القنابل المتفجرة المدوِّية . .

(. . لقد ألف المتكلمون منكم ان يتخيروا من هذه المقبرة أمكنة معينة لا يتعدونها، حين يرون باعثاً على القول والرثاء، وما أنا، رغم انقطاعي عن تلك السبيل، بالخارج عن هذا المنطق، فإن من سنن الحياة ألّا يبكي المرء من غير قرابته وذويه الا من ترك حوله فراغاً من قوة، أيّاً كان لونها، وأنا أعرف مثل الذي تعرفون من أمر هذا الشاب الذي لم يكن أكثر من حمَّال . . فليس في حياته شيء يستحق الرثاء أو الندب، ولكني أجد في حياته الفارغة تلك وفي نهايتها هذه شيئاً آخر غير الذي تجدون أنتم، على الرغم من فظاعة المأساة التي انبثقت عنها هذه النهاية. إني أحس في هذه النهاية قوة القدر الذي تؤمنون به دون أى تدبر لشأنه وحقيقته، وهذه القوة هي وحدها التي تدفعني الى الكلام على قبر هذا القتيل، لا لأختلق له مآثر لم يعرفها، ولا لأبكي ما تبكون من شبابه وصحته، فإن كثيراً مثل هذا الشاب وهذه الصحة وهذه القتلة أيضا ترزأ بها الانسانية كل يوم، دون أن تجد لها باكياً أو مبالياً . . ولكني أقف هذا الموقف لأدعو معكم الى الثأر من القاتل والى إنزال القصاص به . . القصاص الذي يفيء على هذا البلد بحماية الحياة من عبث المجرمين . .

بيد أن القاتل الذي أعنيه هو غير الذي تعرفونه، هو غير مصطفى بن خالد المجذوب الذي قلَّ بينكم من يعلم انه ابن عم والدي، لأنه قد احتجب عنكم بنسبته الى والدته (صالحة) دون أبيه هذا . .

إنكم تتشاورون بأمر هذا القاتل وتأتمرون به وتجمعون جموعكم احتجاجاً على بقائه حياً حتى الساعة . . أما أنا فإنني أقسم لكم صادقاً أن هذا المجرم لم يكن غير صورة فحسب للقاتل الحقيقي الذي اختبأ وراءه والذي أعطاه بيده الآثمة الجبارة تلك السكين التى شق بها امعاء رفيقه القتيل الذي تجتمعون حول قبره . . بل إني لأقسم صادقاً أن هذا القاتل الحقيقي هو بينكم هنا في هذه المقبرة وعلى مقربة من هذا القبر نفسه، وأن في وسع كل منكم أن يلمسه بيده، وأن يضربه بجمع كفه، الضربة التى تريدونها والتى تتلهفون إليها . . أتريدون بعد أن تعرفوا هذا القاتل؟ ما أحسبكم إلا منكرين عليَّ العقل حين أحدثكم بشأنه! . .

إنـه أنـا . . أنـا الـذي أخـاطبكم من أعلى هذا الضـريح . . أجل إنه محمد المجذوب بلحمه ودمه، ولكنى أقسم لكم أيضاً إنى لم أكن الوحيد في ارتكاب هذه الجريمة، وإن ثمة شركاء كثيرين أعانوني بل دفعوني دفعاً الى هذه الهوة وسترونني أكثر جنوناً حين أقول لكم إن هذه الثكلى التي تملأ أسماعكم بنحيبها الموجع على ولدها هي واحد من هؤلاء الشركاء الذين ائتمروا معي بهذا الشاب، وأنكم أنتم جميعا ـ الذين تثورون بالقاتل كل هذه الثورة ـ بعض أولئك الفاعلين في حبك هذه الجريمة الهائلة! . . .

لاتعجلوا بالحكم واستعرضوا أولاً أعمالكم في غضون هذا الاسبوع بل في هذا الشهـر بل في هذه السنـة، بل طوال أيامكم المـاضية . . تذكروا جيدا . . إنكم ستجـدون في هذه الأعمال عناصر هذه المؤامرة كلها . . وسيرى كل منكم حين يخلو الى ضميره حقيقة ما أقول واضحة جلية لا سبيل الى نكرانها، وسيعترف كل منكم أخيراً بأنه القاتل . . وأنه قمين بأن يحمل مع (مصطفى صالحة) نصيبه من العقاب على هذه الجريمة المشتركة! . .

لقد سقط هذا القتيل ليل أول أمس في ذلك المقهى الذي تعرفونه، والذي يمر به معظمكم كل يوم لقد سقط هناك دفاعاً عن حق يراه في امتناعه عن تأدية الليرة السورية الى قرنه على المائدة التى تسمونها (الخضراء) فلم يكن لدى خصمه من سبيل لاقناعه سوى المدية يبعثها في احشائه، ثم ها أنتم هؤلاء تمرون كدأبكم،

بهذا المقهى ولعل أكثركم ينظر بأم عينه الى هذه المائدة، بل أن بعضكم لا يزال يملؤها بنفسه في مثل تلك الساعة المتأخرة الرهيبة، فماذا صنعتم ليت شعري بإزاء ذلك؟!.. لا شيء بالتحقيق.. ولو قد أيقنتم بوجوب أن تصنعوا شيئاً لكان عليكم بالأقل ان تحطموا بأيديكم بل بأسنانكم كل مائدة في كل مقهى في هذه المدينة، وأن تسوقوا بأنفسكم الى السجن كل واحد من أصحاب هذه المقاهي الفاجرة المجرمة..

ومالى أذهب بعيداً!.. ألستم جميعاً تستنشقون رائحة (الحشيش) كل مساء، وفي كل زاوية من شوارع هذا البلد وأزقته!.. أو ليست قليلة هى الشفاه التى لم تنطبق بعد على حلمات تلكم النراجيلِ القذرة المنتنة وتلك الكؤوس الآثمة الموحية للإجرام والمعروضة على قوارع الطرق من كل حدب وصوب!.. هل يستطيع أحدكم أن يدفع عن نفسه أو عن أحد قرابته أو عن أحد معارفه تهمة الاتصال بهذه المناكر، بل هل يجرؤ أحدكم أن يزعم لنفسه أي سابقة في كفاح هذه الموبقات أو إنكارها على الأقل؟!..

وما لي أبعد أيضاً في القياس.. أليس اللواط قد أصبح من الحوادث العادية التي تكاد تدخل في حيز المفاخر عند الكثيرين من أبنائكم.. وهذه المواخير الأخرى.. ألم تعد مرتاد الجيل على اختلاف مراتبه، بل ألم تكد تصبح مأوى هؤلاء النخبة من فتيانكم المدْرَسيين أنفسهم إلا من حجزه عنها قصر اليد فاكتفى بأن يدور حولها في غدواته وروحاته متلهفاً الى فرصة ممكنة!.. ثم هؤلاء الاطفال من أفلاذكم الشاردين مع الكلاب في الأزقة، يتلقنون أخطر الضروب عن اماثيل المستقبل ويهيئون أنفسهم للانزلاق في هاوية الغد!!.. ومع ذلك فأين هو الرجل الذي شغل بعض وقته في التفكير بذلك الخطر المطرد المهاجم من كل مكان؟!.. أسألكم عن هذا وحده، ولن أكلفكم جواباً عليه، لأنني أنا نفسي استشعر العجز والخجل حين ألقى مثل ذلك السؤال على نفسي!.. على أننى أحب أن لا أبتر مغامرتي فاسمحوا لي أن أوجه الي هذه الوالدة الثكلى نفسها بعض ما يتلجلج في قلبي من القول.

أيتها الأم المفجوعة! . . لقد عرفت أن فقيدك هذا كان دائب الغياب عن منزلك الى ما بعد تلك الساعة المشئومة، فماذا فعلت لمحاسبته على ذلك التشرد المريب! أو بماذا كنت تقنعين نفسك من أمره؟! . .

أحسبك لا تجرئين على جواب، ولو فعلت لاقتضيتك برهاناً، ولسألتك أن تذكرى لنا فضيلة واحدة من الدين أو الخلق حبوتها ولدك طوال سنيه العشرين. . على أنني أعلم أنك لا تستطيعين شيئاً من ذلك لأنك لم تعرفي له أثراً خلال نشأتك ولا بين أترابك، وأعلم كذلك أنك ستدفعين عن نفسك كل تبعة بحجة واحدة هي العجز، ولكنى لن أقنع بهذا لأن لي أن أسألك أيضاً: ألم تكوني قادرة على السعي بقدميك هاتين الى حيث تدركين ولدك، أو لم يكن في مقدور لسانك هذا الذي يسعدك بالتعديد والندب أن تستعمليه مرة أو مرتين أو مرات في تعزيره، وفي توبيخ هؤلاء السفلة من رفاقه الذين يغرونه بالانكباب على هذه المائدة أو على هاتيك الجوزة أو على تلكم الكأس في الليالي الطويلة السوداء! . .

أرأيت كيف ينقطع عمل الباطل تلقاء سلطان الحق! . . إنك لم تفعلي شيئاً من ذلك البتة لأن أهم الأماني في نظرك الساذج البهيم هو أن يكون لك ولد، وأن يصبح هذا الولد شاباً يمرح على هواه لا تبالين أمراً ولا تعنين بشيء من وراء ذلك! . .

أوليست هذه فلسفتكن جميعاً أيتها الأمهات! . . ففيم إذن تلمن القدر، وفيم تسترسلن في هذا العويل عندما يصير أولادكن الى الهدف الذي ارسلتنهم بأيديكن إليه؟! . .

وعلام تستسلمون أنتم أيها الرجال الى مثل هذا الأسى الصاخب حين ينتهى الامر باحدكم الى الغاية التي مهدتم لها، وتعاونتم على دفع أبنائكم وأنفسكم في مزالقها؟! . .

على أنني لا أنسى أن لكم ولي شركاء آخرين أيضاً في هذه الجريمة، ليس من النصفة أن يظلوا بمنجاة من يد العدالة. . ولعل هؤلاء الشركاء أحق بالقسط الأكبر من التبعة الكبرى. . لأن في يدهم جماع القوة التي في مكنتها توجيه الناس الى اجتناب هذه المهالك. .

أجل. . إن للسلطة الحاكمة يداً وأي يد في هذه الجناية، وأنا حين اتهم هذا الـظنين الجديد لا أراني بحاجة للإكثار من الشواهد المؤيدة لهذا الاتهام، ففي صدر كل منكم ما يكفيني مؤونة ذلك. . على أن هناك قصة صغيرة سأذكرها لكم لعلاقتها المباشرة بجريمة اليوم.

قدمت ذات يوم للسـلام على أحـد الضبـاط الجدد من رجال الأمن في هذه المدينة، ولم يكن ذلك غرضي وأنا الذي لا أكاد أعرف لي صلة بأحد من هذه السراي، ولكني رغبت في أن أنفس عن صدري بعض ما تُكابده من الألم لما أعلم من أمراض هذا المجتمع، فقلت له «هل تعرف يا سيدي أن الناس في هذا البلد يريدون أن يحبوك؟!». وكان بالطبع استفهاماً غريباً وقال: «ولكن. . هل يمكن أن أعلم لماذا»؟!. . قلت «لأنهم يتوسمون في قدومك خيراً يمكن أن يخفف الكثير من شقائهم. . قال وكيف؟. . قلت: ان الذي تسألني بدورك عن كيفيته هو الهدية التي جئتك بها. . .

إن هذه المـدينـة قد ابتليت بطائفـة من المقـاهي هي في الحقيقـة مقـامر و (محاشش) خطرة تجتاح أخلاق هذا النشء فتحطم حياة كثير من الأسر المستورة العاملة، فإن الرجل من هؤلاء العمال يقضي نهاره كادحاً في سبيل الورقة حتى إذا استحوذ عليها مضى بها توا الى هذه المبالع فلا يزال يغالب بها الى آخر الليل وقد بات أطفاله وأخواته على الطوى إلا أن ينجدهم أحد المحسنين بما يخفف من آلامهم، وقد علم الذين كانوا قبلك بكل ذلك غير أنهم لم يصنعوا شيئاً لأن الجنود الذين يعتمدونهم لمطاردة هذه الجرائم لم يكونوا يحتاجون إلى أكثر من صداقة قليلة مع أصحاب هذه المصايد، بل لم يكن بعضهم ليعوزه أكثر من بضعة فرنكات أو شحطة من الحشيش حتى يعودوا منها وقد نسوا الجَمَل والجمَّال معاً، فهل لك بالإشراف ولو ليلةً واحدةً من كل أسبوع على هذه المزالق الأخلاقية؟!. .

إنها لن تكلفك أكثر من ذلك. . وثق بأنك حين تفعل هذا تكسب قلوب الناس ورحمة الله. . فضلاً عما تردُّه من الطمأنينة المفقودة لهذه الأسر العديدة المسلوبة. .»

فهز الرجل يدي شاكراً واعداً باعطاء هذا الواجب كل ما يستطيع . . ولكن . . هل تريدون أن تعلموا نتائج هذا الوعد؟! . إنكم ترونه هنا في هذا القبر الذي بين أيديكم . . ولقد مررت بهذا الضابط اليوم واستوقفته أذكره بوعده وأعرض لعينيه هذه النتيجة الجديدة فلم يزد على قوله بالحرف «لقد بلغ الداء الصميم فليس من سبيل لعلاجه البتة . . ) فهل ترون في هذا القول ما يختلف عن عذركم الذي تقدمونه حين تحاسبون على هذا الاهمال المجرم! . .

أيها الناس «إن جريمة اليوم ليست غير حلقة من سلسلة رأيتم عدة من أجزائها حتى اليوم، وأؤكد لكم أنكم سترون بأنفسكم الى حلقاتها متتابعة الواحدة تلو الأخرى . . إن الهاوية التى تفتحونها بسكوتكم عن هذه المنكرات تنهار حوافها تحت أقدامكم وأقدام إخوانكم وأبنائكم من شباب هذا البلد، ولن تقف هذه الحواف عن انهيارها، ولن يقف هذا النشء عن ذلك حتى تقروا على أنفسكم بهذه الجريمة، وحتى يدرك كل منكم أن لكل حركة وسكنة منه أثراً كبيراً في توجيه خطوات هذا المجموع صعوداً أو هبوطاً في طريق الحياة! . .

إن كل جناية يرتكبها امرؤ من الناس إنما هي نتيجة تعاون مجموعهم على تأليف عناصرها الأولية، وكما أن البخار المضغوط في المرجل لا يتسرب الا من أضعف نقاطه :. هكذا روح الجريمة لا تزال تضطرب في صدر الأمة حتى تظهر بأضعف أشخاصها . .

واستمعوا الى هذه القصة الأخرى «لقد جاء الطاغية زياد بن أبي سفيان البصرة، وقد بلغ بها الفسوق دركاً جعلها بدعة بل وصمة في جبين العالم الإسلامي، فحشد الناس في المسجد الجامع وصب في آذانهم خطبته البتراء قائلا : (ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر! . . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة! . . قربتم القرابة وباعدتم الدين . . كل منكم يذبُّ عن سفيهه . . ما أنتم بالحكماء وقد اتبعتم السفهاء حتى انتهكوا حرم الإسلام . . حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أُسوِّيها بالأرض هدماً وإحراقاً، لآخذنَّ الوليَّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي حتى يلقى أحدكم أخاه فيقول انجُ

سعدُ فقد هلك سعيد..»

ولم يخلف زياد وعده، فما هو إلا أن بث الشرطة واعمل السيف حتى طهرت المدينة من كل آثار الماضي الأسود.. فانظروا الى بصرتكم هذه.. ألستم ترونها مثلاً معاداً من ذلك الجحيم!..

ألم تغد مقاهيكم مساخر، وانديتكم محاشش أو مقامر، وبيوتكم حانات لأمهات الكبائر، ثم ألم يغد فتيانكم رهائن هذه المواخير السرية والعلنية المنصوبة في أرباض البلد وأزقتها؟!..

فماذا تنتظرون غير زياد جديد يغسل بيوتكم وشوارعكم وأنديتكم من أوضار هذه الرذائل!..

أجل.. لقد طوت الأقدار صفحة زياد وإضرابه من الطغاة الذين ينتقم الله بهم ثم ينتقم منهم، ولكن لا يزال هنالك قوة الانتقام العظيم.. هناك قوة الله التى نسيتموها فانستكم أنفسكم.. ألا ترون الى آثارها في نفوسكم وأوطانكم!.. ألا ترون الى صنعها المعجز بين ظهرانيكم.. أجل والله إنكم لترون وتحسون كل ذلك ولكنكم واحسرتاه فقدتم القلوب التي تعي الذكرى وتنتفع بالعبرة، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور...

○ ذلك بعض ما كنت أهم بأن أرمي به أولئك الناس حين صعدت حافة ذلك الضريحْ المشرف عليهم، ولم يكن ليعوزني أن أهتم باعداده وترتيبه، فقد كنت أحس من تدفق الشعور في جوانحي ما يضمن لي المدد الكافي من الرأي والكلام؟ على أنني لم أكد أفتح فمي للحديث حتى بوغت بما صرفني عن ذلك بالقوة..

لقد كنت أراقب انتهاء ذلك التلقين الساذج من الشيخ المنحني بعمامته الصفراء على القبر، لأتبعه بتلقيني الآخر لهؤلاء الموتى الآخرين، ولكنه لم يكد يختم نجواه حتى اتجه الى الناس يعظهم بما فتح عليه من إلهام متصل، ويتلو عليهم قول الله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم**

متهون﴾!! فإذا بلساني قد عقل عن الكلام، وإذا بنفسي تغرق في جو عميق من الحِكم الإلهية ينفح الله بها هذا الإنسان المتمرد الظالم لنفسه، على هذا النحو العظيم من التعليل الحكيم والحنان الرباني الكريم . .

ثم إذا أنا عائد مع الناس يغمرني ما يغمرهم من الصمت، وأردد ما يرددونه من عبارات العزاء لتلك الأيدي الممتدة لمجاملة المعزين . .

طرطوس ـ سورية ١٩٤٠م

**استدراك**

هكذا كان تفكيرنا منذ كنا، وبفضل الله لا نزال على العهد

المدينة المنورة ١٤٠٧هـ

المجذوب



# دليل الكتاب


| الموضـــوع | الصفحـة |
| --- | --- |
| المقدمـة | ٥ |
| أصح البشائر | ٦ |
| ملامح باهـرة | ٢٦ |
| قضية البعث بين الوحي والعقل | ٣٩ |
| أقباس من سورة البقرة | ٥٦ |
| قبسات من أخلاق النبوة | ٦٠ |
| المعركة الأبدية بين الإسلام والجاهليه | ٦٥ |
| سبيل المسلمين لاستعادة قيادتهم العالمية | ٨٩ |
| مجتمعنا الإسلامي . كيف . وكيف | ٩٩ |
| الترف وأثره في مصاير الأمم | ١١٥ |
| الأسرة المسلمة وما السبيل لعودتها؟ | ١٢٧ |
| أكبادنا التي تمشي على الأرض | ١٣٧ |
| رمضان الذي أنزل فيه القرآن | ١٤٧ |
| حقائق جليلة في كلمات قليلة | ١٥١ |
| حول مطالع الهـلال | ١٥٥ |
| حقائق وأباطيـل | ١٦١ |
| الى الإسلام أيها التائـهون | ١٦٧ |
| من أجل القرآن والعربيـة | ١٧٧ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| تأملات في أمثال القرآن | ١٨٣ |
| وفي عجـائب الكـون | ١٨٧ |
| وتعابير ذات أبعـاد | ١٩٣ |
| الذين بدلوا نعمة الله كفرا | ١٩٧ |
| ومن لم يجعل الله له نوراً | ٢٠٣ |
| مواقـف ومشـاهد | ٢٠٩ |
| رحلة فى عالـم الأحـلام | ٢١٧ |
| قبـاء الأمس وقباء الغـد | ٢٢٥ |
| تجارب حية في عملية التربية والتعليم | ٢٣١ |
| على السبورة | ٢٣٧ |
| ثـغرات في المناهـج | ٢٤١ |
| المسكرات والمخدرات والمفترات | ٢٥١ |
| السكران | ٢٥٧ |
| عالم الجن بين الخرافة والحقيقة | ٢٦٢ |
| أيهـا الناس | ٣٠٣ |

# من آثار المؤلف المطبوعة

فضائح المبشرين
المرشد في الأدب العربي (مع آخرين)
نار ونور. شعر الديوان الأول
قصص من الصميم
صور من حياتنا
الأدب العربي للسنة الأولى من الجامعة الإسلامية (بالاشتراك)
الأدب العربي للسنة الثانية من الجامعة الإسلامية
دروس من الوحي
مشكلات الجيل في ضوء الإسلام
تأملات في المرأة والمجتمع
مشاهد من حياة الصِّديق
همسات قلب ـ شعر الديوان الثاني ـ
قصص من سورية
قصص لا تنسى ـ للشباب والطلاب ـ
بطل إلى النار
الآيات الثلاث
بطل من الصعيد
دماء وأشلاء
من تاريخنا
الألغام المتفجرة

اللقـاء السـعيد

تحفة اللبيب من ثقافة الأديب

مع المجاهدين والمهاجرين في باكستان

مشاهداتي في ربـوع الهند

ذكريات لا تنسى/ من الفلبين وأندونيسية وتركية وقبرس/

أضـواء على حقـائق

نظرات تحليلية في القصة القرآنيـة

كلمـات من القـلب

كلمـات مضيـئـة

أفكـار إسـلامية

علماء ومفكـرون عرفتهـم ج ١ و٢

فـي ظـلال الايمـان

من وحـي الأحـداث

يصـدر قريبا ان شاء الله

علمـاء ومفكـرون ج ٣

ردود ومناقشـات

أدب ونقــد

آلام وأحلام / شعر الديوان الثالث /

من القـصص التمثيـلـي